obeikandl.com

مواطنون بلا وطن

هذه الترجمة الكاملة لكتاب

Dubravka Ugresic

No Body's Home

صدر العمل الأصلي عن دار نشر

دوبرافكا أوجريشيك

مواطنون بلا وطن

رؤية للهوية الغربية ودول شرق أوروبا بعد انهيار الشيوعية

ترجمة / **د. مدحت طه**
مراجعة/ **محمود بطروخة**
الغلاف / **هانيبال – هيبو**

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من البوسنة
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع:٥٨٤٣/٢٠١٠
ISBN: 978 – 977 – 6299 –23-8

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2010

This book is published in the South-South Translations project framework of Next Page Foundation,
Financially supported by the OSI - Budapest

دوبرافكا أوجريشيك

مواطنون بلا وطن

ترجمة / مدحت طه

وكالة سفنكس

رؤية كونية

إذا ما تذكرت شيئاً من أحلامي، فعادة ما يكون موقفاً أو صورة، لكنني نادراً ما أتذكر الكلمات المنطوقة أحلامي التي أراها مثل الأفلام الصامتة. على أية حال، في حلم حديث لي، قرصني شخص ما في كمي وقال:

- تعالي، دعيني أريك رؤية شاملة للعالم!

الرؤية الموعودة – للأسف– لم تتحقق أبداً على أرض الواقع!.. أفقت من نومي، وكانت تلك الجملة هي كل ما بقي في ذاكرتي مع وخز خفيف من الإحباط نتيجة الوعد الذي لم يوف به، ماذا إذا لم أفق؟ ما الذي كان يمكن أن أراه ؟.. صور مثل تلك الصور الموجودة في أفلام الخيال العلمي، حيث تبدو الأرض مثل إعلان التقطه سائح بكاميرا فيديو أو فيديو كليب مثل إعلانات سي.إن.إن. عن أفضل فنادق العالم.. هل سأكون قادرة على مشاهدة رؤية كونية للعالم إذا ما كنت أنظر من خلال تيليسكوب عملاق مثل تيليسكوب آليتا Aelita، كما فعلت ملكة المريخ في الفيلم السوفييتي القديم "بروتازانوف"؟.. أم كنت سأحصل على وجهة نظر كونية بالطيران مرتدية طوق سوبرمان القوي الآمن؟ أو إذا

جاز لي القول: ما الذي كان ليناسبني أكثر؟ وما الذي كنت سأراه؟ هل كنت سأرى أي شيء؟!

إننا نعيش في عصر بصري جديد، لكن الرؤية الشاملة للعالم صارت أكثر قتامة عما كانت من قبل.

بالطبع يعتقد العديد من الناس أن الأرض قد تقلصت في هذا الزمان – مابعد اليوتوبيا – مثل منشفة من القطن في مغسلة! إذ يعتقد أصحاب مقاهي الانترنت أنهم يمتلكون العالم في أكفهم، ويعتقد أهل الأعمال والناشطون في الدورة العالمية الشاملة لرأس المال أنهم يحملون الأرض في جيوبهم.. وبالنسبة للسائحين، أولئك الصناعيين المستخدمين لشركات الطيران، فقد صارت الأرض صغيرة لدرجة محبطة.. وبالنسبة للمهاجرين، الذين يكدحون ويزحفون للعبور من الأماكن الأسوأ إلى الأماكن الأفضل، وأولئك الذين يجلبون الأطفال الصينيين ويشحنونهم مثل الطرود البريدية الجوية إلى هولندا (تجارة الأطفال)، ربما بدت الأرض لكل هؤلاء مثل قطعة من الجبنة السويسرية – مليئة بالثقوب.

حتى السكان في "بابوا" Papua في غينيا الجديدة يشاهدون قناة سي.إن.إن.، وعليه فما الذي يحتمل أن يفوتهم مما يجري على الكرة الأرضية؟

إننا لم نحصل على رؤية شاملة!.. ربما تسربت الجملة إلى

حلمي من مرض ما يتعلق بالألفية الجديدة. . ولكن، كيف تتبدى هذه الرؤية؟ لقد استخدم مصطلح "الاستقلال الجميل" في المراجع القديمة للمعالجين النفسيين، لوصف أحد أعراض الهيستيريا .

إن غياب القلق، والاستقلال الجميل هو الموقف الذي انتظر فيه الجنس البشري نهاية الألفية الماضية وبداية هذه الألفية؛ ربما كان هذا مجرد عَرَضْ لخوف عميق، مرتبك بتلك الأسئلة المزعجة:

من نحن؟ ! ومم تتكون؟ ! إلى أين نتجه؟ ! . . لماذا غدا العرافون أسرع إنباءً بمستقبل الأرض عن أسلافهم؟ ! ولماذا أمسينا أكثر قبولاً واستسلاما لتلك النبؤات. . هل المسألة أن مستقبل العالم معرض للخطر؟

إن الموضة المستحدثة - ذات التكلفة العالية- التي تقضي بحفظ الأجساد بالتجميد (على أمل العيش في حياة أخرى، في مستقبل غير معلوم) استبدلت اليوم ببدعة إطلاق رماد المرء - بعد حرق جسده- إلى الفضاء، ومن الواضح أن تلك الطريقة التي تقوم بها دار دفن أمريكية راقية للدعاية عما هو أحدث بطقوس الدفن، وأيضا الفكرة الشائعة التي تدعو لشراء تذاكر للقمر، قد تم تجاوزها اليوم بشراء فنادق عائمة أو طوافات عابرة للمحيطات باهظة الثمن لتكون نسخة حديثة من السفينة "تيتانيك" !

من الحقيقي تماماً أننا جميعاً نفكر بعمق، ونحلم بنفس الصور،

والمعلومات، والواقعية؛ لكن كل منا يدير حياته المحدودة بأسلوبه الخاص.

ربما كان هناك شعوراً بالراحة في تلك اللحظات من الإرهاق والكآبة أو تبلد الحس والفتور في إطلال عابر على المستقبل أو رفض التفكير فيه.

فربما العالم له قلب مضطرب وقد بليَّ تحت وطأة السرعة؛ فالقلب عجوز جداً، بينما السرعة جديدة وشابة معاً . وربما تستمر كذلك لعدة مئات من السنوات.

وقد تكذب "هيرين" Herein في الإجابة عن السؤال حول الركود العالمي المؤقت حتى يمكنها أن تراه؛ لأن الجنس البشري حتى هذه اللحظة لم يُرس بعد قواعد المرور للمستقبل – سواء كنا سيعاد تناسخنا (أو أننا سنتحد في حلقة مغلقة) مثلما يحذرنا المستقبليون القلقون، أو سيقود كلٍ واحد منا صاروخه الفضائي الخاص مثلما يقترح أولئك الأقل قلقاً – أو شيٍء ما سيبعث من جديد مما حدث في الماضي!، أنا لا أعرف شيئًا عن الشئون العالمية. . وإذا نجحت في اكتشاف شيء ما سوف أخبرك به. أنا لست بخيلة، ولن أخفي معلومة بمثل هذه الأهمية عن نفسي. . أياً كان الحال، بعد هذه الكلمات في الحلم – تعالى، دعني أريك رؤية شاملة للعالم – كنت أحاول أن أبقى أكثر انتباهاً في نومي! هل يحصل الإنسان على

الفرصة مرتين؟ لا أريد أن تفوتني الرؤية!

obeikandl.com

السوق المهجور

ما هو الهدف من حياتك؟!

سؤال قذف به عابر سبيل في وجهي ذات صباح أثناء سيري في شارع كامبريدج بولاية ماساسوشتس.

رأيته سؤالا لولبيًا جداً.. فكرت فيه، وأكملت سيري دون إجابة. منذ ذلك الحين كلما استوقفني أحد في الشارع أعرضت عنه.. فأنا أخاف أن يسألوني ذلك السؤال ثانية، كما أنني لا أملك إجابة عليه حتى الآن!

يجب عليّ الذهاب بمعدل أكبر لسوق السلع المستعملة.. سوق السلع المستعملة هو درس سريع عن الحالة الإنسانية وهو أيضا جلسة علاج نفسي.. كابوس يمكنك أن تواجهه دون توقع أثناء مواجهة ذاتك. والكثير من الناس يحبون التسكع حول أسواق السلع المستعملة،وبعضهم يذهب إلى هناك لأسباب عملية، فقد يحتاجون الحصول على شيء صغير مثل قطعة غيار لغسالة قديمة بعد نفاذ القطع الجديدة منها من المخازن. والبعض يتعامل مع تلك الأسواق كأسواق للجملة، خاصة الطبقة الدنيا من الناس. ويمكن تصنيف البعض على أنهم من جامعي المقتنيات، وهم أناس يخرجون

لكتشاف اللآلئ من بحار القمامة، والبعض من المغامرين في التجارة الذين ليس لديهم سيولة كافية للقيام بمغامرة تجارة حقيقية! وهناك أناس من الطبقة الدنيا مصابون بالحنين للأشياء القديمة. وهناك من يشبع رغبته الجنسية عن طريق النظر إلى الأعضاء ومتابعة مشاهد التحرش الجنسي في ضيق المكان. وهناك من يمرون بالمكان لإلقاء نظرة خاطفة على ماضيهم أوحتى مستقبلهم!

الدول الغنية تقوم بعمل كل ما في وسعها لاستئصال تلك الأماكن العشوائية، أو على الأقل التحكم في حالة الاختلاط أو الضجيج الصاخب فيها.. وتعد أسواق السلع المستعملة أقدم وأكثر حيوية من المجالس المحلية ذاتها، فهي تختفي في مكان ما، وتنمو في مكان آخر.. أما القوة الحقيقة لتلك السوق فهى لا تكمن في الفائدة التي ورائها، إنما في غياب الفائدة منها.

ولهذه الأسواق قانون ثابت يجتاز أي قانون محلي، فهي بديل له، وهي لا تخدم السياحة فقط، إنما تضيف حالة من التشويش المنظم لسوق السلع المستعملة وتمنح المدينة شيئًا من الغرابة والتميز.. على أية حال فسوق السلع المستعملة الأصيل هو سوق وحشي وشبه قانوني في أفضل الأحوال، ولا يقع في مركز المدينة، فعادة ما يكون في الضواحي إلى جوار أماكن نادراً ما يغامر الناس المحترمون بارتيادها.. كما أنها تخلق استعارة قوية لعالم بلا حدود، يتزاحم

فيه الناس وسيرون كتفاً بكتف، أولئك الناس الذين ليس لديهم فرصة – عدا ذلك– يمكنهم أن يتقابلوا فيها .

هناك أشياء في تلك الأسواق نادراً ما تجدها في مكان آخر: تمثال صيني متآكل لألهة النصر عند الأغريق، وميداليات الجيش السوفييتي السابق التي يبيعها الباكستانيون، بينما البولنديون هم من ينادون على التماثيل الصينية. . سوق السلع المستعملة هو في الحقيقة مكان الأسطورة! . . بل نقطة التقاء كبرى؛ فمثلا في سوق برلين اعتاد اللاجئون البوسنيون أن يتجمعوا في سوق برلين للسلع المستعملة ليتشاركوا في آخر الأخبار عن الأصدقاء ورفاق الوطن المفقود .

سوق السلع المستعملة هو بمثابة تحرير من وهم أو خيبة أمل ما، وهو بمثابة مواساة أيضاً، ويشبه المقبرة في أحيان كثيرة، لأنك قد تعثر فيه – بين ركام الكتب الممزقة والصور والألبومات العائلية والتسجيلات القديمة والأشياء المنزلية والملابس المهلهلة – على شيء يخص حياتك الماضية، وربما ترى فيه مستقبلك أيضاً !

بإيجاز؛ سوف تبقى هذه الأسواق في مكانها عندما نرحل عن عالمنا؛ فالواقع يقول أن ممتلكاتنا تعيش بأكثر مما نعيش، وتؤول أشياؤنا لحالة أبدية مجهولة وساخرة.

زرت منذ عدة سنوات سوق موسكو الشهير للطيور. . كان

هذا السوق مشهداً نابضاً بالحيوية والنشاط، لتدمير القانون والنظام الشمولي بطريقة مغايرة؛ فقد كان إيماءة مجازية عن الاستخفاف بالنظام الشمولي الذي لا قلب له، فالسوق قلب حار للمدينة ونقيض للنظـام.

هناك، حمل رفيق ذو أنف محمرة إناء زجاجياً، وأخذ يرجه للخلف وللأمام، وقد سبحت فيه سمكة بلون أزرق سماوي. . قال الرفيق:

– هـذه السـمكة اسمها فازيا Vasya وقـد ماتـت السـيدة صاحبتها حديثاً، وظلت "فازيا" تسبح داخل الإناء منذ ذلك الحين، ولا عزاء لها !

وسألته:

– مـاذا يمكنني أن أقدم لهـا ؟ كيف يمكنني أن آخـذها معي خارج البلاد ؟

وأيقظ الرجل ضميري بقوله :

– ربما يمكنك أن تجعلين "فازيا" تحيا حياة طيبة لا أستطيع أنا نفسي أن أوفرها لها .

وبالفعل دفعت ثمن الإناء وتركني البائع وحدي بالإناء تسبح فيه السمكة الزرقاء "فازيا" بينما ذهب هو لأقرب بار !

ثم، كنت في زيارة لموسكو مرة ثانية في وقت ليس ببعيد، وعدت

مرة أخرى لسوق الطيور، ومرة أخرى دهشت لحال السوق ومزاجه الكرنفالي، حيث كان الهواء في مركز مدينة موسكو يفوح برائحة المال.

تجتمع في سوق الطيور الحيوانات ذات الرائحة وتختلط برائحة بالناس، حتى أنه يصعب عليك القول من فيهم الذي يبيع الآخر.

وبينما يشتري الناس في وسط المدينة أحذية "جوتشي" GOCCI، يشترون هنا كل الأشياء؛ فهناك زبائن يمكنهم الحصول على تماسيح أو أفعى أو حتى نمر، أو أي شيء يرغبون فيه. وهناك بائعة للصقور المدربة بشكل خاص على مطاردة طائر السنونو، هذه الصقور التي يشتريها الكرملين حتى تقضيٍ على طيور السنونو، وتظل قبته ذهبية لامعة والميدان الأحمر نظيفا . . وهناك المزيد والمزيد، يصطاد التجار العابرون طائر السنونو ويحبسونه في أقفاص، ثم يأتون به إلى سوق الطيور؛ ومقابل ثمن متفق عليه يمكن لزبائنهم أن يطلقوا طائر السنونو من أسره!

في تلك المرة لم اشتر سمكة؛ بل أطلقت العديد من طيور السنونو أحراراً من الأسر، ولم يكلفنٍي الشعور بالرضا – الناشيء عن دوافع أخلاقية– ثمن إطلاقها كثيرا . . فقط بضعة روبلات.

حقيبة سفر

هناك مؤلفون كتبوا صفحات رائعة عن المهجر، وهم يضفون – دون عمد– على المنفى لمعاناً، وبهذا يعطونه بريق التمرد الرومانسي في مواجهة احتياجات الحياة اليومية، ورفض الوطن الأصلي من أجل الشعور برعشة الحرية الشخصية.

ويتغاضى الذين كتبوا تلك الصفحات الرائعة عن التوافه: مثل انتحار"والتر بنجامين" لأنه لم يستطع أن يحصل على أوراق هويته الجديدة؛ وربما كان كل شيء قد تحول إلى صورة مختلفة لو قام الموظف الرسمي بختم جواز سفره.

لكن، في الأساطير – بما فيها أساطير المهجر – يميل الجميع لنسيان ما فعله ذلك الموظف الرسمي، وهذه هي الكيفية التي يصبح بها الوجه الحيادي – غير المهم– للبيروقراطية وجهاً لا يقدم ولا يؤخر؛ والفضل في ذلك للمؤلفين، والتوقعات الرومانسية للقارئ، والوجه القاسي للمصير الذي ينتظر المهاجرين إلى بلاد المهجر.

وفي حالات كثيرة، يضفي الناس الذين يعيشون في المهجر بأنفسهم، الزخارف والإثارة على قصص هجرتهم، أو يذعنون تماماً للمهجر على الهيئة التي يمجده بها الناس من حولهم.

أعرف شخصاً ليس لديه اعتراضات عندما يستقبل المجتمع - الذي وجد نفسه فيه - قراره بالعيش مؤقتاً في الخارج نتيجة مثلاً: للسخط الأخلاقي للمثقفين ضد الموجة المتصاعدة من الفاشية الجديدة.. بشيء من التمجيد !

كان هذا الشخص، الذي أعرفه، في حقيقة الأمر يراوغ زوجته أكثر مما يراوغ موجة الفاشية الجديدة، لكن الأمر كان متأخراً جداً حتى يمكنه الإعتراف بذلك... فهو لم يستطع تحمل عبء أن يخيب أمل وتوقعات مجتمعه الذي تبناه حديثاً.

ولم يكن السلوك الأخلاقي لهذا الشخص بعيداً عن الواقع حيث جعله هروبه من زوجته مقاتلاً ضمنياً ضد الفاشية التي انتشرت في ذات الوقت كالوباء.

كما أعرف حالة على النقيض من ذلك؛ حيث ترك أحد أصدقائي بلده نتيجة لشعوره بالملل عند غزو الفاشية لها، ولم يتردد في إعلان ذلك على الملأ.. وقد عرض عليه البلد الذي ذهب إليه حق اللجوء السياسي، وسمح له بالحياة في سعادة دون قيود بطريقة لم يكن قادراً على العيش بها في بلده الأصلي كشاذ جنسياً.. عندئذ لم تعد الفاشية تقلقه كثيراً بعد الآن!

إن الباحثين عن اللجوء السياسي، والنازحين، والهائمين على وجوههم من الرُحل، والمهاجرين، والناس الذين تم نفيهم، وأولئك

الباحثين عن أوراق هويتهم؛ كل هؤلاء يزعجون المجتمعات التي ينتهي بهم المطاف فيها، فالأماكن المتحضرة بالطبع لا تقبل ذلك بهذه السهولة. . فهم يبددون أموال خزانة الدولة، ويعلنون عن تعددهم الثقافي بينما يعملون بجدية في مشروعات للدعم ولدمج العناصر والأعراق المختلفة، وتطوير مؤسسات الرعاية، والهيئات والشبكات والبنى البيروقراطية. . كما أنهم ينظمون المظاهرات لدعم هذه أو تلك الأقليات المهاجرة (أياً كانت الصورة التي ستبدو عليها تلك الأقلية في رأي المصلحة العامة) .

بإيجاز، وفي كلمات قليلة يؤدي الناس الطيبون أدوارهم النشطة لدرجة الإجهاد، للحفاظ على أنفسهم من سحق رؤوسهم في مواجهة الحقيقة المؤلمة: أن الوافدين الجدد يضايقون الغالبية المحلية.

ويميل الأدب لإظهار الجانب الرومانسي في المهجر، بينما يعيش الناس – في الواقع العملي– في المهجر غارقين في الصدمة . .فإن صورة المهجر تفترض وجود حالة من التشتت والتمرد، لكنها أيضاً تفترض طاعة العبيد – من المهاجرين– للوصول إلى نجاح عملية اكتساب وطن جديد .

السبيل الوحيد الذي يمكن لأولئك المهاجرين كي يخلفوا وراء ظهورهم الشعور بالصدمة هو ألا يخلفونها وراءهم أبداً، بل أن يعيشوا الصدمة كحالة دائمة وأن يحولوا غرف انتظارهم إلى

أيـديولوجيا مبتهجـة بالحيـاة وأن يعيشـوا حالـة الفصـام في المهجـر باعتبارها معياراً للحالة السوية. . وأن يعبدوا إلهـاً واحـداً فقط: حقيبة السفر!

إن الجانب العاطفى في المهجر هو أن ترتبط بحقائب السـفر. . أكتب تلك السطور وحولي دسـتة من الأكيـاس، وحقائب السـفر العديدة، والحقائب غالية الثمن التى تم شـراؤها من مدن متعددة؛ أنظر إليها بإعجاب فهم رفاقي الحقيقيون الشاهدون على تجوالي الدائم. . فحقائب السفر تسافر، وتمضي عبر الحدود، وتتحرك معي للداخل وللخارج.

وإذا كان هناك شيء ما أحلم به، فلن يكون وطناً جديداً، بل حقيبة سفر جديدة. . ولم أزل أشاهد حقيبة السفر التي أحلم بها في أحد المحلات الراقية بلندن ولن أنساها أبداً. . وتلك الحقيبـة في نفس طولي تقريباً، وتفـتح مثل خزانة الملابس، وقد تم تقفيلها من الخارج ومن الداخل بأرقى أنواع الجلود المصنعة يدوياً. . ويوجـد داخلها تجهيزات أكثر دقة من الخزانات ذات الرفوف المسـتخدمة لحفظ أجمل الكئوس والأطباق في العالم، مع أجزاء مسـتقلة سـاحرة لحفظ أي شيء وكل شـيء بدءاً من كروت الإئتمـان الرقيقة وفرش الأسنان حتى فساتين السهرة ومعاطف الفراء والأحذية، ويبلغ ثمنها ثمانية آلاف جنيه استرليني!. . ويمكنك الحصول عليها من لندن،

وإذا كنت تعرف حقيبة سفر أغلى منها في أي مكان فاخبرني على الفور، وبذلك سأكون على علم بأحدث المنتجات، لأنني إذا ما فزت بالجائزة الكبرى في اللوتاري في يوم ما، فأود أن أكون على علم بما سوف اشتريه سلفاً !

وسوف يتفق معظم الناس سواء في الشرق أو الغرب،على أن الوطن سيظل هو الأفضل. . وإن كنت أراهم مخطئين سواء كانوا من الشرق أو الغرب. . فستظل حقيبة السفر هي الأفضل !

opeelkandil.com

obeikandl.com

البدروم

من ذا الذي يعرف نوع الأنشطة المخربة التي يقوم بها الناس ضد نظام الحياة اليومية، دون إدراك منهم أنهم يخربون شيئاً ما ؟

أن نظام الحياة اليومية هو نظام قاس غير متسامح مثل الحياة العسكرية، حيث تدعم فيه كل الأيديولوجيات الكـــبرى - سواء كانت دينية، أو شيوعية، أو رأسمالية - وكلها تشبه بعضها البعض في هذه النقطة: العمل كأساس لخلاصنا .

وقد يرجع فضل العمل في تطورنا من مرحلة القردة (حسب نظرية النشوء والارتقاء عند داروين)، فالإنسان الممارس للعمل هو فقط - وليس العاطل- الذي يمكنه أن يكون كائناً بشرياً أصيلاً. . والأيديولوجيات البديلة لا تقدم ما هو أفضل. . حيث ينضم المرشدون الروحيون (عند الهندوس)، والمعالجون النفسيون، وكل هذه الأيديولوجيات التي تشبه الحلوى والفاكهة، والمدربون والمعلمون في حياتنا. . كل هؤلاء ينضوون تحت لواء قصة: الشيوعية - الرأسمالية.

تعد الهجرة حالة مثيرة لعدة أسباب، فعادة ما يهرب المرء من نظام ما بسبب السياسة، وبعد مرور بعض الوقت وتراجع ضغوط

تلك الأسباب، يكتشف المرء أن نظام الحياة اليومية هو نفس النظام تقريباً في كل مكان، وأن تلك البلاد - التي هرب إليها- منظمة بطريقة ما حتى يكون كل واحد منا مدفوعاً للخوض فيها فيصبح كجهاز حمائي لتعشيق التروس في الميكانزم الأكبر للمجتمع.

فالأجازات والرحلات السياحية تصبح مسألة طقسية فحسب، ومسألة تنظيمية، وأساليب مقبولة اجتماعياً للهرب من نمط الحياة اليومية. . لكن حتى الأجازة لا تخلو من الأيديولوجيا (فقط الشخص الذي يعمل ولديه القدرة المادية له الحق في الحصول على الأجازة) وهو ما يعد نوعاً من العزاء، ولا يوجد سبيل عاطفي - إلى حد ما- لتجنب روتين الحياة اليومية، لأن القيام بذلك يتطلب القيام بتغير راديكالي بالفعل.

سمعت عن حالة السلوفيني الذي قضى ثلاثين عاماً يذهب فيها للعمل في موعده. . كان منضبطاً للحد الذي جعل زملاؤه الآخرون يضبطون ساعتهم عليه ! . . وقبل أن يدخل مبنى العمل كان يقف للحظة ويأخذ نفساً عميقاً وينظر للسماء ثم يطلق زفيراً ويذهب للداخل. عرفه الناس بهذه الكيفية، بهذه الإيماءة – والشهيق – والنظرة السريعة للسماء – والزفير– ودخول المبنى . . يقولون أن الرجل توقف ذات يوم كالمعتاد في الخارج أمام المبنى، وشهق، وحملق في السماء، وزفر، وسقط على الأرض؛ سقط بأزمة قلبية قاتلة !

هاجر أصدقائي من عائلة آل بانشيفيتش Punsheviches إلى الولايات المتحدة منذ نحو عشرين عاماً مضت، وكنت اتصل بهم تليفونياً كلما أسافر إلى الولايات المتحدة، وأسأل:

- إذن ماذا تفعلين الآن ؟

فتجيب:

- فالياميسيا . .

ترجمة هذه الكلمة تعني "لا شيء ذي أهمية، أتكاسل هنا وهناك . ." ولم يكن وقت اتصالي بها في عطلة نهاية الأسبوع، حيث يضيع المرء الوقت بلا عمل متكأ على الأريكة، أو راقدا طوال اليوم في السرير في روب، ويأخذ وقته في تناول قهوته، ويحدق في جهاز التليفزيون؛ لكن آل بانشيفيتش عاشوا حياتهم بالفعل في السرير. يتناولون غداءهم في السرير، ويقرأون، ويتحادثون، ثم ينامون. وأنا أيضاً، كانت تسمح لي أحياناً بالجلوس معها على السرير كصديقة متحدثة بالروسية.

كان السرير أرضيتهم الصلبة والوحيدة المستقرة، حيث النهوض من السرير يعني لهم التواصل الاجتماعي وترك مملكة الحرية!

كان السرير نوعاً من علو الذات لمستوى أعلى من أمريكا وأيديولوجيا العمل والنجاح. كان السرير مكانهم لتدمير هذه الأيديولوجيا أو للفرار من التجنيد . . كان بمثابة خلية ثورية عقدت

العزم على تقويض النظام والإضعاف من مكانته، رغم أن النظام كان غافلاً عن ثورتهم. . لكن الحياة المقيدة بالسرير اثبتت في وقت قصير أنها غير عملية.

وينطلق الكلام هنا وهناك بين الناس، ماذا ينوي آل بانشيفيتش؟ ! التكاسل في السرير ثانية؟ !

أعلن بانشيفيتش بصرامة:

- لم أدعم الشيوعية بعملي أبداً، كما أنني لن أدعم الرأسمالية كذلك.

ووضع نقطة النهاية لكل حديث حول حصوله على وظيفة ما . ظل كما كان دائماً؛ كاتباً روسياً .

أما صديقتي بانشيفيشكا، فقد وجدت وظيفة وبدأت في دفع الضرائب، ثم للتقليل من ضرائبها اشترت منزلاً . . منزلاً أمريكيا بحديقة (وهكذا صار لديهم مكان ليزرعوا فيه علمهم الأمريكي الصغير؛ رمز اندماجهم، أو رأسمليتهم –جعلهم رأسماليين– مستندين للرؤية الصحيحية للأشياء) .

كان كل شيء في المنزل حيث يفترض به أن يكون: التليفزيون، والثلاجة، والأريكة، والخزانات، كلها كانت هناك. . ثم أنزلوني أسفل الدرج بصورة احتفالية إلى البدروم، وهناك وجدت سريرا ضخماً ومكتبة فيها الكتب المناسبة، وجهاز تسجيل صوتي به

موسيقى مناسبة. . هناك، أسفل الدرج كان تشجيعهم للارتفاع بذاتك لمستوى نظام الحياة اليومية حياً!

أما أعلى الدرج فقد كان بمثابة فعل تنكري ابتغاء الحماية الذاتية، ترتيباً للأثاث والستائر لمشهد مسرحي معين؛ على هيئة قرية "بوتيمكين" للضيوف!

وكان مسموحاً لآل بانشيفيتش وأصدقائهم المقربين فقط بالنزول إلى البدروم. وفي آخر مرة كنت هناك، قضينا وقتاً ممتعاً متكاسلين هنا وهناك، وكان يوماً من أيام الأحد الحقيقية!

obeikandl.com

الحق في التعاسة

ابتكر الناس مدى مؤثر ومثير للإعجاب من الأساليب الحرفية وغير الحرفية للتحول إلى الاشتراكية. .

فيقبل الإيطاليون بعضهم البعض. . ويتعانق الأمريكيون ذلك العناق الشهير، عناق الدب. . ويقبل الهولنديون بعضهم ثلاث مرات عندما يتقابلون. . وكاد رفيقٍ هولندي أن يُضرب في "زغرب" لهذا السبب، إذ ظنوا أنه صربياً . . فالصربيون يقبلون بعضهم ثلاث مرات، أما الكرواتيون فيقبلون بعضهم مرتين فقط !

سمعت أن الناس في التحول الاشتراكي - بصورة ليست حرفية- يستخدمون أفواههم، وأيديهم، وعيونهم، وأحياناً أنوفهم، بل حتى أصابع أقدامهم. . ويعد الأمريكيون - في ذلك التحول - الأكثر أدباً، فهم دائماً أنيقون، وأيامهم لطيفة.

أما الهولنديون فيسألونك أين دراجتك؟ ! . . وإذا لم يكن لديك واحدة، فهم ينصحونك بالمكان الذي يمكنك فيه الحصول على واحدة، ففي وجود دراجة يمكن للحياة أن تكون طبيعية، وخلاف ذلك فهو البؤس بعينه. . ويسألك الشرقيون (العرب، والهنود، والصينيون) بشكل مباشر:

- هل أنت متزوج؟ - هل لديك أطفال؟ وإخوة وأخوات؟

- هل أبواك لا يزالا على قيد الحياة؟!.. وهكذا؛ فالأسرة هي ما يستحوذ على اهتمام الشرقيين.

ويعد الإنجليز هم الأفضل في حديثهم القصير العابر، بينما الروسيون أبطال بلا منازع في المحادثات الماراثونية، بنكهة الدخان والأبخرة الكحولية.

ويعد الناس من بلدي من اليوغوسلافيين السابقين الأسوأ، ويمكنك اكتشافهم من على بعد في شوارع المدن الأجنبية.. فهم يقطبون جباههم، ويرشقون الناس بنظرات غضب يميناً وشمالاً، ويتحركون بحذر، جاهزين للدفاع عن أرضهم، كما لو كانوا في شبه غابة وكما لو أن الكائنات غير الناطقة تترصد بهم خلف كل شجرة.. وأبناء بلدي يحبون الشكوى.. إنهم الناس الذين تجدهم في غرفة الانتظار في عيادة الأسنان وهم يعرضون الفجوات في أسنانهم لبعضهم البعض.. هم أولئك الذين لا يترددون في أماكن الانتظار بالمستشفيات، عن كشف صدورهم، ويرفعون قمصانهم لأعلى وسراويلهم لأسفل لكي يطلعون بعضهم البعض على ندبات العمليات، فقط لإثبات أنها الأسوأ.. وعندما تسألهم عن أحوالهم، يجيب أبناء جلدتي:

- لا تسأل فأنت لا ترغب في أن تعرف.

وأفضل ما يمكنك الحصول عليه منهم: - لا بأس، كان يمكن أن يكون أفضل. .

عادة ما أفكر فأرى أهل بلدي ليسوا بشراً بالمرة، فهم مثل قنديل البحر "الحبار" في شكل آدمي: عليك فقط ملامستهم حتى يقذفوا في وجهك بسحابة لاذعة من الكآبة.

إنهم أناس ظلوا يطورون موهبة غير عادية منذ عهود ماضية: ندابون! . . نادبون محترفون لديهم قنوات دمعية متضخمة، ويندبون الفقيد بصوت عال في الجنازات. . مقابل أجر بالطبع!

لا يزال الناس في بلادي يشحذون غريزة ما للتعاسة. . إنها في جيناتهم الوراثية، فالمآسى لا تفتأ عن التسلل للقصص اليومية التى تحكي كوسيلة للتسرية والعزاء. . فبينما المجتمعات الأخرى تجعل فى حساباتها الأيديولوجية حق المواطنين في السعي للسعادة، يحارب المواطنون من رفاقي السابقين من أجل النقيض: الحق في السعي للتعاسة!

عندما يحل فصل الصيف، انطلق إلى بحر الأدرياتيك البديع. . وبدلاً من الاسترخاء، استمع بصبر للتقارير المنتظمة عن مدى الانحطاط الذي وصل إليه البلد، وتدفق التعاسة بين الناس. . وعلى سبيل المثال:

قمت في الصيف الماضي بتأجير غرفة في جزيرة "براك" . . وقد

بنى جاري في الغرفة المجاورة، وهو عامل جاهل، منزلاً من رخام "براك" به على الأقل ثلاثين غرفة. . ولم استطع منع نفسي عن التصريح بمدى تميز المبنى. . وكانت أول استجابة منه خطبة مسهبة وعنيفة ضد الشيوعيين الذين كانت الحياة في ظل حكمهم غير محتملة. . بنى هذا المنزل المتواضع بيديه!، ثم لام بشدة الصرب الذين أفسدوا السياحة، ثم لعن اليوم الذي لا يستطيع فيه المرء تسكين الغرفة كما يود. . فقد أتم فقط تسكين خمسة عشرة غرفة بينما بقيت الخمسة عشرة الأخرى خاوية!. . كلما تذكرته، انطلق كل صيف لتلقي جرعتي من التعاسة، فقد صرت مدمنة لها. . أدفع الكثير من المال في تلك الأسماك البحرية "الماكاريل" التي يحط عليها الذباب، وأرشف من النبيذ الفاسد، فقط لأحصل على كفايتي من التذمر المحلي.

أيام السبت هي الأيام التي اتصل فيها بأمي، فأيام السبت ثابتة، ويكون الفارق الوحيد في المدينة التي أراها عبر النافذة أثناء إجراء المكالمة: نيويورك، أو امستردام، أو بوسطن، أو برلين.

تقول أمي دائماً بصفاء:

- لن يمكنك أبداً تخمين من الذي مات!

أسألها بنفس الصفاء:

- من؟!

- السيدة العجوز "سوزيك"... وهل سمعت كيف أصيب "بيريك" بجلطة في المخ؟!

- لا، وأين يمكنني سماع شيء كهذا؟!

- لقد نجا منها، لكنها خلفت له إعاقة فظيعة...

وفي الوقت الذي نصل فيه للحديث عن "بيريك" أكون في سلام حتى السبت المقبل.

obeikandi.com

obeikandl.com

الشخصية المقولبة

اعتادوا أن يهددوني، عندما كنت صغيرة، أنه إذا لم أكن حسنة السلوك فإنهم سيعطونني للـ "الغجر" الذين يسرقون الأطفال الصغار. . كنت حسنة السلوك، ولم يكن هناك سبب حتى أُسرق، رغم أن الفكرة أسرتني بشكل خفي.

أنا أعرف اليوم أن قصة الغجر الذين يسرقون الأطفال تقع في باب النماذج المقولبة العنيدة عن واحد من أكثر الشعوب الموصومة بالعار في العالم.

لقد نشأنا ونعيش في عالم من النماذج العقلية المقولبة؛ التي نمتصها مثلما تشرب الماء من اسفنجة. . وعندما نصبح بالغين ونهتم بأنفسنا وبالصور الأخلاقية والسياسية الصحيحة، نقتلع بنجاح، رغم الصعاب، تلك النماذج المقولبة مثلما نقتلع غلاف خشن شائك لثمرة.

في البداية، يبدو هذا بسيطاً، لكن الحال يتغير عاجلاً، وتتبين أن النماذج المقولبة هي أكثر أنواع العشب العقلي الضار تماسكاً. . فعندما نتخلص من إحدى هذه النماذج، يتبرعم نفس النموذج من جديد وينمو بسرعة في مكان آخر. . هكذا، يستسلم معظم الناس

ويتعايش مع النماذج المقولبة.. وماذا يمكنهم أن يفعلوا غير ذلك؟! فالحياة دائماً ما تكون أسهل بهذه النماذج. وبها لن نتمكن أن نعول على أمور خائنة أو غادرة بالحس القلبي، بينما نملك نماذجاً مقولبة جاهزة.. إن النماذج المقولبة نظام دافئ مريح للتمييز وإبراز الأشياء بوضوح، مثل العلامات الإرشادية على الطرق السريعة: يسار، يمين، للأمام، خفف السرعة، أمامك منحنى، قف.. من ذا الذي سبق له على الإطلاق أن رأى أحداً يقود سيارته بالاعتماد على قلبه؟!

نشأت في بلدة حيث كانت الأخوة والوحدة هما قرة العين، لكنها في ذات الوقت بلدة شجعت ثقافة النماذج المقولبة لكل أعضاء الأخوة في الوطن.. فقد عشت محاطة بالسلافيين الذين كانوا بُخلاء، والنساء السلافيات، اللائي كن من أسهل العلمانيات غير الأكليريكيات.. كما كان هناك المونتيجريين الكسالى، والكرواتيين الذين كانوا من الكادحين والشحاذين، والصربيين الذين كانوا فلاحين أجلاف، والمقدونيين الذين كانوا ريفيين خرقى يزرعون الخضروات، والبوسنيين الذين كانوا بلهاء، والألبانيين وهم - إلى حد ما- لم يكونوا بشراً بل مسلمين لديهم ستة بدلاً من خمسة أصابع في أقدامهم، وكانت الأقلية من الإيطاليين الذين أكلوا القطط، والغجر المذكورين أعلاه الذين سرقوا الأطفال الصغار.. إجمالاً، كان

مجتمعاً زاخرا بألوان من البشر.

وعندما تركت البلاد، اكتشفت أنني تركت النماذج المقولبة وراء ظهري.. هل كنت مخطئة؟!.. لم يزد الأمر عن أن عدد النماذج تزيد حولي.

اليوم أنا محاطة ليس فقط بنماذج مقولبة خاصة بالمكان الذي أعيش فيه، ولكن أيضاً بالنماذج التي ينميها سكان تلك المناخات عن أهل البلقان.. فأنا في نهاية المطاف، امرأة من البلقان.

نتيجة للخوف الأوروبي من البلقنة أنتج الاتحاد الأوروبي ترياقاً ناجعاً: التحول إلى بروكسيلي نسبة إلى بروكسيل – مقر الاتحاد الأوروبي.

يعج كل شيء داخل الجدران المحيطة ببروكسيل بالنماذج المقولبة، وهكذا، أشعر بأنني في موطني الأصلي داخل الاتحاد الأوروبي، بل ما هو أكثر.. فالنماذج المقولبة مثل الدبابيس الأيديولوجية والتجارية للاتحاد الأوروبي (الدبوس السلكي على حرف "يو" تغرز طرفاه في مجموعة أوراق ثم يلويان).

يمكنك في محلات الهدايا في بروكسيل شراء كارت بوستال (بطاقة بريدية) للاتحاد الأوروبي، عبارة عن كاريكاتير للممثلين النموذجيين للدول الأعضاء في الاتحاد.

تظهر الصورة الكاريكاتورية الملامح المميزة للفرنسي الداعر،

والهولندي شديد البخل، والإنجليزي راسخ الإيمان قوي البنية. . بينما تعلن سلسلة أخرى من البطاقات البريدية عن العادات الجنسية لدول الاتحاد الأوروبي. . ويفهم منها ظاهرياً كما توحي بأن البرتغاليين، سواء كان هذا مبرراً أم لا، هم الأسوأ في العلاقات الغرامية!

يتخذ البلقانيون طريقهم حول أوروبا، مثل حقائب السفر المكدسة في المطارات وعليها ملصقات بوجهتها. . في ذات الوقت لم يفعل البلغاريون، والرومانيون، واليونانيون الآخرون شيئاً ليستحقوا الصورة أو النموذج المقولب الذي أرهقوا به بواسطة اليوجوسلافيين السابقين أثناء حرب البلقان في التسعينات.

إن الدرجة التي صارت عليها النماذج أو الصور أكثر نفوذاً من الإجراء الشرعي أو الدرجة التي يتشكل بها الإجراء الشرعي حسب النموذج المقولب، هي شيء يعرفه كل فرد من البلقان من خبرته أو خبرتها في عبور حدود الاتحاد الأوروبي لأول مرة.

بالنسبة لي، فأنا لا أشكو شيئاً. . وأبذل قصارى جهدي لأتواءم مع الصورة المقولبة التي يحملها الناس عني. . آملة بأني لن أخذلهم، وأتساءل دوماً عن النموذج المقولب للآخرين، الذين أعلم أنهم مؤسسين ذوي قيمة رفيعة في تأسيس المكانة. والحقيقة أن طبيعتي الماسوشستية تسلم نفسها لهذا.

هذا هو السبب في أنني تخليت عنها، عندما يشرح لي الناس كيف استخدم المكواة أوعندما يتجنب النادلون في المطاعم عن عمد وضع السكين على مائدتي..

هذا هو السبب في أني عادة ما أكتب وظيفة "سيدة التنظيف" أسفل عنواني: فهذا هو المتوقع مني.

لأن النساء الكوزموبولتيتانيا من بلدي معروفات، على نطاق واسع وإلى حد بعيد، بأنهن مديرات منازل ممتازات في الشقق، والمنازل، والمغاسل، والمراحيض العامة في الاتحاد الأوروبي.

تخليت عن كل هذا بهدوء، فأنا أعرف أن النماذج المقولبة هي أصعب شيء يمكن التخلص منه، حتى أنني أفكر أنها ليست نماذج تخصنا إلى هذا الحد - نحن الناس الطيبين - كما تخصهم، تلك النماذج المقولبة غير القابلة للمحو لأنها تتكاثر وتنتشر، وتتحور كالفيروسات، وحيثما كان هناك نماذج أقدم، تتبرعم نماذج أخرى جديدة وغير متوقعة.

هكذا، حدث ذات يوم أن صبيًا بوسني لاجئ، عمره عشر سنوات عاد لمنزله من مدرسته الهولندية الجديدة، وسأل أمه :

- أمي، هل حقيقي أننا، المسلمون، نسائنا يمارسن السحاق؟

obeikandi.com

حنين

أحياناً، تماثل عملية استدعاء الذكريات حركة مقاومة، وأولئك الذين يقومون باستدعاءها يصبحون مثل محاربين في حرب عصابات. . فهناك حركة تأويل رسمي للتاريخ، وهو التأويل الذي تسهر عليه المؤسسات الرسمية وحراس التاريخ المحترفين، كما أن هناك تأويل شخصي للتاريخ: وهو تأويل نراه بأنفسنا . . فنحن نفهرس حياتنا ونضعها في بيان مصور داخل ألبومات عائلية تحظى بالاهتمام وإن كان الأقل على الإطلاق.

إن علم الآثار القديمة للحياة اليومية، هو من يهتم به غريبو الأطوار فقط.، أما تاريخ المكان المألوف لدينا، فهو الحارس القيم على استدعاءاتنا الأكثر حميمية، والأكثر دقة من التاريخ الرسمي، والأكثر تطابقاً ودفئاً من التاريخ المتصل اتصالاً لا ينفصم في تلك الألبومات العائلية.

وسر التذكر بالنسبة لي ليس محفوظاً في متحف إقليمي أو ألبوم عائلي، لكنه في تلك الكعكة الصغيرة المحلاة "مادلين، التي يعرفها الكاتب بروست جيداً .

مع انهيار النظم في بلاد أوروبا الشرقية انهارت الحياة اليومية التي

نشأ الأوروبيون الشرقيون عليها، دون إدراك منهم أنها أخذة فى الإختفاء تدريجياً .

تتحرك سلاسل محلات البيع بالتجزئة الغربية الشهيرة ببطء زاحفة إلى الشرق: الزبادي الألماني، والجبنة الهولندية، والفطائر الإنجليزية. . تحقق هذه البضائع تقدمها الهادئ تجاه الشرق دون توقف.

وتشق البضائع الغربية طريقها مزيحة المنتجات المحلية التي اعتاد السائحون والزائرون الغربيون الإقبال عليها، وفى ذات الوقت خيبت آمال المستهلكين المحليين.

يا للطبيعة البشرية الجاحدة! . . يبدو أن بريق المحلات الغربية – التي لطالما كان مرغوباً فيه– قد زال؛ فالرغبة الملحة للجبنة الهولندية، والزبادي الألماني، والفطائر الإنجليزية تتلاشى. وكلما صارت هذه الأشياء أكثر يسراً في الحصول عليها كلما زهد الراغبون فيها .

تنتعش حياة الأنفاق في امستردام، في نادي للاجئين البوسنيين، وقد أنشئ النادي في بهو صناعى مهجور ليطابق ملجأ إرتجالياً من ملاجئ الحرب ضد القنابل، حيث مقتطفات الصحف على الجدران مع خريطة صغيرة للبوسنة ،ومناظر طبيعية من سلوفينيا وميناء "دلماسيا" في الجزء الغربي من يوجوسلافيا رسمها رسام هاوي غير موهوب. . وهناك أيضا مسجد صغير تم بناءه بقطع من الخشب،

كما يبيع محل - كبديل مؤقت- الحلوى اليوجوسلافية، وقهوة "ميناس"، وسجق مصنع في المنازل، و"سلجيفوفيكا" بوسنية.

وينطلق في النادي الصوت المعادل للموسيقى الريفية الغربية، ويدخن الرجال، ويلعبون الشطرنج وألعاب الورق، وتتجمع النساء مثل النعام في مساحة تذكر المرء بشكل لا يقاوم بصالون التجميل أوقات الحرب، وتقوم "سينادا" بحلاقة شعر بنات جلدتها هنا مقابل ٢-٣ يورو، كيف يمكنك أن تفعل أفضل من ذلك؟

الحنين عاطفة مركبة، ولا يتم إشباعه بنسخ مطابقة لإعادة بناء أوطاننا الأوروبية المهجورة، وعادة ما يستحث الصدام مع النسخ المطابقة خليطاً محيراً من الإزدراء، والتعجب، والتذمر، والمفاجأة، والألم.

من يعرف أن كل ذلك يصب في الأرواح المجروحة للمهاجرين. . هذا هو السبب في أن نوبات مفاجئة من الحنين للماضي تجتاحهم في أماكن لا يشعرون فيها بأنها وطن، وتصبح تلك النوبات مقلقة للمشتاقين؛ لأن الحنين يتحرك في مسارات غامضة شبيهة بالقدر المجهول.

حديثاً كنت في برلين. ورغم أنني لم أبذل أي جهد لإخفاء مدى سروري بأن شارع انتر دين ليندين Unter den Linden يتحول تدريجيا إلى ما يشبه شارع فيفث أفينو في نيويورك، إلا أن الأمر لم

يعد يثير انتباهي. . أسرعت إلى العناوين التي أعطاني إياها أصدقائي النمساويين، وتناولت أولاً حساء الخضر الروسي بورشت في محل يملكه أوكراني يهودي، ثم احتسيت ما أمكنني من مشروب بيليمني في مطعم صغير متواضع للوجبات الخفيفة، ثم أشعلت سيجارة ثقيلة ماركة بيلومور.

عندى هدية تذكارية من برلين، موضوعة الآن على خزانة كتبي في امستردام، وهي نموذج أثري وعلبة من الحليب المركز زوشيشينو مولوكو التي يدللها الناس باسم زوشيشنكا بدافع العاطفة.

وذلك المعدن سوفييتي الذي يمكنه أن يكسر نصل سكين عسكري سويسري أصبح مفيداً وفي متناول اليد لكل الأغراض. . ويمكنك أن تصنع لترا من اللبن من مقدار ملعقة شاي من زوشيشنكا، كما يمكنك صنع كعكة منه في دقيقة، لذلك يلقبه الروس بال منيوتكا (الذي يصنع في دقيقة).

وبينما أكتب هذه السطور أمص ما تبقى من قطعة سميكة من حلوى روسية تسمى كراسنايا شابوشكا. وأجد من الصعب عليّ أن الوك المادة اللزجة اللاصقة بنكهة الشيكولاتة من الحلوى. فأبدو وكأنني محاربة في عصابة من عصابات الشوارع.

بقطعة من تلك الحلوى يغمرني اشباع حنيني؛ رغم أنه ليس واضحاً على أية حال ما الذي أحن إليه بالضبط!

التاميليون

التاميليون أولئك الناطقون باللغة التاميلية – لغة ولاية مدراس بالهند– هم أكثر الجماعات غموضاً التي تتخذ سبلها عبر المدن الأوروبية، ويمكن مشاهدتهم فقط في الليل، فهم يبرزون من منازلهم السرية عند الغسق، ويذهبون من مطعم إلى مطعم حاملين باقات من زهور كبيرة، وهم عادة مهذبون وهادئون، وأزهارهم دائماً طازجة. . لكن، لا أحد يشتري الزهور! . . فقد جلست في الكثير من المطاعم، في مدينة برلين أو المدينة المجاورة، لكنني لا أذكر أحداً من الرواد اشترى من هذه الزهور أبداً . . ماذا يعمل التاميليون ؟ ! وكيف يقيمون أودهم؟ هذا هو اللغز! . . هل هم جماعة غامضة؟

شباب ذوو وسامة، داكنوا البشرة، يبتسمون ابتسامة عريضة والزهور في أيديهم، ويبدون مثل الملائكة، ويحملون أنباء سارة. . يختفي التاميليون بسرعة كما لو كانوا ولدوا بواسطة ريح غير مرئية. وهم بُكم مثل الملائكة. لا ليس التاميليون من هذا العالم!

لكن هذه القصة ليست عن التاميليين، إنها عن "إيفان كوستيك" . . تقول "بوسا":

– كان "إيفان كوستيك" هناك قبل وجود التاميليين، كل من في

برلين يعلمون ذلك. . (وتضغط بوسا على حروف كلمة قبل).

عاشت "بوسا" في برلين لثلاثين عاماً أو تزيد، وهي عليمة ببواطن الأمور: تعلم "بوسا" معظم الأشياء عن عالمنا، مثل الغجر، وتعلم أن إيفان كوستيك باعٍ زهوراً في مطاعم برلين قبل ظهور التاميليين، وكان رجلاً مفعماً بالحيوية له شارب أسود طويل، ودائماً ما ارتدى قبعة سوداء.

كان إيفان مثل ملك، يخطو خطوات واسعة إلى داخل المطعم. . كان يقذف بالزهور في الركن، ويعزف على الكمان بأهمية مثل شاربه المميز، ويدير عينيه، ثم يرخي صوته الأجش ويغني أغنية غجرية. . وكان الزبائن يحبسون أنفاسهم حتى يبرد الطعام في الأطباق، ثم بتجليات شاعر ألقى إيفان درر من الشعر أمام شخص جدير بالازدراء !، كان يخطو خطوات واسعة في اتجاه الباب، ويصرخ النادلون وهم يجرون خلفه:

"كوستيك، عد، لقد تركت زهورك !" ويخرجون حافظات نقودهم بلهفة.

كان كوستيك يعرف أشياء، يعرف كيف يبيع الزهور وكيف يملأ تلك النماذج الألمانية الرديئة. .

كتب كوستيك التماسات وخطابات، وملأ استمارات لرفاقه من الغجر. ولم يأخذ سنتاً واحداً منهم مقابل ذلك. . وذات يوم

دهسته سيارة في شارع برلين. وجمع الغجر اليوجوسلافيون ٤٠ ألف مارك ألماني وأقاموا له جنازة ستظل ذكراها باقية.. ماذا يمكنني القول؟!.. فاضت دموع الغجر واغرورقت عيون برلين!

وبعد شهر من دفنه، بدأت زوجة كوستيك في الشكوى من أنه كان يظهر لها في الليل مدمدماً ومغمغماً، ولم يكن الأمر قاصراً على قوله أن كفنه غير مريح، لكن كل شيء قاله كان غير مريح، وقال أن أولئك الألمان الذين دُفنوا حوله كانوا يحاولون إجباره على الرحيل من قبره.

- عد إلى حيث أتيت!.. هكذا عزف الموتى الألمان على القيثارة!

واعترض كوستيك قائلاً:

- أين يجب عليّ أن أذهب؟! على طول الطريق إلى "كروسيفاك"؟

وولول الموتى الألمان المعادين له: - اذهب إلى كروسيفاك!

كانت زوجته امرأة قوية عقدت العزم على أمر.. ذهبت من مكتب في برلين إلى الآخر، ومن مكاتب الموتى إلى مكاتب الأحياء ملتمسة نقل رفات زوجها، لكنهم قالوا عنها، "امرأة مجنونة،" ولم يسمحوا لها بذلك.. وأوقف كوستيك زياراته الليلية لزوجته العجوز. وناحت المرأة الغجرية:

– لقد لقي إهانة، ولذلك لا يأتي لزيارتي ثانية!

وبعدها، ذات ليلة ظهر لها كوستيك ثانية، وقال لها:

– لقد كنت في كروسيفاك.. إنهم لم يرغبوا في وجودي هناك.. لايمكن الدخول في الزمرة دون إنهاء الإجراءات الورقية المناسبة.. تحتاج لجواز سفر جديد، فهذه دولة جديدة، ولا يوجد مكان هنا للغجر، حتى وهم موتى؛ الناس هناك كلهم مجانين مثل الكلاب، الموتى منهم والأحياء، جميعهم صاروا فاشيين ملاعين! " أخبر زوجته بهذا ثم تلاشى!، انتظرت زوجته فيما بعد أن يبقى على اتصال بها، وبعدها لم تعد تنتظر.. فقد ماتت!، عندها فقط بدأ التاميليون في الظهور في برلين، بعد اختفاء كوستيك وزوجته.

يخرج التاميليون في الليل فقط، وينسابون خلال الشوارع مثل الظلال، ويعرضون زهورهم التي لا يشتريها أحد.. يبدون كالملائكة، ويحملون أنباء سارة، ثم ينسلون بعيداً بسرعة، كما لو كانوا قد ولدوا بواسطة ريح غير مرئية.. وهم صم مثل الملائكة.. صم لأن لا أحد يطلب منهم شيئاً.. السؤال الواقعي الذي يتوجب أن نسأله:

– هل التقى التاميليون مع كوستيك وزوجته؟! وماذا يفعل الزوجين في العالم الآخر؟!.. هل استقروا أم أنهم ذهبوا إلى مكان ما جديد؟إذا كان هناك من يعرف الإجابة على الإطلاق، فهم التاميليون بالتأكيد.

قفص العصفور

لا تشتري قفصاً للطيور أبداً، إذا لم يكن لديك شجرة لتعلقه عليها .

فمن واقع تجربة عملية، فقد حدث لي هذا منذ زمن بعيد عام ١٩٩١، اشتريت قفص عصافير صغير وجميل من محل في نيويورك. . ولا أدري لماذا اشتريته؟ ! فلم تكن لدي حديقة، ولا أملك شجرة يمكنني تعليق القفص عليها .

بدأت الحرب في نفس ذلك العام في بلادي.

من يدري؟ ! . . فربما كان هكذا تفكيري: سوف أعود للوطن، وامتلك حديقة، وسأزرع شجرة فيها، ثم أعلق قفص العصافير على تلك الشجرة. وانتهت الحرب.

لم آخذ قفص العصافير معي في طريق عودتي، إذ كان ثقيلاً جداً على الطائرة الخفيفة التي أقلعت بي. . وتركت القفص بمنزل أصدقاء في نيويورك. . انتقل الأصدقاء أثناء ذلك إلى مكان جديد، ولم أعد أعرف لهم عنواناً .

عدت لبلدي من نيويورك، وبدلاً من البقاء هناك، رحلت بعد شهر وللأبد !

ظللت مرتحلة على الطريق منذ ذلك الحين، مبدلة البلاد التي أسكن فيها مثل الأحذية.. وعادة ما يستلزم الأمر عاماً حتى استهلك زوجاً من الأحذية، لكنني أغادر البلاد أحياناً قبل استهلاك الحذاء.. اتضح لي أن شراء قفص عصافير لا هدف من وراءه، إنما كان نوعاً من تذوق المستقبل!.. دون أن أدرك ذلك، كنت أتسوق من أجل بديل مثير للمشاعر تجاه الوطن الذي سأفقده بعد شهر من الآن.. ويعرف المحللون النفسيون أن الوطن واحد من أقوى الصور التي تبقى معنا، ارتباطاً بالنمط الفطري، وتبقى معنا من الميلاد إلى الممات.. ومنذ تركت وطني، صار (الوطن) وسواساً يسيطر عليّ؛ حتى أنني طورت تقلصاً لا إرادياً غير محبب في عضلات الوجه لتعذيب الناس حولي بخصوص سكنهم.. ولديّ تقلص لا إرادي آخر: يمكنني قراءة دواخل الآخرين، بالطريقة التي يقرأ بها بعض الناس أوراق اللعب أو فنجان القهوة.. ولديّ تقلص ثالث – وهو أكثرهم إحراجاً– هو أني لا استطيع مقاومة رغبتي في إعطاء الناس النصيحة مثل :

ما رأيكم في نقل خزانة الكتب تلك؟!.. أو لم لا تعلقوا اللوحة بوصة أو بوصتين لأسفل؟

سأم أصدقائي في امسترادام للغاية – وهم عادة من المهندسين – من تذمري الدائم بأن عليهم الحصول على أريكة حتى أنهم تخلوا عن

اعتدالهم واشتروا واحدة، وكلما زرتهم أغوص فيها كما لو كانت من ممتلكاتي!

منذ تركت وطني، صار العالم بأسره وطناً لي!

وصارت تلك الجاذبية المبتذلة لمقطع من الأغنية الكرواتية القديمة على لحن من موسيقى البوب متعة حياتي.

هناك جغرافيا سرية للأشياء التي أخلفها ورائي هنا وهناك. فقد قمت بوظيفة سرية، وتركت علامات الترقيم، واسقطت مثبت الأشياء؛ متعلقاتي - أكواب قهوة، وأطباق، وملاءات للسرير، وأحذية وقمصان، وسويترات - متناثرة عبر مدن أوروبية وأمريكية في الاتجاهات الأربع.

اشتري، كلما حدث وكنت في مدينة ما، كتباً بشكل اجباري وأقوم بتأسيس مكتبات صغيرة مؤقتة، ثم، عندما أغادر أتركها خلفي.. ومن حسن الحظ أن هناك أناس طيبين كفاية في العالم على استعداد لمنح أيتامي - كتبي- منزلاً.

أقضي أجازة الصيف منذ حوالي عشرين عاماً في جزيرة على البحر الأدرياتيكي، وذات مرة أحضرت معي آلة كاتبة، وحيث أنه لم يكن هناك ورق بالكربون في المتجر المحلي كتبت كتاباتي من نسخة واحدة فقط.

وقذف الشخص العجوز، الذي نقل السائحين إلى الجزيرة الرئيسية

في مركب شراعي صغير، بحقيبتي على سطح القمرة.

كانت أمواج البحر في حالة هياج عنيف، ومال القارب بصورة خطيرة، وانزلقت الحقيبة من جانب إلى الجانب الآخر فوق سطح القمرة.

قلت له: – إنها ستسقط، أربطها جيداً.

قال: – أوه، لن تسقط !

– أنا متأكدة أنها ستسقط.

وأصر الرجل العجوز: – لن تسقط !

قلت: – لكن كل ما فزت به هنا في هذه الحقيبة؛ وكنت أعني مسودة ما كتبته في الحقيبة من نسخة واحدة.

سأل العجوز: إذن ما هو عملك؟

- كاتبة. . فقال وهو يشير إلى جبهته :

– هذا جيد جداً لك، من بين كل الناس عليك بحمل كل ما تفوزين به معك هنا (مشيراً للرأس) !

كان رد فعل الرجل مثل شراء قفص العصافير ذاك، وثبت أن كلامه فيه نبوءة؛ فاليوم أنا مجبرة على حمل أشيائي في رأسي.

استخدام رأس المرء كحقيبة سفر ليس الحل الأمثل، لأن قدرة العقل على الاستيعاب لها حدودها، إلى جانب أن العقل ميال إلى التقلب في الرأي: في معظم الأحوال يحمل أشياء لم يعد في حاجة

obeikandl.com

إليها !

نعم، اليوم صار العالم بأسره موطني . . صارت الجاذبية المبتذلة لذلك المقطع من الأغنية الكرواتية القديمة من أغاني البوب، منذ زمن بعيد، بمثابة حياتي ذاتها .

هل هذا الواقع أفضل أم أسوأ من أشكال الواقع السابق؟ . . لا أدري، ولا أفكر في المسألة أصلاً.

هناك شيء وحيد أعرفه يقيناً:

كنت أبلي بأفضل من ذلك في مقاومة الرغبة الملحة لشراء أشياء لا غرض منها، وإن كانت تتملكني الرغبة الآن بمعدل أقل من ذي قبل.

ذهبت حديثاً إلى برلين، واتصلت بالأصدقاء، فقالوا لي:

– مرحباً، لقد تركت مجفف الشعر الخاص بك في آخر زيارة لك !

فما كان مني إلا أن سألتهم:

– هل لديكم خُفي (شبشبي) ؟ !

obeikandi.com

زراعة حديقة

إذا كنت تنوي العمل على سبيل الهواية في زراعة الحدائق، فأنت تحتاج إلى حديقة، أو الأفضل من ذلك منزلاً له حديقة.

زراعة الحدائق ليست شيئاً يقوم به الفقراء، أو الناس الذين يتنقلون، لأن زراعة الحديقة تعني البقاء.

وكما افترض، يمكن لزراعة الحديقة أن يتم دون حديقة، لكن هناك شيء كئيب في ذلك.

لقد جُبِلَ الناس ليعتنوا بحدائقهم.

أولئك الذين ليس لديهم حديقة يروضون خيالهم بنباتات في قدور فخارية على إفريز النافذة، أو بالتحديق في برامج فلاحة الحدائق بالتليفزيون، التي يمكنني أن أضيف أنها الشكل المفضل لدي من التسلية.

اشتهرت الشيوعية بصعود زهرة واحدة فوق كل الزهور الأخرى وهي زهرة القرنفل، عادة زهرة القرنفل الحمراء التي ازدهرت وراجت في عهد الشيوعية. تكلف باقة صغيرة حزينة من القرنفل في موسكو الشيوعية أكثر من ثمن زجاجة فودكا، حيث أن الفودكا كانت تعتبر من أنواع الطعام، بينما الزهور كانت ترفاً.

وقد عرفت أحد الروس الذي زرع - كهواية- نباتاً من أزهار العصر الشيوعي في شقته الضيقة بموسكو، حيث غرس عش الغراب ونباتات في أواني فخارية، ونسق كرمات من نبات مثل اللبلاب ليزحف على امتداد المكان، كما نصب العديد من أحواض الأسماك فيها سمكة ذهبية (كبديل لبرك الحديقة) حتى جاء يوم انهارت فيه غابته - ذات مساحة الخمسمائة قدم مربعة- وسقطت كلها في الشقة التي تحته!

وفيما يخص يوجوسلافيا السابقة، أكون كاذبة لو قلت أن حياتي كانت أقل من ذلك في قدر تعلقها بالزهور.. وأكون كاذبة أيضاً لو قلت أن الظروف النباتية تغيرت للأفضل مع حلول الديموقراطية.. لا إطلاقاً! ظل نبات واحد مرتبطاً في ذاكرتي - بشكل دائم- ببلدي السابق؛ وهو نبات "الفيكس".

لم أر في أي مكان آخر هذه الوفرة من نباتات الفيكس في نوافذ المحلات، والمكاتب، والشقق التي رأيتها في بلدي السابق... وتولد لدي كره شديد لهذه النباتات.. واليوم، يصيب منظر تلك النباتات المنزلية - بأوراقها الملحمة والداكنة والمتربة في آن- جلدي بالتنميل والخدر.

لقد قضيت طفولتي في يوجوسلافيا في منزل له حديقة؛ حيث زُرِعت زهور الربيع من الفصيلة المركبة "دايزي" في أحواض الزهور

في واجهة المنزل، وكانت هناك - في الجزء من الحديقة القريب من المطبخ (خلفية المنزل) - أشجار الفاكهة، والخس، والطماطم، والفلفل، والفول، والكرات، والكوسة. . . وكانت بعض الزهور تنتمي أيضاً لطبقة نباتات المطبخ !

كانت زهور ثمار "البلسان" تحمر في الزبدة ويرش عليها سكر الحلوى؛ بينما كانت زهور "الأكاسيا" الجميلة المسكرة تؤكل نيئة، وكان لنوع من العشب مع قليل من زهور "السوريل" مذاق لطيف، ويعد بمثابة النسخة القديمة من العلكة التي لم نكن قد اكتشفناها بعد، وكان هناك نوع من الورد يستخدم في صنع المربى.

كانت الحديقة في طفولتي، أيضاً، المكان الذي ترتجل فيه الفتيات الصغيرات أدوات تجميلهن. . كانت نباتات "التويجية" باللون البمبي تلصق على الأظافر عوضاً عن طلاء الأظافر. . وكان يمكنك أن تصنعي سلاسل من زهور الربيع المركبة من زهور صغيرة كأساور، وكعقود، وكزخارف للشعر. . أما الكريز فقد كان ملائماً للاستخدام كحلقان، وعصير "الكريز" كطلاء للشفاه.

لقد فقدت طفولتي "الأركادية" - نسبة إلى سكان أركاديا في اليونان - للأبد، كما كان يجب أن يحدث. . إذ أنني طردت بشكل حاسم من حديقة النعيم إلى محال إقامة أخرى في أكثر من مدينة.

مرة واحدة حاولت العودة لموطن طفولتي، بمحاولة مني لتحويل

التراس في زغرب إلى حدائق "بابل" . . لكن الزهور لا يمكنها أن تحتمل أي إزعاج، لذلك فضلت الموت الاختياري على النمو في التراس !

في هذه المرحلة من عمري لم أعد أرغب في حديقة؛ فالحديقة مثل بصمة الأصابع، ومثل كف اليد حيث يمكنك من خلال خطوط الكف تحديد مصير روح مالكها .

الحديقة أثر مقدس، أو تذكار من عادة قديمة لأركاديا لأولئك الذين طردوا بشكل أبدي من الجنة، وزراعة الحديقة هو سبيل لاستحضار تلك الجنة؛ إنه نشاط شخصي يظهر رؤية مالكه للجمال والفن . . لماذا يبدو الناس في تلهف على عرض حدائقها على الآخرين؟ . . هذا أمر يفوق قدرتي على التفسير، ويبدو أن الحديقة تظهر مكانة المرء الخاصة، بل ومكانته في هذا العالم . . الحديقة تقول كل هذا، إذ يمكنك قراءة شخص من حديقته.

بالطبع، كلّ لديه فكرته عن الحديقة . . وفيما يخصني أنا فإنني سعيدة بزهور التيوليب البلاستيكية، فهي رخيصة، ولا تزن كثيرا، ومتنقلة، ولا تحتل مساحة، ومن السهل تغليفها، وأهم شيء أنها لا تحتاج لرعاية؛ كل ما في الأمر أنه من وقت لآخر عليك أن تنفض عنها الغبار.

بلدتي الأصلية

لو كنت كاتبة أمريكية لأمكنني كسب المال من كتابة قصصي حول بلدتي الأصلية، علاوة على أنه كان يتوقع مني أن أفعل ذلك.. ازدهر الأدب الأمريكي والأفلام الأمريكية، ولا تزال من خلال هذه الفكرة الرئيسية الجذابة.

في الواقع، نحن نجد أن أرقى كتابة تكتب في الأدب الكرواتي تدور حول المكان الذي أتى منه البطل، وخلال هذه الرحلات ينتهي الحال بالوطن نهاية سيئة: الأبطال يدمنون الخمر، أو يصابون بالجنون، أو يقتلون أنفسهم.

بهذا المعنى لا يوجد اختلاف كبير بين العودة إلى "سميث فيل" إو إلى "فيروفيتيكا".

وقد حفرت تلك الفكرة الرئيسية طريقها في الأدب الكرواتي – في البداية– في أواخر القرن التاسع عشر، ووصلت إلى ذروتها في التحفة الرائعة: رواية "ميروسلاف كليزا" – "عودة فيليب لاتينوفيتز".

إن صورة بلدتي الأصلية تنطبق بإحكام وتتلاءم مع الأساطير التي انتجتها الأفلام الأمريكية؛ إذا جاز لي القول أنه لا يوجد اختلاف

بين الأفلام الأمريكية في الخمسينات والحياة اليوجوسلافية، وربما بدا هذا مفاجئاً، لكن هذا هو كل ما يخص صناعة الصورة وما يخص الأساطير .

إحدى هذه الأساطير هو أن الصورة الأمريكية لديها جاذبية، بينما الصور الأخرى رغم أنها مماثلة لها تماماً ليس لديها أية جاذبية.

لذلك من غير المحتمل أنني ساقنع أي أحد بأن الاختلافات بين الحياة في بلدة صغيرة في أمريكا في الخمسينات، والحياة في بلدة صغيرة في يوجوسلافيا الشيوعية لم تكن اختلافات ذات أهمية. . هذا هو السبب من بين أشياء أخرى، في أنه لا يمكنني أن أجني مالاً من كتابتي عن بلدتي الأصلية.

بلدتي الأصلية الصغيرة كان – ولا يزال– اسمها "كوتينا"، وهي تقع على ما كان في الماضي طريق زغرب – بلجراد السريع، والذي ظل تحت الإنشاء لسنوات، لكنه لم ينته أبداً، والمعروف سابقاً في أيام يوجوسلافيا بالطريق السريع "للأخوة والاتحاد" .

كانت "كوتينا"، وهي بلدة صغيرة يسكنها حوالي ١٥ ألف نسمة، عاصمة لمنطقة "موسلافينا" حيث نشأ النبيذ الذي كان يطلق عليه بشكل عام وقتها "نبيذ موسلافينا ذو الشهرة العالمية" . . وكان حقل بترول "ستروزيك" يقع بالضبط خارج البلدة حيث تقبع

"كوتينا"على قمة بئر البترول الذي عاشت عليه، وكان هناك أيضاً مصنعاً يسمى "ميثين" الذي بدا أنه بني بشكل أساسي لانتاج السناج والحجر الجيري. . عمل أبي في هذا المصنع.

وفي طفولتي المبكرة تعلمت كل شيء عن البترول ورأيت الآبار والمضخات، والسناج الذي يندفع في رقائق مجردة مرئية فوق رؤوسنا كل يوم. . لكن "كوتينا" لم تبد من قريب أو من بعيد مثل تلك البلدات الانجليزية الصناعية المكسوة بالسناج (السخام)، بل كانت أقرب كثيراً لبلدة أمريكية صغيرة في تكساس. . وقد أحبت أمي الروايات الأمريكية لحد العبادة، وأضاف أبي لمجموعتها من الروايات رواية بعنوان، "البترول" . . وكانت الأفلام التي تعرض أمريكية، حيث كانت هناك قاعة عرض سينمائية وحيدة في البلدة؛ وأذهب أنا وأمي لمشاهدة الأفلام الأمريكية، تقريباً كل يوم، وكنا نشاهد نفس الفيلم عدة مرات.

كانت سنوات مراهقتي شبيهة إلى حد كبير بحياة المراهقات الأمريكيات، فيما عدا أنها لم تكن سنوات أمريكية. . واعتاد الصبية على التسكع ويحدثون جلبة طوال اليوم أمام الفندق المحلي بجوار قاعة العرض السينمائي، أو يتنقلون بسرعة وهياج من مكان لمكان على الدراجات البخارية.

كنا نذهب مرة أسبوعياً لحفل راقص (كان هذا في الماضي وقت

رقصة التويست آند شيك)، وكان المسلسل الأمريكي الشهير "بيتون بليس" يعرض في التليفزيون. . وكانت لي قصة شعر مثل الممثلة "جين سيبرج" في فيلم "جودارد" الذي كان يحبس أنفاسٍ المشاهدين. . وفي مراهقتي ارتديت بلوزة البحارة، وسروالاً نسائياً يصل تحت الركبة مباشرة، وحذاء من أحذية الباليه مثلما كانت "جين سيبرج" ترتدي في فيلم "جودارد" بالضبط؛ فيما عدا أنني لم أكن "جين"، فقد كنت أقلد "أليسون ماكينزي" في الفيلم التي قامت بدورها "ميا فارو".

كان الصبية المحليين أقوياء وقليلي الكلام، وينظرون نظرة جانبية بإيماءة كما كان ينظر"جيمس دين" . . كان الشارع الرئيسي في البلدة يسمى "شارع السكة الحديد"، ويمتد من محطة القطار المحلية الصغيرة حتى مركزها . . . والشارع الآخر كان اسمه شارع الكنيسة؛ ويمتد هذا الشارع مِن مركز المدينة حتى الكنيسة أعلى تل صغير، وكان هناك منظراً من فوق التل يطل على المرتفعات الدائرية لـ "موسلافينا" .

كانت صديقاتي – على النقيض مني– خبيرات بالحياة والناس، وحكيمات ممتلئات إلى حد التخمة بمعرفة مذهلة ومفيدة. . تعلمت من "أليكا" أنه لا يجب السماح للصبية بالاقتراب إلى ما تحت خصر الفتاة.

وتعلمت من "ليديجا" أنه يجب أن تطلي رموشك بزيت كبد الحوت، وأن تلويهم لأعلى باستعمال سكين المطبخ. . وكانت "ستيفيكا" بمثابة "بريجيت باردو" المحلية، لها نفس قصة الشعر ونفس تلك الشفاه الممتعضة بشكل طبيعي؛ وتعلمت منها أنك تستطيعين التدرب على التقبيل في المرآة. . وحاولت "بيبا" تعليمي – دون جدوى– كيف أصنع دولاب عربة نقل وقوائم أو ستاندات، لكن ذلك لم يكن ليقترب من الفتنة في نصيحة "ألمايكا" الغامضة!

كان حكم الفتيات على الصبية يقوم على مدى براعتهم في لعبة كرة اليد . . كان "فرجا" و"دافور" هم نجوم كرة اليد المحليين. . . وكانت "ليديجا" تواعد "دافور" . . وكان التعبير عن المشاعر بشكل غير مباشر. . كان "فرجا" يقول: مرحباً، وأخبرتني "ليديجا" أن هذا كان يعني أنه معجب بي، فقلت لها:

- قولي له أنني أقول له مرحباً . .

وكان ذلك يعني أنني أنا و"فرجا" سنذهب لرؤية فيلم سينمائي! وقد ذهبنا مرة أو مرتين، وكانت أفلاماً أمريكية.

إلى جانب كرة اليد، كان العامل الآخر لجذب الصبية للفتيات مسابقات الدراجات البخارية. . وكان المتسابقون من الصبية الأكبر سناً ولم يثيروا اهتمامنا، وكانوا يقومون بألعابهم البهلوانية على المرتفعات الطينية والحفر، حتى تنطلق صرخات الإعجاب والرعب

الحادة من مشاهديهم.

غادرت "كوتينا" عندما أنهيت دراستي في المدرسة الثانوية حيث ذهبت إلى جامعة زغرب.. ورغم أن بلدتي الأصلية كانت على مسافة لا تزيد عن ٧٣ كيلومتر من زغرب، إلا أني عدت إليها مرة واحدة: إلى حفل الدفعة المدرسية الخامس.

ما أن تركت بلدتي صارت بالنسبة لي نقطة غير مميزة على الخريطة.. كنت أجد "كانساس" و"كامشاتكا" و"كاتاماندو" – أماكن لم أذهب إليها أبداً– أكثر إغراء لي من "كوتينا" التي أمضيت بها ثمانية عشرة عاماً من عمري.

بالنسبة لـ"ستيفيكا"، تلك الفتاة التي أرشدتني لأن أقوم بتقبيل المرآة للتدريب، فقد غادرت إلى ألمانيا بعد حصولها على شهادتها من الجامعة؛ أما "ليديجا"، التي علمتني كيف أطلي رموشي وألفها بسكين المطبخ، فقد تزوجت ولديها بنتان وتعيش مع زوجها في "كوتينا".

صار "فرجا" الذي قال لي مرحباً ذات يوم، مدمناً للكحول ومات قبل أن يبلغ الأربعين، أما "دافور" الذي واعد "ليديجا" فقد صار معلماً، وفيما بعد قومياً متعصباً، وشق طريقه كاملاً إلى القمة السياسية أثناء الاضطراب العظيم للديموقراطية.

وتزوجت "ألمايكا" ثم طلقت، وهي تعيش الآن في زغرب

وترعى أباها العجوز؛ بينما تزوجت "بيبا" وفقدت توأماً في الولادة وتعمل اليوم كممرضة زائرة.

وتنتج اليوم البلدة الصغيرة "كوتينا" المخصبات الصناعية. . بينما تنهار الصناعة التي ضحوا فيها الكثير من الأموال أثناء الثمانينات الشيوعية، أو هكذا يقولون.

على أية حال، لازالت الأعناب في كرمات "موسلافينا" تعتق، ولا زال النبيذ لاذعاً كما كان دائما .

كما أن هناك مكان قريب من البلدة يسمى "فولودر"– يشير الاسم إلى سلخ الثور– حيث يشوي الفلاحون كل عام ثوراً .

obeikandi.com

الزمن القديم – الجنون الجديد

حديثاً، مات "ليون ستوكيلج" في سلوفينيا: كان رياضياً سلافياً حصل على ميداليات أوليمبية في الثلاثينات.

عاش "ستوكيلج" حتى بلغ مائة عام،ولم يبلغ مائة وواحد؛ كان هذا قدره فقد مات قبل أربعة أيام من عيد ميلاده الواحد بعد المائة.

قام هذا الرفيق القديم النشط بالتمرينات الرياضية على مدى أعوامه المائة بيد واحدة!.. وكان "ستوكيلج" شخصية مفضلة للجناح اليميني السلافي.. ربما لأنه كان الدليل الحي على أن السلافيين يمكنهم أيضاً بلوغ عامهم المائة.. كما كان مفضلاً لدى الآخرين وبالمثل للإعلام (يقول الخبثاء أنه مات قبل أوانه بسبب ظهوره المبالغ فيه في الإعلام) والناس العاديين.

كان "ستوكيلج" دليلاً على أن الحياة لا تحتاج لانتزاع كل بهجتها في مثل هذه السن المتقدمة.. هل هذه حقيقة؟! فـ "ستوكيلج"هو نموذج للصراع الإنساني الناجح ضد القوانين القاسية لتقدم العمر.. و"شير"، التي كانت توصف في أدب القرن التاسع عشر بأنها كانت رشيقة وهي امرأة في الخمسينات من عمرها، تعد بمثابة أعجوبة بيولوجية..

بينما كانت "تينا تيرنر"، التي كانت محل سخرية من مائة عام مضت بوصفها شيطانة سوقية، تتباهى بعرض ساقيها على الملأ، وتعد بمثابة ثورة بيولوجية في النظام الشفري للقيم هذه الأيام، ويصفر لها الأحفاد والجدات معاً بإعجاب!

إذا قلنا أن عصرنا عصر مهووس بالشباب، فما نعنيه حقاً هو أنه عصر مهووس بالعمر.

فقد هبط العمر لأدنى مرتبة على سلم القيم. . ولم يعد السن الكبير يعني الحكمة، والخبرة، والمعرفة، أو النبل؛ فالسن المتقدم قبيح، وخاطئ، ومكلف؛ السن المتقدم هو شيطان ضروري فحسب.

وربما بدا الطقس الصربي الشرقي القديم "لابوتا" - ذبح العجائز كشعيرة دينية عندما كان الناس الأصغر سناً يكسون بقماش رأس الشخص الأكبر سناً ثم يضربونه أو يضربونها بفأس حتى الموت - طقساً شنيعاً رهيباً. . لكن نفاق المجتمع الأوروبي الغربي المتحضر في كل كبيرة وصغيرة منه شرير وفاحش بنفس القدر، يصبح فيه الناس على استعداد لأن يذهبوا لأي مدى ممكن حتى يتجنبوا الـ"لابوتا" الرمزي!

إن رغبة "دوريان جراي" للبقاء شاباً للأبد في قصة "أوسكار وايلد" الأخلاقية لم تعد رغبة شاذة اليوم.

أن تبقى شاباً إلى أقصى حد ممكن ولأطول وقت ممكن صار

أولوية في ذاتها . . وقد نجح الميل القوي للرأي العام الأمريكي في محو السيجارة من الحياة الأمريكية على مدى عشرين عاماً، تم فيها تسليط الضوء على أضرار التدخين، وتم شطب عادة تدخين السجائر من الثقافة الأمريكية، ومن الأدب، ومن التليفزيون، ومن الأفلام؛ الوظيفة الوحيدة الباقية للسيجارة اليوم هي أنها الوسيلة السريعة الملاءمة للصناعات المبتذلة، ففي الأفلام الأمريكية اليوم الصبية الأشرار هم فقط من يشعلون السجائر، ونفس الشيء يبدو حقيقياً في الحياة العامة.

يعد صناع الرأي العام الأمريكي على نفس القدر من المهارة والرشاقة في عالم صناعة صورة الشباب – من العجائز؛ حيث تلاشى العادات التقليدية المرتبطة بالسن، ويرسخ لعادات جديدة مرحة ومتفائلة في ثقافة المجتمع . . فالناس في الخمسين هم في أواسط العمر المبكرة؛ واختفت سنة الميلاد من السيرة الذاتية المغطاة بالغبار، بداية من سيرة المؤلفات من النساء، والآن سيرة الرجال أيضاً . . حتى أن تاريخ ميلاد المرء صارت المعلومة التي يتم حفظها بدقة إلى حد بعيد عن الاطلاع عليها أكثر من غيرها من المعلومات الشخصية . . حتى أنني اعتقد أن أفراد الشرطة في الولايات يشعرون بعدم الراحة إذا سألوا شخصاً ما عن عمره.

وتجني صناعات مستحضرات التجميل، والموضة، وجراحة

التجميل، والرشاقة أرباحاً خيالية بتشجيع وترويج الخيالات المتراكمة عن الشباب الدائم.

إنها وسائل الإعلام – التي لا تتعاطف مع أن تكون فقيراً، أو مريضاً، أو وحيداً، أو كثير الشكوى، لذلك فهي تقدم الصورة الخطأ؛ تماماً مثل كون صورة المدخن خطأ حتى لو كان اسمه "همفري بوجارت" !

صارت مراكز اللياقة البدنية أماكن عبادة في الحرب ضد تقدم العمر.. فربما يخفي الناس أعمارهم، لكنهم لا يخفون عدد عمليات التجميل التي خضعوا لها .

حتى أنه لا يبدو أن أحداً تقلقه حقيقة أن "شير" مرت بالعديد والعديد من العمليات التجميلية، في الحقيقة يعجب الكثيرون بشجاعتها واصرارها على البقاء شابة كل هذا الوقت.. بل وتعلن صحفية برازيلية في تقرير لها عن جراحة التجميل أن "شير" كانت تقوم بعملية شفط دهون بعد كل وجبة دسمة تناولتها، وتجني أرباحاً هائلة من التوق الشديد إلى شباب ممتد؛ وأولئك الذين ينجحون في البقاء بمظهر شاب يجنون كذلك أموالاً طائلة، فقد أعلنت المرأة الأمريكية، التي أجرت سلسلة من الجراحات التجميلية حتى تظهر على هيئة الدمية "باربي": – مظهر باربي هو تذكرتي لحياة أفضل !

إن الحلم اليوتوبي السريع لشعوب القطب الشمالي السعداء الذين عاشوا في أقصى الشمال خالدين، مثله مثل الحلم المقابل لدى الأثيوبيين الكادحين الذين عاشوا في الجنوب وأكلوا الثيران المشوية وكانوا تقريباً أبديين؛ الحقيقة أن هذا الحلم لم يتلاش أبداً من أفق الشوق الإنساني.. ومثلما صارت اليوتوبيا (حلم المدينة الفاضلة) أقل فضيلة، صار الناس أقل صبراً، وأكثر شعوراً بالعار، وأكثر عدوانية في سعيهم لتحقيق أحلامهم، فالخوف من تقدم العمر أو الموت المبكر هو التبرير الأخلاقي لكل شيء بالنسبة لتلك الأرواح البائسة التي تأمل في إطالة عمرها بشراء أعضاء شخص آخر.

تلك الأرواح المبتهجة التي تشاهد برنامجاً تليفزيونياً خاصاً عن الأطفال الرومانيين الذين هجرهم أهلهم، وهم يدلكون وجههم بكريم للوجه صنع في رومانيا بشكل غير شرعي، بإضافة جزء من المشيمة يفترض أنه يجعلهم يبدون أكبر سناً.

هذا هو ما تبدو عليه الأمور في الجانب المشرق من الشارع؛ كبار السن في هذا الجانب يبدون أصغر سناً، بينما الأطفال يبدون أكبر سناً!

بلغ اكتئاب المراهقين وانتحارهم ذروة معدلاته، وفي ذات الوقت تبدو الأمور مختلفة على الجانب المظلم من الشارع.

في سيبيريا، وكرواتيا، والبوسنة يموت كبار السن مثل الذباب؛

من تقدم بهم العمر منهم، وبالتأكيد أولئك الذين أصيبوا بالمرض، لكنهم كذلك ينتحرون! . . إذ يطارهم السؤال، ما هو الاحتمال القائم؟

ما هي الاحتمالات الوحيدة التي يمكن أن تؤول إليه حياتهم المهنية ؟ . . التنقيب عن الطعام في علب القمامة، وشقة وحيدة، وفواتير غير مدفوعة، والوحدة؛ وعادة ما يختار العجائز: الموت!

هل هم يملكون هيئة "شير" في بقعة ما مضيئة من التليفزيون؟ . . مثلما يقفون هناك والأنشوطة (العقدة المستخدمة في حبل المشنقة) حول أعناقهم، أو وهم على وشك دفع كرسي الإعدام؟ . . لم أكن لأعرف الإجابة، لكني أعرف أن هذه الصفقة مع الموت تمنح للحياة معنى مثالياً!

آه، تلك اللغة الطنانة

التقى صديق شخصي لي فى حديث مع شريك محتمل على شبكة الانترنت، وبدأ تبادل المعلومات بينهما حول الشبه بينهما في المظهر الخارجي. .   كتب الشريك المحتمل ،"الناس يقولون أنني اشبه "توم هانكس"، وأنت ؟ من تشبه ؟ ! . . أجاب صديقي الذي لم يكن يبالغ في الأمر، "أنا أذكر الناس بالممثل "داستين هوفمان" .

وقرروا، بعد المحادثة الأولى بينهما، أن يتقابلا؛ وعلق شبيه توم هانكس:

- أنت تبدو ألطف من داستين هوفمان. .

ولم يحدث بينهما لقاء آخر، وأخبرني صديقي فيما بعد:

- لم يكن صاحبنا يشبه توم هانكس من قريب أو بعيد .

وسألني كشخص ثان يفكر في المسألة: – هل تعتقدين فعلاً أنني أبدو أكثر وسامة من داستين؟ !

أجبته: – بالتأكيد !

حيث أننا نعيش اليوم في عالمٍ يقوم على مبدأ مجتمع السوق فلم يعد هناك شيء يترك وحيداً موجودا من أجل ذاته، ولا حتى على مستوى الحياة الشخصية، فكل شيء يجب أن يصنف (بوضعه في

زمرة معينة) لصالح شخص ما أو شيء ما .

هناك محلان لبيع الملابس في برودواي الغربية في نيويورك، كلاهما ملاصق للآخر. . أحدهما يسمى "فلسفة"، ويسمى الآخر "فن وعلم وفلسفة"؛ فالملابس لم تعد تباع باعتبارها مجرد كساء لكن باعتبارها "فن وعلم وفلسفة."

وهناك إعلان مُسّلٍ لموديل سيارة مرسيدس يظهر فيه بورتريه مقلد للفنان ليوناردو دافينشي، وفان جوخ، وتولوز لوتريك، وهم جالسين في السيارة مبتسمين ابتسامة عريضة ويغنون أغنية لثلاثة أصوات رجالية دون موسيقى مصاحبة؛ إذ لم تعد السيارة مجرد مركبة إنما هي منتج لثقافة مؤسسية أرقى، تصنف بوضعها مع زمرة منتجات أخرى لتلك الثقافة المؤسسية الأرقى.

إن العالم المؤسَّس على السوق المتقلب بتفاهة، يصبح في قمة سعادته عندما يكتسي بملابس خارجية تعبر عن قيم معروفة ومختبرة من قبل؛ وتميل التفاهة بثقل إلى لغة الفن الرفيع، (تسوق جاكي كولينز نفسها بأنها "مارسيل بروست" هوليود)، ولغة الطب المعقدة، (يعلن عن الملينات ممثلون يدعون بأنهم أطباء مشاهير)، والمعرفة الجادة والثقافة، هي فقط من أجل رفع قيمة السوق كله إلى أعلى.

بالكاد أصبح بلدي السابق يصنع أو يبيع أي شيء؛ والناس

هناك يمكنهم بالكاد أن يجعلوا النهايات تتلاقى، لكن الإعلانات والدعاية الذاتية صارت بارعة إلى حد مذهل.

أحياناً يبدو الأمر كما لو كان الناس الذين يعيشون في ذلك البلد لا يفعلون شيئاً إلا الحديث من خلال قبعاتهم وجو السوق الحار.. وفي أماكن أخرى يبيع الناس ما يملكونه! .. وتحول الأمر إلى أن الكرواتيين والصربيين صاروا الأبطال المطلقين لبيع الأخلاقيات.. فهم يبيعونها لبعضهم البعض، ولأنفسهم!

كانت يوجوسلافيا السابعينات "بلد الأبطال" أكثر منها بلد فيه أكثر شواطئ العالم جمالاً، وصارت لغة الخطاب حول الأخلاق في يوجوسلافيا الشيوعية أكثر حمقاً على مر السنين حتى انفجرت إلى كتلة من اللهب.

صارت كرواتيا (وليست صربيا، أو مقدونيا، او منتنجرو، إلخ بأفضل حال منها!) في نفس الأثناء "أكثر الدول ديموقراطية في العالم"، فرئيسها الأول "عملاق في الفكر الكرواتي،" وتقدمت زغرب عاصمة كرواتيا، لتصبح مدينة "متروبوليتانية".. وحديثاً احترفت المعارضة هناك نفس لغة الخطاب التي تحترفها الحكومة..

بينما أكتب هذا المقال، هناك "أعمدة أخلاقية رأسية " تتجول حول كرواتيا؛ أولئك "المحاربون المتحمسون الذين لا يلينون من أجل الديموقراطية،" وتلك "الجبال الأخلاقية في علو جبل الهيمالايا" التي لا

تقهر. . كل هذا يمكن احتماله لو كان أولئك البائعون - الذين يثيرون الشفقة- للقضايا الساخنة في سوق السياسة الداخلية قادرين على الاعتراف بأن هذه مجرد لغة للإعلان!

هم، على أية حال، يعتقدون في الخطوط الأخلاقية الرأسية؛ وعلاوة على ذلك هم مقتنعون بأن هذه الرأسية كامنة في جيناتهم الوراثية. وربما أنهم لم يبتعدوا كثيراً عن الحقيقة. . مثل أحد النوادر من ثروة الفولكلور المحلي المرحة التي تُحكى هكذا:

تقول الدودة:

- مرحباً، أنت هناك، هل أنت نسر؟"

فتجيب الدجاجة: - تحياتي لك، يا ملك الثعابين!

كلب صغير – نباح كبير

الآن، هذا هو التناقض الظاهري: لا يأخذ الناس الضئيلة الجسم – فقط- مساحة أكبر من التي يأخذها الناس ضخام الجسم؛ لكنهم يصنعون ضجيجاً أكثر.

هكذا، وأنا أصعد إلى طائرة في صف طويل، حيث يدخل الناس الطائرة واحداً تلو الآخر ببطء وهدوء، يقف أمامي شخص ضئيل الجسم، وهو يحدث صوتاً بالنقر، معكراً صفو النعاس الذي يتملكني.. ينقر! ينقر!

الشخص الضئيل يتململ بعصبية، فهو يشعر بالإهانة من الانتظار في الصف، وربما كان ضجراً تماماً، أتعرف لماذا ؟ لقد اكتشف أنه عندما كان ينقر بحذاءه على الأرضية البلاستيكية للأنبوب الذي ننتظر فيه بصبر قبل أن نصعد على متن الطائرة، يحدث صوتاً عالياً.. حاول تكرار النقر مرة أخرى.. فجفل الركاب، لكن لم يلتفت إليه أحد منهم. صارت أقدام الراكب ضئيل الجسم الواقف أمامي في الصف أكثر حيوية، وأكثر تأكيداً: نقر! نقر!

لم أر في حياتي من قبل أحداً يركب دراجة بخارية منخفضة: راكبو الدراجات البخارية المنخفضة رجال أجسامهم ضئيلة، وهذا

هو السبب في أنهم يختارون مركبة تحدث الضجيج الأعلى على الإطلاق: برووم! . . برووم!

لا توجد متعة لشاب ضئيل الجسم أكبر من أن يعين حدود منطقته بالصوت. . شاب صغير يجلس على دراجة بخارية، في منتصف الليل عندما يكون الناس قد ذهبوا للنوم، ويبدأ في تشغيلها:

– برووم! . . هو يعلن عن وجوده للعالم بأسره.

لماذا في الليل؟ ! . . لأن الصوت يرتحل لمسافات أبعد في الليل. ويختار الشباب صغار الجسم لرفقتهم نساء جميلات، خفيفات الوزن، وبهذا يكون هناك مساحة لتلك النساء على المقعد الخلفي.

هل رأيت أبداً من قبل شاباً ضئيل الجسم مع امرأة طويلة تركب خلفه على دراجة بخارية منخفضة؟ ! . . يختار الشباب الصغار الجسم شريكات يتناسبن معهم، نساء مناسبات لدراجة بخارية منخفضة.

لم أر في حياتي شخصاً طويلاً يقذف بالألعاب النارية التي تطلق شرارة لامعة، في الأيام التي تسبق الكريسماس، عادة ما يفعل ذلك الأطفال والمراهقون.

أحياناً، يوجد بين الأطفال والمراهقين شباب صغار الجسم. . هم لا يتحركون في قطعان، ويكونون غير مرتاحين إذا تحركوا في جماعة، لكنهم يخرجون في الليل ويخلفون وراءهم ضجيجاً عالياً:

برووم!

هل سبق لك أبداً أن دفعك شخص ضخم بكوعه في الشارع؟ لم يسبق لي أنا شخصياً أن تعرضت لذلك.. لكن الشباب صغار الجسم عادة ما لكزوني في ضلوعي، إنهم أولئك الذين يحتلون مساحة مبالغ فيها كي يعلنوا لكل امرئ أنهم موجودون.

هم أولئك الذين يضربونك بشدة بحقائبهم المعلقة على ظهورهم، والذين يركلونك في ساقك، وينبحون (يتحدثون بصوت عال كالنباح) في تليفوناتهم المحمولة في الأماكن العامة.

هل سبق لك أبداً أن رأيت رجلاً ضخماً بصورة غير عادية ينبح في تليفونه المحمول؟ أنا لم أر ذلك أبداً!

الناس ضخام الجسم يفسحون لك الطريق، ويمشون بخفة مثل قطة حتى لا يضايقونك، وهم يدعون أنهم أصغر مما هم عليه بالفعل، وأهدأ مما يمكنك أن تكون عليه من هدوء.. كقاعدة: الناس ذوي الأجسام الضخمة بحق يفعلون كل ما يمكنهم حتى يصبحوا غير مرئيين لا يشعر بهم أحد.

اعتادت أمي أن تقول: - كلب صغير - نباح كبير.

لن أنسى أبداً منظر ذلك النقر بالأقدام لذلك الرجل الوقح الواثق من نفسه في طريق الصعود للطائرة.. لقد أصابني المشهد برعشة.. ولم يكن هذا الشخص الراقص فريد استير.. ذلك الجسد المشدود

الصغير، والقدم المضطربة تنفر جينات قائد عسكري، مثل القادة من زمن "أتيلا" قادة شعب "الهون" (شعب مغولي سيطر على جزء كبير من أوروبا الوسطى والشرقية عامٍ ٤٥٠ ميلادية) .

لاحظت تفضيلاً استثنائياً واضحاً بين الأمريكيين لرجال الدولة المنتخبين من طوال القامة، وبمجرد أن يضل الأمريكيون ويختاروا أحداً أقصر تبدأ المشاكل !

أنا ليس لديّ شيء ضد ديموقراطية الرب وحقيقة أننا نبدو على الهيئة التي خلقنا الله عليها . . كل واحد، في النهاية، هو جبل الهيميلايا الخاص بذاته.

لكني سأقدم ملاحظة تحذيرية فيما يتعلق بالعمل في الخدمة العامة:

إذا كانت الجماهير تتشكك في الناس السمان – الذين، وبحق، لم يؤذوا أحداً سوى أنفسهم – فأنا لا استطيع أن أفهم لماذا لا يمارسون الحذر مع الناس صغار الجسم بنفس القدرِ؟ ! . . ثم ماذا عن الدول؟ . . الدول الصغيرة تحدث ضجيجاً، بينما الدول الكبيرة لديها – منطق، كما أعلن "جوران"، وأنا ميالة لتصديقه. . أتدرى، إنه من مقدونيا !

الزمان والمكان

كل مرة اتصل فيها بأمي من الولايات المتحدة (من نيويورك)، تسألني أولاً :

- ما هو الوقت عندك الآن؟

- إنها الظهيرة.

- حسناً، هنا الساعة السادسة مساء .

تقولها أمي وهي مسرورة لسبب ما .

فقط، بعد هذا التبادل في المعلومات عن الوقت بدقة هناك وهنا يمكننا أن نمضي في حديثنا .

لم تسافر أمي كثيراً، ويبدو منطقياً أن تهتم بفروق التوقيت، لكن، حتى أصدقائي الذين سافروا بمعدل أكبر منها يعلقون بشكل ثابت على فروق التوقيت.

كان السكان في يوجوسلافيا السابقة هائمين، ومشردين، وسائحين، وملاحين ذرعوا البحر جيئة وذهاباً، وعمالاً مهاجرين، ويعملون بالضيافة، ومهاجرين، وقطاع طرق؛ أناس كانت الجغرافيا طوعا لهم. . شيء ما، على أية حال، يخرج عن هذا النسق عندما يتعلق الأمر باحساسهم بالوقت. . وهناك شيء آخر، إلى جانب

obeikandi.com

الزمن يصيب أبناء جلدتي بالعلة: مكانهم في العالم.. فلديهم شعور معين بموقعهم من العالم.

عندما يتصل بي رفيق من يوجوسلافيا السابقة، بغض النظر عن المكان الذي يتصادف وجوده فيه، فمن المؤكد أنه سيسأل:

- هل هم يكتبون أي شيء عنا؟

(هم) في هذه الحالة تعنى سكان البلد الذي يتصادف وجودي فيه في ذلك الوقت، و(نحن) في هذه الحالة هم اليوجوسلافيين أنفسهم.. عندها أجيبه بجذر: - لا شيء محدد.

وعلى الطرف الآخر من الخط، يحل صمت يعبر عن كل من الميل للشك والاحباط في آن.

تبنت الدول الصغيرة في البلقان الإيمان الصارم بأنهم يلعبون دوراً جغرافياً - سياسياً حيوياً لافتاً للنظر.. سوف يتفق الكثيرون مع حقيقة أنهم فقراء، وأنهم متعصبون، حتى أنهم قد يذعنون (بشيء من التذمر) بأن البحر الأدرياتيكي ربما لا يكون أجمل بحر في العالم (رغم أنه الأنظف)، لكنهم لن يقبلوا أبداً بفكرة أن موقعهم الجغرافي ومكانتهم الجيوبوليتكية ثانوية.

لماذا؟!.. لأنهم حصن وفي مفترق الطرق!.. رأت كرواتيا نفسها دائماً بوصفها الحصن.. لقد كانت لفترة قصيرة بالفعل حصناً ضد الأتراك (الذين كانوا قادرين على الاستيلاء على فيينا لولا أن

الكروات كانوا يحمونها)، ثم كانت حصناً ضد الشيوعية (أولئك الصرب، كما يعرف الجميع، كانوا كلهم شيوعيين) . . إن كلمة "البلقان" تعني "الصرب"، "الأرثوذوكس"، "القبائل البربرية" .

وتشتهر كرواتيا أيضاً بأنها مفترق طرق: مفترق طرق بحري لكنها أيضاً واقعة على جزء من شبكة وصلات السكك الحديدية ومسار الطائرات.

الحصن ومفترقات الطرق ما هي إلا خيالات الدولة والأمة، خصوصاً عندما يتجه المرء في اتجاه الشرق من كرواتيا . . البوسنة أيضاً كانت حصناً ومفترقاً للطرق؛ وكذلك صربيا بالطبع، ولا ننسى مقدونيا .

اصطدم أحد أصدقائي صدفة، الذي يسافر كثيراً للولايات الجنوبية من الاتحاد السوفييتي السابق، بمفاهيم الحصن ومفترق الطرق المتشابهة في كل تفاصيلها التي زرعها أهل جورجيا، وأذربيجان، وأرمينيا، وأوزبكستان، وتركمان، وطاجيكستان، وبورياتيا !

هناك لحظات، أشعر فيها حقاً بالأسف علينا . . ليس سهلاً أن نكون دولة صغيرة ولا توجد لدينا مصادر تتحدث عنها . . وليس سهلاً كذلك، أن نكون مواطنين في دولة صغيرة . . كيف يمكن للمرء حتى أن يعرف من أين يبدأ ؟ !

لا بد أن هذا هو السبب في أن أول شيء يحدث للمواطن من

بلدي أن يوجه نفسه في الزمن. . وبمجرد أن يوضع بشكل مناسب على خريطة الزمن، فإنه – مواطن تلك الدولة الصغيرة – يركز نظره على منظر طبيعي متخيل. . ويشاهد ! عبر القطارات السريعة اللامعة المهجورة والمكسوة بالأعشاب، طائرات تصدر أزيزاً متواصلاً، مثل سرب من البعوض فوق الرأس، وقبل أن تمتد رؤيته على امتداد البحر في التقائه بالمحيط، تنزلق البواخر مثل سرب سريع من البط.

هناك، بالضبط فيما وراء الحصن الذي لا يمكن اختراقه، يمكنك أن تسمع صهيل الخيول والصراخ المضطرب للبرابرة الذين يسعون إلى غزونا من الشرق !

صار علم أصول الإنسان (الأنثروبولوجيا) نظاماً متورطاً عندما تخلى عن موضوعيته.. حولت الأنثروبولوجيا في صورتها غير الموضوعية القدرة على رؤية الأشياء وفق علاقاتها الصحيحة، بين الواصف والموصوف؛ وتآكلت الأشكال البلاغية للأنثربولوجيا القديمة، الكولونيالية، الفاشستية.

أحد الأمثلة الكلاسيكية على الأنثروبولوجيا الجديدة، المرجع الذي كتبه "هوراك ماينر"Horac Miner: "الطقوس الجسدية بين أهل "ناسيريما"، حيث يستخدم المؤلف استراتيجية السرد لوصف "الموضوع" الكلاسيكي لجعل طقس تنظيف الأسنان بالفرشاة طقساً غير مألوف.. يشمل الطقس الجسدي اليومي الذي يؤديه كل فرد شعيرة دينية خاصة بالفم، ورغم حقيقة أن هؤلاء الناس شديدو الحرص على الشكليات فيما يخص العناية بالفم؛ يشتمل هذا الطقس على ممارسة تصدم الغريب الذي لاخبرة له باعتباره طقساً مقززاً.. وأرسل إليّ تقرير بأن الطقس يتكون من زرع حزمة صغيرة من شعر الخنزير في الفم، مع بودرة سحرية معينة، ثم تحريك الحزمة في سلسلة من الإيماءات تضفي عليها صفة رسمية جداً.

أمارس، مع زملاء الجامعة من القسم السلافي طقس "الغداء الجماعي" مع جماعة من الأمريكيين البدائيين.

يحضر البدائيون وجبتهم معهم، والتي يسمونها "غداء"، في علبات بلاستيكية صغيرة. يتكون "الغداء" من العديد من ثمار الجزر الصغيرة، وعيدان الكرفس، وحلوى طبيعية من الألياف، أو كوز من الذرة.

ويحضر البعض منهم "الغداء" في علب بلاستيكية تتشابه في الشكل واللون مع مظهر بعض مواد الطعام: "خبز الباجل" أو "الأوريو" (حلوى بنية داكنة مليئة بكريمة بيضاء)، ويوجد بالعلبة فتحة صغيرة بغطاء، تسقط من خلالها نقط سائلة من الطعام خارج الصندوق بكميات محدودة.

أنا أيضاً أملك علبة "غداء" على شكل الهامبورجر، وعادة ما أحضر جزرة في الصندوق. نتحدث معاً عن الجديد في القسم بينما نقضم ونمضغ الطعام، ولا يتشارك أحد مع الآخر في أنواع الطعام من علبته، ثم نجمع بعناية ما تبقى، ونضعه في العلبة مرة أخرى.

في البيت، بينما أقضم الجزرة غير الناضجة التي لا وظيفة لها، القابعة في قاع العلبة البلاستيكية التي على شكل الهامبورجر، استدعي من الذاكرة طقوس الطعام لأهل البلقان الأصليين.

اتذكر الخنزير الصغير المشوي في العام الجديد (كل منزل يجب أن

يكون لديه خنزيره الصغير الخاص به)، ويتقلب الحمل على نار مضرمة، وطقوس الذبح الخريفية، وسلاسل السجق البهية.

أتذكر إعداد المواد الحافظة؛ وخزانات المؤن البدائية؛ وصفوف الزجاجات الطويلة التي تحفظ قدور مملؤة بالمربات والمخللات؛ وكل الأشياء الأخرى.

أذكر العرض المتباهي لمحلات لحم الخنزير والنبيذ الفوار البروسيكيو، وجولات مشاهدة غرف إعداد وتجفيف اللحوم، والقبو، والعلية؛ حيث يأخذ كل مضيف ضيوفه إليها كتعبير عن الحميمية والثقة.. كما أذكر قطع الحلوى (الجاتوه) السلافية منتشرة في الأطباق في غرف النوم الريفية، والغرفة المنفصلة (لإظهار التأثير الكامل على الضيوف قبل بدء الاحتفال بالعيد على المائدة).

وقد تغلبت، من منظور طعامي الحالي قليل الدهون قليل الكوليسترول، بواسطة عاطفة قبلية بالغة على هذه اللغة الصماء للطعام.. كان الطعام بمثابة لغة بالنسبة لسكان بلدي الأصليين، نظام من الاشارات التي عبرت عن مدى واسع من الأشياء: حب الأطفال، والعائلة، والأقارب، والضيوف. فهم لايعرفون لغة أخرى للتعبير عن حياتهم.. الطعام هو لغة صماء للتعبير عن الحب وإيماءة توحي بالحرية الشخصية.

تلقى صديق لي روسي الأصل منذ حوالي عشرون سنة مضت،

أوراقه التي انتظرها طويلاً للهجرة إلى أمريكا . . وتوقف صديقي بشكل مفاجئ في مواجهة العادات الأمريكية . . في الحقيقة كان كلباً بوليسياً هو الذي أوقفه ! . . فقد تبين أن صديقي يحمل سجقاً في حقيبته، اشتراه من مطار ميونيخ، وقد أثاره ضخامة السجق وطعمه اللذيذ، وفعل صديقي ما أمكنه ليحفظ السجق . . لكن لم يكن ممكناً استرضاء موظفي الجمارك الأمريكيين.

وأدلى ذلك البدائي بحديث عاطفي عن كيف أنه يرى أن حريات الغرب مجرد خدعة؛ وعن إحباطه المرير من الديموقراطية الأمريكية. ولم يهتز جفن لموظفي الجمارك . . هكذا جلس البدائي هنا وهناك في المطار، والتهم سجقه في غضب.

وبمجرد أن أنهى وجبته، سار الهوينا ! . . ممتلئاً بالأهمية، إلى أمريكا حيث يعيش حتى يومنا هذا .

التاريخ والثقافة

تحدثت مؤخرا مع صديق لى هاتفياً من أوروبا، تصادف أنه كان في أمريكا، مثلي، لمدة عام حيث يعمل في جامعة أمريكية، وقال :

– أتعرفين، أنا أحب المكان هنا . . لقد رغبت دائماً في إقامة طويلة لطيفة في أمريكا لكن. . .

– لكن ماذا ؟

– لكني لا زلت أشعر أنني أفتقد شيئاً ما .

– ما الذي تفتقده؟

قال صديقي دون تفكير:

– التاريخ !

يعلم صديقي بالتأكيد أنه بقوله هذا يدور حول أكثر الآراء المقولبة شيوعاً عن فكرة الاختلافات بين أوروبا وأمريكا . . وعلى جانب آخر، فإن الأجنبي من أوروبا يتملكه بالفعل الشعور – صحيحاً كان أم خطأً – أن هناك أشياء كثيرة في أمريكا ليس لها الوزن الذي تملكه في أوروبا، وهي فقط على سبيل الدعابة: السياسة على سبيل المثال، التي ستصبح يوماً ما تاريخاً، والتاريخ الذي اعتدنا أنه مجرد تسلية، حيث يتأسس النظام التعليمي في

أمريكا على الاعتقاد بأنك تتعلم أسرع عندما تستمتع بوقت طيب.

وعلى سبيل المثال، كنت حديثاً في "سان أونتاريو" حيث قمت بزيارة الموقع الشهير هناك "آلامو".

في البداية اعتقدت أنني لا بد وأنني في موقع تصوير سينمائي ما؛ وتبين أن هذه كانت مجموعة من الناس المحليين المتطوعين، الذين يمثلون عملية الدفاع التاريخي عن منطقة "آلامو" أمام السائحين.. لم استطع، رغم خبرة التعليم المحسوسة لدي، أن أحدد رأس وذيل (بداية ونهاية) ما شاهدته.. وبدأت الحكاية تصبح ذات معنى فقط،، عندما وقعت عيني على كتيب سياحي عن المنطقة..

ثم شرح لي صديق أمريكي – مؤرخ – أنني تناولت الأمر برمته على النحو الخطأ لأنني لجأت إلى نسخة دعائية للأحداث، تم تعبئتها من أجل السائحين.

لا بد أن هذه هي الكيفية التي يشعر بها الأمريكيون عندما يحاولون فهم ما جرى في منطقة البلقان.

بالطبع لم أكن متورطة في عملية الدفاع عن منطقة "آلامو"، ولحسن الحظ لم يكن مطلوباً مني ذلك.

عادة ما يستدعي الأوروبيون تاريخهم؛ فلديهم التاريخ جاهزاً وحاضراً في الوقت المناسب.. وهم يتنفسونه كالهواء، ويتعاملون بحميمية مع التاريخ كما مع أبناء العم.

على سبيل المثال، يسمي الروسيون الاتحاد السوفييتي السابق "سونيكا"، وهي كلمة تصغير الآنسة سونيا، ويلقبون الإمبراطورة العظيمة كاثرين ب"كاتيا".

ويطارد أبناء بلدي من اليوجوسلافيين السابقين بعضهم البعض، ويريقون دماء بعضهم بعضاً باسم التاريخ.

هم يدافعون عن مهد حضارتهم، بترحيل كل بيض طيور الوقواق من البلاد: الصرب يطردون الألبان من كوسوسفو، والكروات يطردون الصرب من كراجينا.. وهكذا يمضي بنا الحال.

الكلمة الأخرى التي تحمل نفس قداسة كلمة التاريخ هي "الثقافة".. ورغم أن المدافعين عن الثقافة كانوا عادة من الجاهلين، ولم يتسن لهم قراءة كتاب واحد حتى أنهم بالكاد يمكن أن يعددوا القرون التي عاشها الإنسان على الأرض!.. إلا أنهم كانوا دائماً على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل الثقافة، وعلى استعداد لتدمير حياة الآخرين، وهو ما فعلوه بقوة وحماس.

ويتبين لنا أن هؤلاء المدافعين عن التاريخ والثقافة يدافعون بأقصى قدر من الضراوة عن أشياء يعرفونها بأقل قدر من المعرفة، والتي يولونها أقل اهتمام.. فقد تخلص الكرواتيون من أكوام من الكتب الصربية، وكتب أخرى من مكتباتهم أثناء حربهم مع الصرب، وقاموا بتفجير جسر "موستار" أثناء الحرب مع مسلمي البوسنة.

وضرب الصرب مكتبة "دوبروفينك"، وهي المكتبة الوطنية في سيرايفو، ودمروا المساجد البوسنية العتيقة، وحولوا الثقافة الألبانية في كوسوفو إلى رماد.. فعلوا كل هذا باسم الدفاع عن تاريخهم وثقافتهم.

لكن، عندما سقطت قنابل حلف الناتو بالقرب من دير "جركانيكا" كانت الحملة في رأيهم هجوماً على "أكثر مواقعنا الثقافية قداسة وتبجيلاً."

وعندما تكسرت النوافذ الزجاجية في واحدة من الجامعات الصربية في كوسوفو كان هجوماً من الناتو على "جنة الروح."

كان ممكناً أن تصبح الأشياء أكثر بساطة إذا كان الناس الذين فعلوا هذا كله مستعدين للاتفاق على أنهم كانوا يقتلون من أجل القتل، ويدمرون من أجل التدمير، ويعذبون من أجل التعذيب.

بالطبع هذا لن يحدث؛ فالتاريخ والثقافة هما أكثر البنوك الوطنية التي يمكن الاعتماد عليها في غسل الضمير القذر.

التاريخ والثقافة هما جزء وكل لما يعرف بالهوية الثقافية الوطنية، رغم أن الوطنية والهوية ذاتهم مجرد أشياء ملفقة اختلقها الخيال الجماعي للناس.. والجماعي، على أية حال، هو ما يمكن تصديقه والإيمان به، ولن يستطع أي قاتل فرد أبداً أن يقول:

– أنا قتلت دفاعاً عن ويليام شكسبير لأنه جزء من ميراثنا

الثقافي مثلاً!

وعلى جانب آخر، يمكن للجماعي أن يمارس (القتل الجماعي)، فهو يقتل وينظر له في الحقيقة على أنه من حقه.

بوضع هذا المنظور الدال على الاحتمال في الحسبان، كيف يمكن لأي شخص مهذب أن يتطلع لأن يصبح بناءً، أو مؤلفاً موسيقياً، أو رساماً، أو كاتباً؟!

obeikandl.com

obeikandl.com

اللعنة

يصرّ أصدقائي الذين يسافرون بانتظام على أن الناس يتشابهون إلى حد كبير في كل مكان. . وأوافق على وجهة النظر هذه من حيث المبدأ، لكني لم أسمع في أي مكان آخر الكثير من الكلمات الجميلة ينطق بها الناس بمثل هذه المصداقية، التي تحث على افراز انزيم الأدرينالين وتشعل الحماس مثلما أسمع في أمريكا كلمات مثل (مذهل! ورائع! وجميل!)، كما لم أسمع في أي مكان آخر كلمات قبيحة ينطق بها الناس، بمثل هذا الازدراء من دون تخفيف، مثلما أسمع بين أبناء بلدي (يوجوسلافيا السابقة).

في هذا الأمر كلهم متشابهون: الكروات، مثل الصرب، مثل البوسنيين، والحقيقة أنهم استبدلوا العديد من الكلمات القبيحة بكلمة واحدة: اللعنة.

ويبدو أن أبناء بلدي لا يؤمنون كثيراً بفوائد معجم لغوي أكبر؛ فهم أناس لاذعون، ولغتهم لاذعة. . وهم أول من اخترعوا الاكتفاء بالحد الأدنى من المفردات في الأدب!، ولم يكن "رايموند كارفر" قد وُلِد بعد، لم أر في حياتي أبداً، شعباً يعبر عن كل أشكال الحميمية في العالم كما يفعل أبناء بلدي. . باختصار، أبناء بلدي شخصيات دولية "كوزموبوليتانيون".

ربما بدأ حديث ما بين المثقفين، الذي يسهل تخيله في مقهى ما في زغرب، أو بلجراد، أو سيرايفو مثل الآتي: - هل رأيت فيلم "ألتمان" الجديد ؟

- بالتأكيد شاهدته! اللعنة!

- هل ألقيت نظرة على رواية "سلمان رشدي" الجديدة؟

- اللعنة، كل رواية جديدة له أسوأ من سابقتها .

- هل شاهدت مسرحية "بيتروفيتش" الجديدة "بتروفيك"؟

- ولماذا يجب علي أن أشاهدها ؟ أتعرف، أنا لا أذهب أبداً لمشاهدة تلك القمامة المحلية !

ويعود الفضل في نظرة أبناء يوجوسلافيا السابقة الكوزموبوليتانية للأشياء إلى أنهم يميلون للادعاء بأن هولندا تنهار (إنها بلد ربما وجدت نفسها في أي يوم وقد اختفت من على وجه الأرض)؛ ومن وجهة نظرهم ليست سويسرا بأفضل من كونها ثقب في قطعة ضخمة من الجبن السويسري، مجرد صفر كبير، بلد لا شيء فيه يمكن التباهي به أكثر من احتفاظه بأموال الأجانب في بنوكه؛ ويرون أن الفرنسيين لا يمكن احتمالهم، فهم يدسون أنوفهم في كل شيء حتى الهواء (لا بد أنهم يجدون أن قطع الشطرنج الخاصة بهم تفوح منها رائحة كريهة، تتنافى مع الأخلاق والذوق السليم)؛ ولو لم يكن "توماس مان" وسيارات "بي. إم. دبليو." لم يكن الألمان ليستحقوا

الذكر؛ وهو نفس الشيء الذي يمكن أن يقال عن الإيطاليين، لأنهم موجودين فقط بفضل "جنوتشي" الخاص بهم، ومغنيين الأوبرا "التينور" رغم أنهم عُمي مثل الخفافيش؛ طبعاً المقصود أصوات التينور الرجالية لا الجنوتشي!

لم يكتسب أبناء بلدي هذه النظرة العالمية للأشياء بمتابعتهم لما يجري حول العالم، إذ أنهم في الواقع، يقفون بعناد في بقعة واحدة من هذا العالم؛ وقد أتى العالم دائماً إليهم: كمحتلين، ومستعمرين، ومغامرين، وسائحين، ومفاوضين حول السلام.

جلس أبناء بلدي لقرون، هناك على الدكة أمام البيت يراقبون، ويستندون بمرفقهم على عتبة النافذة، ويمدون جذورهم حتى الشاطئ منتظرين القوارب حتى ترسو. . وإذا ما اعتقد أحد ما بأنهم حصلوا على هذا كله بسهولة، فإنه سيجد اعتقاداً آخر مواجهاً له في الطريق. . إن عقدة التفوق لا تأتي وحدها أبداً، فهي تمضي جنبا إلى جنب مع الشعور بالشفقة تجاه الذات.

يحافظ أهل بلدي على فكرة أنهم ضحايا، ويدافعون عن فكرهم، لأنها حقيقة ما يشعرون به حيال أنفسهم. . فقد ولدوا ضحايا الشغف المتأصل للآباء ذوي الرغبات الجنسية القوية؛ وضحايا الجغرافيا (إذا لم يكن لموقعهم الطرفي في أوروبا، لما كانوا ليكونو – ألمانيا!)؛ وضحايا التاريخ (لم يمنحهم التاريخ فرصة

مناسبة أبداً)؛ وضحايا الاقتصاد (الإقطاع اللعين، والشيوعية، والتحول الرأسمالي)؛ وضحايا السياسة (زوجة الأب تلك، المسماة السياسة!) . . هم ضحايا المناخ الخاص بهم وضحايا العالم، محلياً ودولياً . .ولا يملك الشخص الطبيعي إلا أن يتعجب كيف أمكنهم، بينما كل الأمور تتحالف ضدهم، استمرارية البقاء .

لكن البقاء هو جل ما يقومون به . . والوسيلة الوحيدة التي تدبر به هذه العينة من الجنس البشري أمورها، هي أن تحول كل هزيمة لها إلى نصر . . هم يفعلون ذلك مراراً وتكراراً، ولا يوجد لديهم خيار آخر .

ohoudkandil.com

التنهدات

استيقظت ذات ليلة في مدينة "اتويرب"، على صرخات مفاجئة، وذهبت للنافذة لأرى ماذا يحدث. . كنت أقضي يومين في تلك المينة الرائعة والتي أحبها مثلما أحب الشيكولاتة. . ومن نافذة الفندق كان هناك مشهداً لميدان صغير مضاء بمصابيح الشارع، وهناك رجل وامرأة واقفين، في الفراغ، على مسرحٍ طبيعي. . تحدث الرجل بصخب وبطريقة مسرحية، معنفاً أو لائماً لها بقسوة، وبكت المرأة بمرارة. . لم أفهم ما قاله الرجل، ولم يكن ممكناً أن أفهم. . وختم الرجل وصلته بإحكام مثل راقص الفلامنكو حين ينهي رقصته!

كان الأمر كما لو كان يستخدم صوته ليعوض عدم قدرته على التحكم في جسده المتوتر. . وقطع صوته السكون المخيم على الميدان مثل صرخة النورس بصورة عرجاء. . وكانت المرأة تئن برخاوة بصورة عرجاء أيضاً، مثل طفل؛ تنحني وتتذلل في ألم مع كل دفقة من دموعها المتجددة.

كانت مشاجرة مؤثرة بالفعل بين حبيبين لم أنسها أبداً، إذ كنت شاهدة، بالصدفة، على ألم شخص آخر.

نادراً ما تسنح لنا الفرصة لنشاهد آلام

الآخرين؛ ويصلنا الألم الإنساني عبر شاشات أجهزتنا التليفزيونية مصفىً، في الأغلب الأعم بغرض الاستهلاك المحلي، ونادراً ما يكون شعورنا به بشكل شخصي، وبهذا ننصرف غير مبالين بالألم، وبمجرد أن يُصفى الألم من خلال الإعلام، لا يبقى منه شيئاً إلا صورة على الشاشة أو خبر في جريدة. . نحن لا نعترف بهذا، ونتكلم حول مدى البشاعة التي تبدو عليها الأشياء في العالم، ونعبر عن تعاطفنا بصوت عال، وقد نعطي عملة معدنية أو أثنتين كمساعدة، ونوقع على الإلتماسات؛ وبذلك نكون قد قمنا بما يمكننا. . لكننا نبقى غير مبالين. . نحن نضغط بشكل موجع على قلوبنا، ونصور كيف سيكون حالنا لو أننا كنا هناك مع اللاجئين من كوسوفو، لكن قلوبنا تفتقد للخيال. . فالقلب آلة صغيرة وظيفتها الوحيدة خلق نبض منتظم.

لهذا لا يزال الألم الإنساني شعوراً نادراً. . وتنظم المجتمعات بنفس آلية القلب البشري، فوظيفة المجتمعات خلق إيقاع منتظم. . هذا هو السبب في تحول مسار الألم بدقة وإحكام إلى مجرد تشخيص: اكتئاب، قلق. . حيث تقوم الكلمات بترجمة الألم الإنساني إلى لغة المرض؛ ذلك أن المرض يمكن علاجه، وهناك أطباء لذلك، ومحللين نفسيين، ومعالجين نفسيين، وأدوية، وصناعة "مساعدة الذات".

وتدعم أيديولوجية عالم بلا ألم: صناعة الإعلام؛ مثل التليفزيون الذي نسلي به أنفسنا حتى الموت، وعادات العقل الصحيح في الجسم الصحيح، والمعلمين الروحيين أو المرشدين الذين يعلموننا كيف ننصت إلى "ذاتنا الداخلية"، وكيف نحقق سلاماً مع العالم، وكيف ننسجم في النهاية، ونحتوي السعادة كمصير لنا جميعاً !

في نهاية المطاف، تم تخفيف الألم الروحي في العالم الحديث إلى: مرض، يجب علينا أن نتغلب عليه بقليل من الإرادة الطيبة.. بينما الألم الجسدي يمكن التعامل معه من خلال الموضة (الحلقان التي تستخدم لعقاب الذات، والأشياء الحادة الأخرى، والوشوم)، والفن الاستعراضي، والصور المعروضة على الشاشات.

انتقلت حديثاً إلى عنوان جديد في امستردام، وفي أول صباح ذهبت فيه إلى مقري الجديد قمت بجولة حول الجيران. أتت امرأة ضئيلة الحجم ناحيتي عبر الشارع، ترتدي ملابس بسيطة تستخدم في البيت للخدمة أو النوم. كانت تترنح هنا وهناك في حذاء له كعب عال جداً، يبدو أنه أثقل منها، وكان وجهها يكشر بالألم.. تحدثت وكأنها على وشك الاختناق بالكلمات، وتنهدت، بينما كنت اتجه بعيداً عنها.. في الصباح رأيتها ثانية وكانت تبكي بصوت عال مرة أخرى.

كان من الواضح أن هذه المرأة امرأة مجنونة من الجيران.. لكني

منذ تلك الحادثة الأولى وأنا أفكر فيها . . كنت أفكر أنها ربما نبذت في هذا المكان لتخدم كمحاسبة لألم الألم؛ ربما تسجل كل ليلة – في دفتر غير مرئي – كل الألم الذي حدث في العالم، وفي الصباح تنشر بصوت عال كل ما سجلته في دفترها ! . . ربما كانت امرأة مجنونة لا أكثر، ولهذا استطاعت أن تتولى بنفسها وظيفة لم يكن أحد آخر ليقوم بها !

اتساءل أيضاً كيف تبدو كتابتها أو دفترها هذا، وما الذي كتبته فيه. . . ثم فكرت أنه ربما من الحكمة أن انتقل مرة أخرى إلى مكان آخر من المدينة.

ookandi.com

القلب

هناك نوع معين من طفيل يعيش متطفلاً على الكلاب في أمريكا هو دودة القلب.. يغزو هذا الطفيل قلب الكلب، ثم يتكاثر داخله حتى ينفجر القلب في النهاية مثل قنبلة يدوية.. رأيت نموذجاً للقلب المصاب في حجرة انتظار بعيادة بيطرية للكلاب موضوع في وعاء زجاجي للعرض، وبدا مثل الطماطم المحفوظة مع مكرونة على هيئة الشعر الذي ينبعث منها في كل اتجاه.

في هذه المرحلة الحاسمة ليست قلوب الكلاب فقط التي تتعرض للتهديد!.. ربما كان هناك شيء ما خطأ بشكل أساسي يخص قلب العالم بأسره؛ وإذا أنصت الأطباء لهذا العضو العملاق من يدري ما الذي يمكن أن يكتشفوه؟!.. يبدو لي أن قلب العالم قد تضخم، وأنه متعب ونبضه لم يعد منتظماً، لكنني لست طبيبة، وعلى الخبراء أن يدلوا بدلوهم.

نحن نعيش في الألفية الثالثة، وإذ كان أحد ليسألني ما هي الصورة أو الأيقونة العالمية في هذه اللحظة كنت لأقول دون تردد: القلب!.. إن الهاجس الثقافي في زماننا المتعلق بالقلب يدفعني لأن أحذر: لا بد أن هناك علة ما قد أصابت قلب العالم؛ فالقلب اليوم

لديه عدد متزايد من المثيرات، والداعمين الحماسيين، والواعظين الفصحاء، والأفراد المكرسين لراحته. . وقد نسب القلب نفسه حديثاً إلى ثلاثة أميرات: أولهن كانت الأميرة "ديانا" التي حفزت القلب الإنساني العادي بوصفه شعارها الملكي، وأثارت فيضاً غير مسبوق من دموع البشر العاديين. . وثانيتهن "أوبرا" الجنية الطيبة، بما لها من مشاهدين لبرنامجها التليفزيوني على المستوى العالمي، والتي اتخذت من القلب شعارها، وبدلاً من المحكي غير الفصيح – كسر الساق! كانت أوبرا تنهي فقرتها بالتذكير أو الحث على لوعة (كسر) القلب!. . واختارت "مادونا"، في مرحلة بعينها من تاريخها المهني، القلب كتعبير مميز لإعلامها الجديد.

وفي الأغنية المصورة "المجمد" أو"المثلج" (كتنويعة على "ملكة الثلج" لأندرسون) تحكي مادونا عن إذابة القلب الذي تجمد لشخص ما (أنت مثلج عندما لا يكون قلبك منفتحاً)، (أنت منكسر عندما لا يكون قلبك منفتحاً)، والذي يمكن أن يكون. . ولما لا يكون قلب العالم.

ويربط المؤيدون الآخرون لفلسفة القلب أنفسهم، مثل العلقة أو الطفيل، بالنجوم المتألقة مثل "ديانا"، و"أوبرا"، و"مادونا". . كما يعد "باولو كيهيلو" في ذاته، وهو كاتب برازيلي لديه حوالي مائة مليون من التابعين، مرشداً إعلامياً رحيماً بالقلب الإنساني. . ويعزز في كتبه

والحوارات التي تجرى معه بشكل علني منطق القلب بدلاً من منطق العقل.

ومن الجدير بالذكر أن كلاً من "أوبرا" و"كويهيلو" - خبراء القلب الإنساني- يستخدمون بيسر مصطلحات ورموز الملائكة.. وأسست "أوبرا" شبكة "الملاك" لمساعدة الأطفال الفقراء أصحاب المواهب.. ولعل البحث دون توقف في كتب "كويهيلو" عن الروحاني والروحانيات وهو بمثابة بحث عن الملائكة، تجسيداً لهذه الروحانية.

وقد ربطت أيديولوجيا الإخلاص نفسها بالمجاز المعاصر الأعلى للقلب؛ فالمخ يحتاج إلى الإخلاص كما يحتاج القلب إليه.. نحن إذن نعيش في عصر مصاب بهوس الإخلاص؛ فكل من نشر (السير الذاتية)، وصناعة كراسي الاعتراف التليفيزيونية (من "أوبرا" إلى "سبرنجر") تعيش على حساب الإخلاص.

هذه هي الكيفية التي ارتفع بها الإخلاص إلى قيمة أساسية لزماننا، وهو في طريقه لأن يكون معياراً أخلاقياً، وجمالياً، واجتماعياً.

يبدو أن لديّ مشكلة أنا أيضاً في قلبي.. يقول لي الأطباء أن قلبي متعب، لا يوجد شيء خطير، فالقلب يعمل، لكنهم يقولون أنه مجرد شيء من الكسل أصابه وتوسع قليلاً؛ ومن الواضح أن قلبي

فقد مرونة الشباب.. فقد لاحظت أنني بدأت أبكي هذه الأيام بسهولة أكثر بكثير من ذي قبل؛ حتى أكثر الأفلام بلاهة التي ينتصر فيها العدل أو الخير في النهاية تدفعني للبكاء.

الحقيقة أنني أشاهد الأفلام القديمة فقط، لأن العدل أو الخير ينتصر فيها في النهاية!

ويبدو أن هذا هو مصدر المشكلة – انقلاب المفاهيم دون إدراك بأن فكرة العدل أو الخير على النمط القديم قد تلاشت من الثقافة، ومن الحياة اليومية؛ لكن الوعي بأن هناك شيءٍ رئيسي ما مفقود جعل الناس يستبدلون المفهوم الأكثر دقة وتعقيداً للعدل بمفهوم أسهل، وأكثر نعومة، وأكثر مرونة من القلب.. إنه نوع من تبادل الأوعية غير المدرك حسياً؛ أو هو صفقة متسللة تم إبرامها مع المفاهيم منحت الميلاد لإخوة بين الملائكة على اتساع العالم، في مسلسل تليفزيوني عالمي له منتجيه، وممثليه، ومشاهديه.

أثناء هذه العملية لم يعد واضحاً (وفي ذات الوقت توقف الأمر عن أن يشغل بال أي أحد) ما هي الحياة الحقيقة ؟ وما هي الحياة المزيفة ؟!

إجمالاً تُذرف الدموع، والعالم نظيف ومغمور برغاوي الصابون، وهو بالطبع مثالي كما كان دائماً !

الهوية

في السنوات القليلة الماضية، كلما سمعت كلمة "هوية" اجتاحني شعور قوي مثير للحساسية. . صرت أسمع الكلمة في كل مكان، طوال الوقت هذه الأيام. . ليست حياتي سهلة، فليس من السهل أن تعيش مصاباً بطاعون الحساسية؛ خصوصاً حساسية مثل هذه. . الآخرون يمكنهم التحكم في الحساسيات التي تصيبهم، فإذا كانت لديهم حساسية من اللبن مثلاً فهم لا يشربونه، وإذا كانت لديهم حساسية من حبوب اللقاح فهم ينتظرون انتهاء فصل التلقيح.

يبدو لي الأمر كما لو كنت حساسة للنحل بينما أعيش في خلية نحل بحجم كوكب الأرض. . ليست لدي أدنى فكرة عن كيفية اصابتي بهذه الحساسية؛ لا بد أنني تعرضت على مدى طويل لجرعات مكثفة من الهوية. . لقد اقتحموا سمعي بهذه الكلمة في بلدي الأصلي؛ وقد هزموا طبلة أذني إلى درجة الإعياء وهزموني بتلك الكلمة، كما لو كانت مادة لاصقة ومعيقة، ولاعجب إن تولد لديّ شعور بالكره الشديد للكلمة.

أبناء بلدي الأصلي يولولون ويندبون، وهم يشتكون دائماً ويلتمسون العون. .هم يدافعون عنى هويتهم الشخصية والجماعية

على حد سواء، ويعلنون بصوت عال كالنبح، ويزمجرون ويجزون على أسنانهم وحشواتها المعدنية، ويمدون أعناقهم مثل طوق الكلاب عند الحديث عن هويتهم، ولم أتمكن من عمل أي شيء سوى الاستماع إليهم .

اعتقدت في البداية أن عليّ تركهم – أوه دعهم يفعلوا- لا بد أن الناس يحتاجون إلى هويتهم الوطنية، والعرقية، وهوية دولتهم. . دعهم يحصلون عليها، فما الضرر من ذلك ؟ وصرت في طريقي لأكون صادقة سياسياً، واحترام توقهم إلى هوية.

أنا نفسي لم أملك هوية، ولم افتقد غيابها في ذات الوقت. لكنهم فيما بعد هاجموا بعضهم البعض بعنف مثل كلاب مسعورة، مرة أخرى باسم الدفاع عن هويتهم، وهاجموني، وحدثوني بغضب، بينما نحن في وسط هذا السعار المجنون:

- كيف يمكنك العيش بلا هوية؟

وكنت أجيبهم بأدب:

- شكراً أنا لا أريد أية هوية، يمكنكم المضي في طريقكم بدوني، فلديّ حساسية تجاه الكلمة كما تعلمون!

ولم يأت ذلك بأي نتيجة! . . انقلبوا عليّ، وأرادوا أن يطعنوني في رقبتي مثل طوق الكلاب الذي يرتدونه، لكن بطريقة ما والفضل لله استطعت التملص منهم، على الأقل هذا ما اعتقدته.

انتهى بي الأمر أنني إذ أردت التملص منهم علي أن أبرز طوق الكلاب الخاص بي: جواز سفري؛ فبدونه لا يمكنني أن أحركهم قيد أنملة.

في أي وقت تعبر فيه الحدود يسألونك أن تبرز جواز سفرك، وكل نموذج أملأه يتطلب أن أحدد فيه "الهوية" . . وبحكم مهنة أني كاتبة، وبالطبع لا يوجد أحد كامل. . لذلك كل امرئ عليه أن يقيم أوده وأن يملك خبزه، وتبين لي أن الأشياء التي أكتبها كنتيجة، لم تكن مكتوبة بواسطة مجرد كاتبة عجوز، لكن بواسطة كاتبة كرواتية، آه، كاتبة ذات هوية!

قمت بتغيير محل إقامتي، وساعد هذا إلى حد ما؛ فما زلت استنشق الهوية مثل حبوب اللقاح، وتتردد الكلمة من حولي وتحاصرني مثل شرك، وأعطس باستمرار؛ وتسيل دموع الحساسية من عيوني.

على سبيل المثال، شاهدت حديثاً عرضاً تليفزيونياً أمريكياً؛ حيث تقرر امرأة شابة افتتاح صالون حلاقة للرجال، على أن تقص لهم شعرهم وهم عرايا!

وفكرت، لماذا لا تكون المرأة عارية بينما تقص للرجال شعورهم؟! وما العيب في ذلك؟! وكنت مستعدة لأن أقدم لها دعمي الصامت، حتى قامت هي ووقفت أمام الكاميرا، وانفجرت

فجأة بالقول:

- هذه هي الهوية التي كنت أتطلع إليها، وقد وجدتها الآن!

أحياناً ما أفكر أن هذا كله كان خطأ "مادونا"، بعد أن نشرت فكرها الإيقاعي "عبر عن نفسك، لا تكبت نفسك!.. وقد اندفع العالم بأسره للتعبير عن هويته المكبوتة.. نعم، فالكلمة شرك مقدس.

ولم يمر يوم بعدها لم أسمع فيه عبارة: "هذه هويتي!" ولسان حالي يكاد ينطق بالسؤال: أوكي، أليس لديك شيء آخر في جعبتك؟.. أفكر، لكني لا أقول شيئاً، واستمر في احترام هويات الآخرين. فما الذي يمكنني عمله؟ أنا مؤدبة، لكني أحياناً أشفق عليهم.. وأحياناً يتبين أن أولئك الذين يشيرون إلى صدورهم بهوياتهم، هم الذين لا يملكون في الواقع شيئاً آخر.

شعرت بشيء من التحسن عندما مرت أمام عيني جملة "تعالى، دعني أقدمك لأمي، التي اعتادت أن تحل محل أبي!" وذلك في أكثر الكتب اليابانية مبيعاً.. راقت لي الجملة كثيرا.. وفي إعلان تليفزيوني أمريكي تعلن الجميلة "ليندا ايفانجيلستا": - ليس لدي هوية!

ويتبين أن "الهوية" ما هي إلا نوع من كروت الائتمان، ويروق ذلك لي أيضاً.. لأول مرة، ربما يتمسك الناس بهويتهم هذه، بحماس

شديد، تحديداً لأنهم يعلمون أن الهويات يمكن تغييرها . . هذا هو السبب في ضرورة تداول ونشر عالم جديد من الاستقامة والكمال؛ لأنه حتى الناس الذين لا هوية لديهم مثلي، على سبيل المثال يمكنهم أن يكونوا ذوي (استقامة) .

الهويات يمكن تبادلها مثل جوازات السفر؛ لكن الاستقامة لا يمكن تبادلها . والآن، ألست على حق أيها الطبيب؛ قلها بنفسك !

obeikandl.com

obeikandi.com

بافليك موروزوف
Pavlik Morozov

الآن يحتل الأطفال والمراهقون العالم. . ليس حقيقياً أن العالم يتقدم في السن، بل إن العالم يصبح أصغر كل يوم!

اعتاد الأطفال أن يقلدوا عالم الكبار، وهم يتعجلون النمو في أقرب وقت ممكن. . صار الأطفال الآن يرفضون النمو أو التقدم في السن! ويحاول الكبار أن يظلوا شباباً لأطول فترة ممكنة. .

بدأت حديثاً أبدي اهتماماً خاصاً أثناء سيري في شوارع المدينة، وأركب الترام بحذر مثل أحد المحكومين عليهم؛ لأن هناك تهديد بأن يضربني أحدهم من الخلف، أو في ضلوعي، أو على رأسي في أي لحظة. . يضع أولئك الذين يستحقون لدي كل هذا الحذر، حقائباً على ظهورهم؛ وصارت حقائبهم مرتبطة بهم مثل سنام الجمل، ويجرون برشاقة وقوة في المنطقة التي تحيط بهم بهذا السنام؛ صرة على الظهر وزجاجة مياه هما العلامة المسجلة لتلك العينة الجديدة من البشر، لقد تبنى المراهقون هذه الموضة ليرسموا خطا فاصلاً بينهم وبين عالم الكبار؛ لكن الكبار بدأوا ينضمون إليهم، وشيئاً فشيئاً صرت أمضي في طريقي لأصبح امرأة بالغة لا يمكن أن أفصلها عن زجاجة مياهها الصغيرة، وبتعبير شبه إباحي –

وإن كان تأملياً أيضاً- تأخذ منها جرعات كبيرة، وهي تحمل معنى أن مالكي هذه الصرر على ظهور وزجاجات المياه الصغيرة لا يتواصلون مع الآخرين، ويبدو أن كل واحد منهم يمشي وحده عبر العالم!

- أنا مجرد طفل!

جملة صرت أسمعها كثيراً . . "أنا مجرد طفل،"، معادلة سحرية تمحو كل المسئولية عن الشخص الذي يتلفظ بها بقوة.

اغتصبت جماعة من المراهقين في مدينة أمريكية اسمها "جلين ريدج"- عام ١٩٨٩ فتاة معاقة ذهنياً في السابعة عشرة من عمرها، باستخدام مضرب البيسبول! وفعلت المدينة كل ما في وسعها لإخفاء الجريمة، لأن أولئك الذين اقترفوها كانوا (صبياننا الطيبين)، أطفالنا !

وحديثاً تم تحذير أمريكا من خلال قضية قتل فيها الأبوين الشابين طفلهما حديث الولادة ووضعوه في شنطة بلا ستيك، وألقوا به في القمامة. . "كانوا مجرد أطفال!"، بهذه العبارة حاول الكثيرون تبرير مثل تلك الحالات؛ فالقتلة كانا في حوالي التاسعة عشرة من عمرهما .

كانت "بولا جونز" امرأة عابرة ملأ اسمها الإعلام العالمي بفضل تفصيلة صغيرة؛ فقد سقط أمامها منذ بضع سنوات مضت سروال الحاكم والرئيس المحتمل للبلاد، وهو ما أهانها وسبب لها صدمة

مدى الحياة. . وقالت "بولا" مدافعة عن براءتها وسذاجتها، بصوت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها:

- إنني مجرد فتاة ريفية.

بمعنى آخر "أنا مجرد طفلة!"

وقد تحور نموذج الأب المستبد، وكذلك مؤسسة التحليل النفسي التي روجته على مدى عقود تدريجياً وبشكل مرضي إلى نموذج الأب المحب للطفولة!

وبلغت الفكرة الجمعية المتسلطة، والمرتبطة بذلك النموذج الصادم والمتكيف ثقافياً، ذروة تأييدها هذه الأيام.

وتعد الرموز الاجتماعية العامة في صناعة التسلية الأمريكية التي لم تعترف علانية بأنها تعرضت للتحرش الجنسي من آبائها في طفولتها، رموزاً قليلة.

فقد اعترف مئات الآلاف من الناس المجهولين إلى محلليهم النفسيين، فيما بعد، بصدمتهم الجنسية من تحرش الآباء بهم.

ويبدو أن "بافليك موروزوف"، الصبي الشهير الذي اتهم أباه لدى البوليس السري أيام ستالين، قد عاد من القبر ووصل إلى أمريكا. . فاليوم، يحتل الأطفال والمراهقون العالم. . وأنا أقوم بكل ما يمكنني للتكيف مع هذه الحقيقة، فقد اشتريت صرتي لأضعها على ظهري، كما اشتريت زجاجة مياهي الصغيرة!

نحن نتحرك بخفة عبر العالم، بوجوه شاحبة لا تعطي أي علامة على السن، أو التفكير، أو المشاعر، او خبرة الحياة؛ كلنا نرضع باجتهاد من زجاجات المياه الصغيرة.

نحن نأخذ جرعات من المياه، ونتغذى على بديل الحلمة الحقيقية المفقودة؛ بديل عن البديل!

obeikandl.com

السعادة

بمجرد أن وصلت نيويورك التقيت بشاب أمريكي، كما تبين فيما بعد، وهو كرواتي من الجيل الثاني من المهاجرين، وأخبرني أن أبويه انتقلا إلى الولايات المتحدة في أوائل الستينات بحثاً عن السعادة.

سألته: – كيف يصور أبويك سعادتهم؟

أجاب: – مثلما في أفلام "دوريس داي" . .

يعيش أبواه اليوم في نيوجيرسي، وتصبغ أمه شعرها مرة كل شهر بمادة البيروكسايد، وترتدي تلك الأطقم قديمة الطراز على نمط ملابس دوريس داي.

وكما قال أحد نقاشين المنازل – الذي تولى دهان حجرتي في زغرب بعدها بعدة شهور– معلقاً على موضة شبشبي: – تلك الشباشب ذات الكعب العالي مثل المدفع الرشاش!

وتبين أنه (يا لها من مصادفة!) أخو الأم التي أحبت دوريس داي لدرجة العبادة، وكان قد قضى هو أيضاً بعض الوقت في أمريكا . . سألته: – ثم ماذا؟

فقال: – لا شيء!

قضى الرجل خمسة أعوام في دهان جسر بروكلين، وعندما أنهى

عمله عاد إلى كرواتيا؛ فلم تعجبه أمريكا . . لقد صدمته أمريكا إلى حد بعيد . . هذا ما قاله الرجل الذي قام بدهان جسر بروكلين السابق.

أنا لست مؤرخة للأفكار، لذا لا يمكنني فعلياً القول ماذا كان مقياس السعادة الشخصية في الأزمنة الأخرى. . الفكرة لها تاريخ طويل: كانت فلسفة السعادة الشغل الشاغل لليونانيين – أرسطو فسر السعادة بأنها التي تحقق إمكانيات الإنسان الكامنة.

ويظهر "السعي وراء السعادة" جلياً في إعلان أمريكا للاستقلال، قبل أن يصبح حق الشعب الأمريكي في الاستقلال شرعياً في السعي للسعادة، وبينما كان الناس عالقين على مدى قرون في مواجهة واجباتهم نحو الله والناس، كان سؤال السعادة متروكاً للصفوة: أمثال الآلهة، والفلاسفة، والشعراء، والسادة، والملوك.

بدأت السعادة، كما يبدو، تتفوق على أحلام الجموع في اللحظة التي مات فيها الإله، عندما أعلن فريدريك نيتشة الموت الإكلينيكي للإله، والسوق – الذي كان وقتها في بدايته– أدرك نيتشة أن هناك ما يمكن أن يجنيه من أموال مقابل إنتاج بديل للإله.

هذا هو السبب في أن القرن الأخير، قرن السوق العالمي، والمعلومات، والإعلام الجمعي، وحقوق الإنسان، والانتقال السهل الرخيص بين البلدان، وسياحة الأجازات، والحريات الجنسية

وغيرها من الحريات وصناعة الأفلام والتليفزيون والترفيه- استطاع انتاج سعادة الإنسان على نطاق واسع !

وفي ذات الوقت كانت هناك خلال القرن الماضي حربين عالميتين؛ وحروب إبادة جماعية؛ واكتشاف لفعالية القنلبة الذرية.

إن محور مفهوم السعادة الأنسانية ينتمي إلى أولئك الذين لديهم أقوى وسائط الإعلام تأثيراً وأقوى الأسواق.. والسعادة بهذا المعنى منتج أمريكي خالص.

لا يوجد بلد آخر لديه مثل هذا الترديد والتكرار لكلمة "سعادة" في خطاب الحياة اليومية، كما في الولايات المتحدة الأمريكية.. ولا توجد كلمة، في العديد من اللغات، تغطي هذا المفهوم الواسع للسعادة كما في اللغة الإنجليزية.. نعم تعدّ السعادة، في هذا القرن، منتج أمريكي بكل تأكيد.

في البلد الذي لا يسمح لك فيه الناس حتى بالشعور بالحزن لموتك أنت (موضة حديثة تتمثل في العلاج بالضحك، وهي تستخدم مع المرضى على فراش الموت)، والذي يعلن فيه عن تأمين الدفن، بنفس القدر من البهجة والتألق بالفتنة الذي يبدو في الإعلان عن كوكاكولا، كما أن هناك فيه حركة مقاومة لهذا الاتجاه؛ وإن كانت عددياً لا قيمة لها، لكنها موجودة.

في فيلم للمخرج "تود سولوندز" بعنوان "السعادة"، يبدو بورتريه

أسود قاتم وعنيف إلى حد الصدمة لجهود الإنسانية في بحثها عن السعادة الشخصية، حيث ينهي أفراد عائلة "جوردون" من نيوجيرسي، الذين يمارسون الجوهر الرهيب لسعادتهم الشخصية، مشاهد الفيلم وهم يرفعون كئوسهم ويشربون بعناد أنخابهم من أجل السعادة!

منذ أربعين عاماً مضت كانت صورة السعادة العائلية، والمطابخ الجديدة، والثلاجات، والسيارات، والمنازل، والمروج المشذبة العشب بدقة تكفي لجلب امرأة من زغرب إلى نيوجيرسي . . واليوم تبدو سنوات الخمسينات مثل يوتوبيا مفقودة لا سبيل لاستعادتها . . وتبدو الستينات الثورية في صورة أطفال مثل الزهور يبحثون عن سعادة ريفية أو رعوية ساذجة مهجورة وخارج حدود التاريخ.

نحن نرى سعادة الوصول لذروة النشوة، في النهاية، سعادة بلا قيود ومشوبة بمسحة من الضجر . . وترتبط السبعينات في اكتشافي الأراضي الغرائبية في الصفقات السياحية، الأرخص والأيسر، بالخوف من مخاطر أشعة الشمس، وقنابل الإرهابيين؛ ويفضل السائحون بدلاً من ذلك البقاء في بلادهم.

لقد سقط الجدار، وتحررت الشعوب الشيوعية في التسعينات، لكن ذلك كما يبدو لم يجلب معه السعادة المتوقعة للتعساء على ذلك الجانب الآخر من الجدار، أو للسعداء على هذا الجانب!

وفي مناخ كهذا يبقى الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أقدمه، من ذخيرتي من الأغاني؛ أغنية روسية تقول: "الناس السعداء لا ينظرون إلى ساعاتهم." . . وبالتأكيد هذا ينطبق بوجه خاص على أولئك الذين يرتدون ساعات "رولكس" !

obeikandl.com

obeikandi.com

المشاهير

انتعشت ظاهرة الشهرة جنباً إلى جنب مع انتعاش الإعلام، كنسل طبيعي له! . . كان المألوف أن يصبح الناس مشهورين بما أنجزوه، وأحياناً كانت هناك سير ذاتية صارت إنجازاً في حد ذاتها، لكن الشخص الموصوف في مثل هذه السير الذاتية كان عليه أن يعمل من أجل شهرته.

استحق الأبطال، والفنانون، والمستكشفون، والأطباء، والمخترعون، والممثلون، والمحظيات، والجواسيس، والدوقيون، والقتلة، والقديسون؛ كل هؤلاء استحقوا مجدهم الشخصي عن جدارة، مظلماً كان أم مضيئاً، وذلك بالعمل الجاد الذي قاموا به على امتداد تاريخهم.

يعد المشاهير نجوم يشمون إلى مدارات متباينة تماماً، وقانون قيم آخر.

- أنا لست ممثلة. لا يمكنني الرقص أو الغناء وأنا لست نجمة لامعة، إنما أنا ملكية شخصية لذاتي. ربما أكون "أبيع نفسي،" .

هذا ما أعلنته "إيفانا ترامب" وهي تناضل من أجل لحظة تحظى

فيها بتعريفها لذاتها أمام العالم. . الشهير بهذا المعنى عبارة عن شاشة خالية، تعطي فكرتها الصحيحة، وتسقط معناها على باقي أفراد العالم.

وتعد الشهرة نسيج أو متن ثقافي، شيء من نتاج اصطناعي للثقافة الجماعية من صنع الإنسان.

كانت "مونيكا لوينسكي" فتاة أمريكية عادية، لا تتمتع بذكاء خاص أو غباء خاص، مؤهلة كانت أم غير مؤهلة، لاهي جميلة ولا هي قبيحة. . لم تفعل "لوينسكي" شيئاً لافتاً (كانت مغامرتها الجنسية توصف بافتقادها لحس المغامرة)، فيما عدا أن "اللاشيء" الذي فعلته كان مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية!

صارت لوينسكي نتاجاً للثقافة والإعلام، ويعود الفضل في ذلك تحديداً لغياب أي أهمية خاصة لها في ذاتها، ما جعلها شاشة مثالية يمكن اسقاط المعنى الصحيح عليها. . وحرض مجرد ذكر اسمها على ارتفاع نسبة الأدرينالين لدى الأمريكيين وغيرهم في بقية أنحاء العالم.

أتاحت ظروف لوينسكي باعثاً على إثارة الجدل حول مدى واسع من الأفكار الرئيسية؛ وغذى اسمها صناعة بأكملها: من كتب أغرقت السوق، وشرائط فيديو، ومحاكاة إباحية ساخرة، ونكات على شبكة الانترنت، وعروض تليفزيونية، وأغلفة صحف، ومقالات

افتتاحية، وهدايا وتذكارات. . وبيعت من قبعة البيسبول، التي ارتدتها لوينسكي ذات يوم معلنة عن محطة إذاعة محلية صغيرة، ملايين جلبت لمحطة الإذاعة أرباحاً خيالية سريعة.

الشهرة ليست قيمة في ذاتها ومن ذاتها، بل أنها هي التي تولد القيمة؛ فقد استحثت صورة لوينسكي حكام النموذج المقولب والموضة على إعادة التفكير حول معايير الجمال الأنثوي ليشمل "المرأة الممتلئة على نحو مبهج". . كما أعطى إعلانها بأنها ستذهب لاستشارة أحد المعالجين النفسيين مصداقية لخدمات العلاج النفسي، التي كانت لولا ذلك في طريقها للتجاهل والإهمال. . ولطالما كان المرشدون الروحيون للثقافة الشعبية متعطشين لوجود مادة ثقافية يعملون عليها، وقد قاموا بالتعبير عن فنونهم في التحليل والتفسير في حالة مونيكا لوينسكي باقتدار.

وقد رسم "كومار" و"ميلاميد"- مؤلفا الرسوم الخيالية للتحليل النفسي- رسوماً حول الفكرة الرئيسية للحكم الشمولي والجنس، في صورة فتاة رائدة هي "لوليتا" السوفييتية، وبدت في الرسم بركبتيها متباعدتين على نحو غامض مع بورتريه لـ"ستالين" في الخلفية!

كانت مونيكا بمثابة "لوليتا الأمريكية". . فتاة من الكشافة تقع في هوى رئيسها.

وحصد المحللون النفسيون في علم النفس السياسي أرباحهم من

قضية مونيكا، ونال نقاد النسوية نصيبهم من الكعكة، بينما نال أولئك الذين يفضلون الثقافة الشعبية، الذين يرون في أشكالها نوعاً من المقاومة لسلطة الصفوة، نصيبهم أيضاً . . وبالنسبة لـ "عيون مونيكا، فهي ليست نوافذ بل مرايا، وما نراه فيها بشع،" كما علق "دافيد ريمنيك" من جريدة النيويوركر.

تعد ظاهرة المشاهير نوعاً من المبالغة لمعنى الأغنية الروسية القديمة عن "إيفان" الأحمق.

إيفان الأحمق هو صبي له عقل متواضع يفوز بالسعادة والثروة دون أن يفعل أي شيء سوى السحر والاستعانة بالمساعدين. . وهكذا، يجب على الآباء أن يقولوا لأبناءهم عندما يسألوهم عن ما الذي يجب عمله حتى يصبحوا من المشاهير: - لا شيء !

يجب أن لا ننسى في هذا السياق أن العديد من الأرواح تعسة الحظ قد خدعها بريق الشهرة. . ويعلق سفاح متمرس(ارتكب سلسلة من جرائم القتل) بمرارة:

- كم من المرات علي أن أقتل قبل أن يظهر اسمي في الصحف؟ !

انهضوا، أيها السلافيون !

ذات يوم كنت أهم بركوب أتوبيس رقم ١٥ في امستردام، وفتحت حقيبتي عن آخرها أفتش لدقائق في محفظتي حتى جلبت الأجرة للسائق أخيراً، وتمتمت بلغتي الهولندية الركيكة: – محطتين من فضلك.

سألني السائق، بلغة مقدونية وبمظهر العارف: – هل أنت واحدة منا ؟

قلت له: – نعم.

فسألني وهو يعيد إليّ الأجرة بإصرار:

- من أين؟

قلت: – من زغرب.

كان السائق مقدونياً، عاش في هولندا على مدى عشرين عاماً، وتزوج من امرأة هولندية ولديهما ثلاثة أبناء. وعندما أوشك على بلوغ محطتي نادى عليّ السائق قائلاً:

– طالما كنت على هذا الطريق فسوف تحصلين على توصيلة مجانية، أوكي!"

– بالتأكيد !

وفى أحد فنادق مدينة بوسطن. . كانت غرفتي لغير المدخنين -كما في كل أمريكا- ثم جاءت العاملة المسئولة عن خدمة الغرف وقالت: - صباح الخير.

واعتذرت عن إزعاجي. . وحكت لهجتها في أذني، فدرت بعين أبحث عن البادج الذي يحمل اسمها على الرداء: "فيريدا".

سألتها: - هل أنت واحدة منا ؟

قالت: - أنا من ترافنيك، ماذا عنك؟

- أنا من زغرب.

كانت "فيريدا" تعيش في الولايات المتحدة منذ سنوات؛ وقد وصلت مع بدء الحرب في البوسنة، هي وزوجها وابنيهما، وقد أحبوا الحياة في أمريكا، واشتروا شقة حديثاً. . قالت لي:

- لا لن نعود إلى البوسنة، لا يمكن. .

كان في الفندق آخرين من هناك؛ وكان رجل الاستقبال من "زادار"، بينما تعمل امرأة في إدارة الفندق من "كارلوفاك"، وأحد العاملين في المطبخ من "بوزاريفاك". . كان الفندق بمثابة يوجوسلافيا صغيرة متكاملة، وسألتها: - هل التدخين ممنوع فعلاً في الغرف؟

نظرت إلي نظرة العارف، وابتسمت ابتسامة عريضة، وذهبت في اتجاه النوافذ وعلمتني كيف أفتح فيها شقاً، ثم قالت:

- لا تقلقي لأي شيء ! طالما أنا المسئولة عن الدور الثاني

عشر لديك مطلق الحرية في أن تدخني هنا . .

ثم خرجت للحظة وعادت بعلبة سبراي في يدها وقالت:

- أنظري، هناك هؤلاء العرب الذين يرسلون أبناءهم للدراسة في هارفارد، ويقيمون هنا عندما يأتون لزيارة أبناءهم، من الذي سمع عن عرب بدون تدخين؟! وكيف يمكن للأمريكيين أن يتجرأوا على منع العرب الأثرياء من التدخين؟!.. فقط، عليك عندما تنتهين من تدخين سيجارتك أن ترشي الغرفة بهذا الاسبراي.

وبينما كنت في ألمانيا في زيارة طويلة توقفت في موتيل ما بالقرب من فرانكفورت.. وذهبت للحمام، ووضعت خمسين سنتاً في السلة الصغيرة الموضوعة في مدخل حمام السيدات، وقال الصبي الجالس على الطاولة الموضوع عليها السلة، شكراً بالبولندية.

- هل أنت بولندي؟

فقال: -لا أنا روسي.

فسألته بالروسية: - هل اعتقدت أنني بولندية.

- نعم، فمن أين أنت إذن؟

- من يوجوسلافيا.. السابقة.

وسألني كما لو كان لم يقابل حتى هذه اللحظة أي أحد يتكلم الروسية أبداً: - كيف لك أن تعرفي اللغة الروسية؟

فقلت له: - إنها قصة طويلة.

وقال معيدًا إليّ مالي الذي ألقيته في السلة، ومبتسماً ابتسامة عريضة: – لا تدفعي.

- أوه ؟، لا، لا يجب عليك ذلك. .

وأعدت العملة إلى السلة مرة أخرى. . كنت مرتبكة وأفكر أنه يجب عليّ بالفعل أن أترك له ٢ أو ٣ يورو.

وقال الشاب الصغير، بالإنجليزية هذه المرة، بطريقة سمجة، كما لو كان في اللغة الإنجليزية فقط توجد فرصة "للحظ":

– حظاً طيباً.

لا أدري السبب بالضبط؛ لكن في كل مرة يحدث فيها حادثة كهذه – كان هناك العديد منها – أشعر أنني مثل بطلة في حكاية من حكايات الجن؛ فدائماً هناك في حكايات الجن شخصيات رمزية تقدم يد المساعدة. . هكذا، استضافني السائق المقدوني على توصيلة مجانية على أتوبيس ١٥، ومنحتني المرأة البوسنية حق التدخين، وأعطاني الصبي الروسي حق الاستخدام المجاني لحمام السيدات.

فجأة تبين لي الأمر: هناك، في نهاية المطاف، نوع من الأخوة العالمية! هذا ما نحن عليه بالفعل، نحن طبقة البروليتاريا؛ نتعرف على بعضنا البعض في لحظة، ونختبر بعضنا بالكلمات، ونقدم لبعضنا البعض خدمات صغيرة مثل الأطفال، ونخلص بعضنا البعض من

عبء ثقيل غير مرئي.

أنا من جانبي سأرد ديني.. فالمال الذي أجنيه من كتابة هذه السطور، سوف ينتهي به الحال في يد امرأة بلغارية مسئولة عن دورات المياه في مكان ما، أو منظف نوافذ روماني يعمل من أجل قوته، أو موسيقي روسي يعزف في الشوارع بينما يحمل درجة جامعية من أكاديمية الموسيقى في روسيا، أو امرأة من مولدوفيا تطلب مني سيجارة في الشارع.

لذلك، انهضوا، أيها السلافيين، فلا يزال لدينا أمل بعد!

obeikandi.com

الجمال قتل الطبيعة الحيوانية

"لابد أن أكره رؤية بلدي. . مهددة بملابسي الداخلية.":

"نينوتشكا".[1]

في هذه الأزمنة المملة المضجرة – ما بعد الأزمنة اليوتوبية– يبدو كما لو كان الجسد البشري هو المكان الوحيد المتبقي الذي تزدهر فيه اليوتوبيا .

انهارت كل الأفكار اليوتوبية الكبرى: والأفكار الصغرى الثانوية هي التي عاشت؛ لكنها تعاني من ظاهرة الإجهاد المزمن.

بورصة الأفكار تنهار بينما بورصة الأوراق المالية متطايرة ومتقلبة، ويقولون أن حضارتنا المؤسسة على البترول تعاني آلام الاحتضار، ولم تعد المعاشات تؤمن المستقبل، ولم يعد المستقبل يؤمن معاشاً، وقوانين العمل والعلاقات الأخرى في المجتمع تتحور وتتغير دقيقة بدقيقة، وكلها تؤدي إلى الإضرار بحقوق العمال.

---

[1] نينوتشكا، الفيلم الشهير ل"أرنست لوبيتش" عبارة عن قصة فتاة شيوعية انهارت في مواجهة مسألة الملابس الداخلية والقبعات الأنيقة. أنتج الفيلم عام ١٩٣٩، وزادت قصته عن سقوط الشيوعية قوة فيما بعد في مناسبات عديدة حتى انهارت الشيوعية بالفعل. وقبل الانتخابات الإيطالية عام ١٩٤٧ و١٩٤٩ كان الأمريكيون قلقين للغاية من احتمال فوز الشيوعيين فقاموا بانتاج نسخة خاصة من الفيلم عرضت في إيطاليا؛ ورغم أن الشيوعيين فعلوا كل ما في وسعهم لمنع عرض الفيلم استطاع بعض من ٥ ملايين إيطالي مشاهدته. وعلق أحد العاملين مع الحملة المؤيدة للحزب الشيوعي: "ما هزمنا كان فيلم نينوتشكا !"

يبدو الأمر أحياناً كما لو كانت الحضارة الغربية تعود إلى قانون الغابة الوحشي، والشيء الوحيد الذي لازلنا نملكه كحصن أو معقل لنا هو جسدنا .

الجسد هو مملكة المرء، وهو حريتنا التي نملكها، وهو تحت سيطرتنا ورهن بتعاملنا معه، على نحو لائق أو غير لائق، ورهن مضاربتنا عليه؛ وهو مصدر متعتنا ومستقبلنا .

لقد نجحت أيديولوجيا الاستهلاك في عصرنا في إقناعنا بذلك، مستحثة ثقتنا بأنفسنا .

ما الهدف إذن من هذا الجسد البشري "المتحرر"؟

بعيداً عن أنه يخدم كمصدر للمتعة عندما يتزاوج مع أجساد أخرى (أو مع نفسه)، يخدم الجسد البشري كبنك أعضاء . . حيث لا توجد – حتى الآن– مستنسخات بشرية تخدم كبنك حي للأعضاء، لكن تعويض ذلك يأتي من سوق ديناميكية للغاية.

جسد ما يبيع أعضاءه إلى أجساد أخرى؛ كُلى، أكباد، قلوب، وعيون تسافر عبر العالم؛ ويأتي الاحتياج لهذه الأعضاء بين الأغنياء، بينما يأتي الإمداد بالأعضاء من الأجزاء الفقيرة من العالم . . وتقوم بعض الأجساد البشرية بوظيفة إنتاج أجيال من أجساد بشرية أخرى، فهناك متبرعون بالحيوانات المنوية، ومانحات بويضات الأنثى، وحاملات البويضات الملقحة في أرحامهن؛ كل هذا معروض للبيع.

بعض الحاملات لبويضات ملقحة لحساب غيرهن يتقاضين أموالاً جيدة، ويقمن برحلة وظيفة الحمل خلال الشهور التسع عدة مرات على مدار عمرهن.

هناك أجساد بشرية تعمل في وظيفة سعاة مدفوعي الأجر لتوصيل أدوية مخدرة عبر الحدود.. والأجساد الرجالية تحمل المخدرات في أمعائهم والمستقيم (الجزء الأخير من الأمعاء الغليظة)، بينما تزرع الأجساد النسائية المخدرات في صدورهن، وهناك أنسجة حية تزرع جراحياً في الثدي معبأة بالمخدرات !

وهناك أجساد لأطفال إناث تقوم بوظيفة أجساد ذكرية بالغة من أجل الالتئام، أو هكذا يعتقد أولئك الباحثون عن هذا النوع من الخدمات!.. وهناك، في بومباي وفي بيوت الدعارة الأخرى- العديد من الأطفال من سن ٥-١٠ سنوات ذوي الأعضاء الجنسية غير مكتملة النمو يخدمون الرجال البالغين - الذين أصيبوا بمرض الأيدز- من أجل الوصول لتطهر غامض! وتموت أجساد الأطفال من الأناث اللائي يصبن بالأيدز على الفور، بأسرع كثيراً من موت أجساد الذكور.

بينما هناك أجساد عقول أصحابها المجنونة مقتنعة بأنه لابد أن يكون هناك القليل منها: هؤلاء أناس يعانون من نوع غريب من الجنون يتعلق ببتر الذات؛ ولديهم فكرة مسيطرة أنهم لابد أن يخلصوا أنفسهم

من ذراع أو ساق حتى يكونوا سعداء.

وحيث أنه لا توجد خدمات شرعية تقدم هذه الخدمة يجب أن يبحث هؤلاء التعساء عن المساعدة على نحو غير شرعي - عادة من الجزارين المحترفين- . . وهم يقولون أنهم بمجرد أن يحصلوا على الساق أو الذراع المستهدفة مبتورة يشعرون براحة هائلة!

وهناك أجساد، طبقاً لأفكار أخرى، ضئيلة جداً . . وهناك قلة من المرضى وصفت حديثاً من الرجال المعروفين باسم "المغذيين": الذين يجدون الرضا والإشباع من التغذية الإجبارية للنساء الممتلئات؛ وعادة ما يتزوج هؤلاء المغذيون من نساء يمثلن رغباتهم السوداء، ويقومون بإطعام زوجاتهم العزيزات، اللائي يزن أكثر من ثلاثمائة كيلو جرام حتى يمتن !

كما يقوم الجسد البشري بوظيفة العقاب الذاتي، الذي يجلب معه إشباعاً جمالياً.

يحصل الناس اليوم على وشوم وحلقان في أجزاء مختلفة من أجسادهم، ويزرعون أنسجة تحت جلودهم - في أغلب الأحوال على الرأس- ويكتبون رسائل ويرسمون صورا على جلودهم، ويوشمون أجسادهم كما لو كانت أعمالاً فنية.

في الحقيقة يمكن للجسد أن يصبح مصدراً لمتعة فيزيقية دائمة إذا ما زرعت كرات، وحلقان، وإبر، وأنسجة حية في الأماكن

المناسبة!.. ويقوم الجسد بوظيفة النحت الذاتي (الذي تساهم فيه الرياضات البدنية، من بناء للجسد وغيرها من الرياضات)، حيث يمكننا جعل الجسد أنحف (برامج التخسيس) أو أكبر، وأن نشكله بوسائل اصطناعية (شفط الدهون، وتدبيس المعدة، وزرع أنسجة من السليكون في الخدود والشفاه والصدور، وزرع الشعر والأسنان، وهكذا).. كما يمكن للجسد أن يغير لون جلده (عملية التبييض) وغيرها من الصفات القائمة على العنصر البشري.. ويطيل الناس في الصين واليابان عيونهم ويوسعونها، ويخضعون شيئاً فشيئاً لعمليات عقابية قاسية في الحوض ليحصلوا على سيقان أطول، وبهذا يكونون قادرين على الظهور في هيئة أطول تكون أكثر ملاءمة لعالم البيزنس!

ويمكن للجسد أن يغير من جنسه: ذكر إلى أنثى، والعكس.. ويمكن للوجه البشري أن يغير من ملامحه القائمة على عنصره البشري، وملامحه الجنسية المتعلقة بهويته من ذكر أو أنثى، ويمكنه أيضاً أن يغير ملامحه البشرية بفضل جراحة التجميل حتى يبدو أكثر شبهاً بالحيوان!

ويدعي الأطباء – فيما يتعلق بزراعة الوجوه– أنه سيكون إجراء روتينياً في المستقبل.. وإذا حدث هذا، سيكون هناك نوع من الصيد القانوني للأجساد البشرية المقتولة حديثاً والوجوه المصابة في

حوادث؛ دون ذكر الصيد غير القانوني الذي سيزدهر.

يعد حلم التحول (التغيير الصارخ في المظهر) من أقدم وأعمق أحلام البشرية استمرارية؛ فقد استولى حلم تحويل الضفدعة إلى أميرة على الخيال الفردي والجماعي، وهو حلم ينعش أكثر الصناعات ربحية في العالم (مثل صناعة التخسيس) وأشعل من قبل شرارة ثورات، وأسقط أنظمة، وغير عوالم..

إن إسقاط أفكار يوتوبية بعينها عن التحولات الفردية والجماعية كانت الأساس لكل الأيديولوجيات الفاشية والشيوعية.. وانهارت النسخة الفاشية من اليوتوبيا بعدما قتل الفاشيون ملايين البشر؛ بما فيهم ستة ملايين يهودي.. وانهارت النسخة الشيوعية بسبب ضحايا معسكراتها الذاتية للقتل، ونقص الملابس الداخلية[٢]. لقد تلاشت الأيديولوجيات الكبرى، لكن بقيت "نواتها" الذرية: حلماً ذا طراز يتعلق بنموذج التحول؛ حلم الإنسان السوبر، والمرأة السوبر، والرجل السوبر الذي يتحقق في هذه المرحلة من تاريخ البشرية في

---

[٢] وكان هذا الرجل يستشهد بمقطع شهير من فيلم آخر أنتج عام ١٩٢٢: "لم تكن الطائرات هي التي هزمته؛ إنما الجمال هو الذي قتل الطبيعة الحيوانية فيه." كان اسم ذلك الفيلم "كينج كونج". كلمة السر الآن هي العجيزة أو المقعدة.
ويعود الفضل إلى "جي. لو" في ترويج وتعزيز الشكل الدائري أو المدور للعجيزة، والتي تسمى في اللاتينية "بوت"، حيث صرنا نرى في أفلام الفيديو الموسيقية عجيزات الأفرو أمريكيات، والبرازيليات، وغيرها من العجيزات النسائية تهتز بكل الأشكال المثيرة وهو ما أرسى – في هيئة متحركة- حلماً جديداً عن التحول، وألهم صناعة التجميل مسارات جديدة: مثل زرع أنسجة من السليكون في عجائز النساء.

جسد متلون يتخذ أشكالاً وأدواراً مختلفة، ويكرس نفسه ويمدد ذاته للخارج مثل العلكة.

صار العالم مصاباً الآن بجنون العجيزات:

وحيث أن الثورات الوحيدة التي يمكن أن تحدث اليوم هي ثورات على طبيعة الجسد البشري، فإن الدواء الناجع لها يعمل على التضخيم من إمكانيات المخ.

وهكذا يبقى السؤال عما سيراه الدماغ، بمخه الذي ستتمدد قدراته، عندما ينظر للمرآة: "عجيزته!"

ookaland.com

obeikandl.com

فوضى الذعر

أنا محتجزة في أحد أبراج الجرس في المعبد التطهري "دي لا سارجادا فاميليا" . . إنه قريب مني هنا، واحتاج للهواء لأتنفس . . أعرف هذه الأعراض، أعرف بالضبط ما هي: نوبة من الذعر!

أهمس لاسترداد أنفاسي، بووو! بوو! . . عليّ أن أتنفس، سوف تمر النوبة . . . وعلى مستوى النظر تقريباً يتبختر حمام أجرب يفصلني عنه صليب حديدي.

ازدرد الغبار الذي يثيره الحمام بخفقه العصبي لأجنحته حيث يبدو الحمام عدوانياً، وليس مستبعداً أنه يود أن يقتلع عيني؛ فربما يفكر الحمام بهذا المعنى . . تلك الجولات السياحية الملعونة!

وأفكر: يا لهذا الحمام الملعون! . . ربما سيقوم بالهجوم عليّ ذات يوم . . وربما ذات يوم ستتحول هذه الكائنات إلى لطيور تقطن المدن، وتزاحم البشر!

أهمس: انصرف أيها القاتل! . . ويخفق الحمام أجنحته باستجابة، ويثير في طيرانه التراب حتى يسد أنفي . .

يهبط رأسي بشكل حلزوني أسفل الدرج الحلزوني الشهير "جودي" الذي احتاج للنزول منه . . أياً ما كان الذي دفعني

للذهاب أعلى البرج في البداية. . ترى كم عدد السلالم الباقية التي يتوجب علي نزولها ؟ . . هل سأصل فعلاً للأسفل؟ أم أنني سأظل عالقة للأبد في برج الجرس ناظرة من النافذة الضيقة إلى قصاصة من السماء؟ آه، "جودي" !

كنت قد انتظرت بالأمس من الصباح الباكر في الطابور حتى موعد فتح الباب في معبد "كازا ميلا" الشهير، في "لابيدريرا" . . كما لو كان سطح سلم جودي الحلزوني بتلك المداخن المدهشة (اسباتنابروكز)، قد تنبأ بالغزو المستقبلي لهؤلاء السياح الذين يضغطون على أزرار كاميراتهم: لا أحد منهم يفلت من إمكانية ظهوره في الصورة مع شخص ما .

راقبت السائحين يشرحون لأقرانهم من المسافرين بشيء من التوق الشديد ما الذي يستطيع أي منهم أن يرى بنفسه؛ ولوحوا بإيماءات منحنية بأيديهم مقلدين المنحنيات الأسمنتية لسلم جودي، وحاولوا جذب الانتباه بأداءهم الصامت (البانتونايم) لما كان يحدق بوجوههم في أعلى البرج: بلكونات جودي التي شابهت -كما يقولون- ركام من طحالب البحر وقد قذفها البحر إلى الشاطئ !

اعتذر أنني لم استطع رؤية القبة الزجاجية "بالدوا لاميزيكا كاتلانا" في برشلونة، لكن الأمر سار على هذا النحو: زياراتي للمدن على مدى عشرة أعوام مضت يمكن اختصارها إلى أشياء "لم"

أرها . . كنت مثلاً أتشوق إلى رؤية كنيسة "سيستين" لسنوات . . في إحدى المرات كانت مغلقة للتجديدات، وفي المرة الأخرى كان يوم الأجازة، الأثنين، وفي ثالث مرة دسست أنفي في الباب، الذي كان لا يزال مغلقاً مرة أخرى، لأرى ما يمكن رؤيته من الكنيسة.

وعندما كنت في زيارتي الرابعة لمدينة روما، حالفني الحظ في وقت كان متحف الفاتيكان فيه مفتوحاً، ومعه كنيسة "سيستين" . . ثم بعد نصف ساعة من التسابق عبر متاهة المتحف وجدتها أخيراً، وتوقفت عند مدخل البوابة التي تشرف على البهو الصغير، وكان الناس متزاحمين في الداخل مثل السردين، ورؤوسهم ملوية للخلف باتجاه سقف الكنيسة الذي أبدعه "مايكل أنجلو".

لكن عيناي تعلقتا بتوأم من الرضع في عربة أطفال؛ كانا هم، أيضاً، يلقيان برؤوسهم الصغيرة للخلف بحيث يمكنهم رؤية السقف. . حاولت أن استدير واتراجع لكني لم استطع فقد كان الناس يدفعونني من الخلف! . . وسرت لمدى أبعد إلى الداخل، وبدأت – حتى دون النظر للسقف– في المناورة بميل عبر حشد من الناس في اتجاه باب الخروج، وهو ما أزعج الناس برؤوسهم الملتوية للخلف لرؤية السقف، وشعرت بحبات المطر المحببة تتساقط من نتوء المبنى أسفل ظهري. . وارتفع مستوى الذعر داخلي، بمثل ارتفاع

قمة رغاوي البيرة عند صبها في الكوب، واشتريت في طريقي للخروج كاميرا فيديو "كابيلا سيستينا"، ودفعت ثمنها دون أن أنتظر باقي النقود، ثم عدوت للخارج مثل الطلقة، حتى أنني لم أشاهد شريط الفيديو الذي صورته أبدا . . ومنذ ذلك الوقت تخلصت من جهاز الفيديو المنزلي، وجهاز الـ"دي في دي".

أصبحت مؤخراً لا أستطع رؤية أي شيء . . أشعر ببعض الراحة أني رأيت متحف اللوفر، والأرميتاج، والمتروبوليتان من زمن بعيد، في تلك الأوقات التي لم تصل لمستوى الديموقراطية الحالية، الذي كانت فيه تذاكر الطيران مكلفة . . ذلك لأن المدن والمتاحف كانت محتلة بمستهلكين من السائحين المسافرين بتكلفة طيران رخيصة، واستسلم الناس لكل الإهانات الجسدية والعقلية التي يلاقونها . . سائحون بأعصاب من حديد وقوة تحمل جسدية مدهشة، أجناس من البشر ملاءمة لحد كبير للمعركة مسلحين بحقائب على الظهور، وكاميرات، وزجاجات مياه؛ أناس ينتظرون بصبر في طوابير طويلة، نوع من الحجيج العصريين يدفعون الكفارة لا يدري أحد عن أي خطايا ! . . صيادون للمشاهد من أجل تذكارات السائحين؛ وجامعون للمقتنيات يجمعون هدايا تذكارية رخيصة، أناس آمنوا حرفياً بمجاز أن العالم قد صار قرية كونية . .ولا يوجد خيار آخر لأولئك من الأقل مرونة ذهنياً وجسدياً

سوى أن يتراجعوا من ساحة المعركة (الزيارة) إلى حانة أو فندق في مدريد، يحفرون في لحاء شجر التوت غير الطازج، ويحدقون في استنساخ رخيص للوحة الجيرونيكا لبيكاسو معلقة فوق الحائط – وأن يتساءلوا بقلق، إلى أين يفضي ذلك كله ؟ . . ليس لدينا – نحن الخاسرون– خيار آخر سوى احتساء فنجان من القهوة "الأكسبريسو" الخفيفة مثل شاي "الكاموميل" في أحد مقاهي امستردام، وأن نرنو بنظرة غرامية إلى نسخة رديئة من لوحة رمبرانت – سهر الليالي– معلقة فوق البار، وأن نتأمل العلاقات الغرامية بين المحبين من حولنا .

ولطالما كان الأمر يتلخص في "هم" و"أنا" . . فقد اعتادوا أن يقضوا عطلات نهاية الأسبوع يتسوقون في المجمعات التجارية بينما أقوم بزيارة المتاحف؛ وتصبب عرقهم بحثاً عن ماركة "إيكيا" لشراء أسرتهم، بينما انطلقت أنا دون اهتمام بالتكلفة إلى لندن لمشاهدة آخر المعارض!

ماذا حدث؟! . . أنهم اكتشفوا خلال عشرة أعوام تقريباً حقيقة أن هناك رحلات سياحية رخيصة، والآن هم يغرقون "أماكني!" بتزاحمهم.

الآن تتوسع المتاحف، ليس لأجلي بالطبع، لكن من أجلهم! بل أنهم يبنون متاحف جديدة، مثل ذلك المتحف في "بيلباو"، وبذلك

فإنهم (لا أنا !) سيكون لديهم سبب الانطلاق إلى مكان ما في عطلة نهاية الأسبوع. . وتوسعت المكتبات الصغيرة المريحة المحببة، حيث اعتدت قضاء جزء كبير من حياتي، وتحولت إلى متاجر مجمعة هائلة للكتب؛ كل ذلك من أجلهم! . . لقد حرروا أنفسهم من مضايقاتي وصاروا يدفعونني بعيدا؛ إنهم يحتلون مكاني ويخفقون أجنحتهم بعصبية، ويثيرون الغبار ليملئوا به المكان ويسدوا أنفي. . لقد شقوا طريقهم بكيعانهم إلى أماكني. . يأتون للمدن متسكعين حول الحفر الأثرية القديمة، ويلتقطون صوراً للأماكن المقدسة، ويزورون الأماكن الأثرية والنصب التذكارية الثقافية، ويجلسون في قاعات الموسيقى، ويتجولون في الجاليريهات والمكتبات والمتاحف. . تركوني ممسكة بكوب رخيص مستنسخ عليه توقيع من بيكاسو أو ماليفيتش، رسمت عليه صورة منطاد على شكل امرأة تؤدي "صرخة" بصوت مدو، أو متأملة لمقدار وافر من البلاستيك وقطع من القرميد ملتصق به كمنفضة للسجائر ،ويفترض أن تذكرني بسلم "جودي" .

على أية حال، لم يعودوا "هم" يعنوني في شيء؛ فأنا قد تحررت أيضاً، وغيرت نمط حياتي حتى أنني لا يتصادف أن أسافر، فالآن أنا أحيا على الانترنت.

وإذا كانت حيواتنا في النهاية قد صارت افتراضية بالفعل، فلماذا

يجب أن تكون أسفارنا بما فيها زياراتي للمتاحف حقيقية ؟!.. يمكنني أن أجد كل ما أريده على مواقع المتاحف الالكترونية، وأفضل محطات الانترنت بالنسبة لي هي "مت met " و"مونا mona " حيث استعرض القاعات.. وأتوقف وأعجب بالأعمال الفنية، وألقي نظرة عن قرب وأخرى عن بعد، وفي ذات الوقت أنصت للموسيقى التي أرغب في سماعها، بل أفضلها جميعاً .. ولا يوجد زحام ولا بشر ولا سبب للذعر.

وعندما أغادر متحفاً ما يمكنني التوقف في محل الهدايا التذكارية وشراء مصباح "إيسامو نوجوتشي" أو رف "موجي" مصنوع من ورق أعيد تدويره.. كما يمكنني أن أبحث وأرى ماذا يعرض "جوجنهايم" واشتري وشاحاً لطيفاً مرسوم عليه مؤلفات "كاندينسكي" من متحف الفاتيكان، وأن أمعن النظر في لوحات مايكل أنجلو الجصية على سقف كنيسة "سيستين" في أوقات فراغي.

لا يوجد دوار أو خفقان بالقلب.. وعندما أترك المتحف يمكنني أن اشتري لنفسي كاباً لمجرد اللهو مكتوب عليه "فيني، فيدي، فيشي" (نحن في نهاية المطاف في روما، ألسنا كذلك؟).

لدي على الشاشة متحف "تيت tate" و"بومبيدو pompidou " و"أوفيزي uffizi " و"برادو prado" و"الأرميتاج

"hermitage"، والمتحف البريطاني، كل هذه المتاحف في متناول يدي، وهي ملكي، كلها ملكي!

على أية حال حدث شيء ما بالأمس بينما كنت أتجول حول متحف اللوفر. . هل كان لحظة ضعف ؟ ربما شعرت بلمسة من دوار. . هل كنت أضغط على مفتاح التقريب بسرعة شديدة ؟. . لا أدري. . هل كنت أتجاوز الزمن المحدد بجدة بالغة وأنا أتأمل لوحة الموناليزا ؟. . من يدري؟ لكنني في لحظة بعينها، وبمجرد أن تراجعت بعيداً عن اللوحة حصلت على مشهد لرؤوس زوار المتحف على الطرف السفلي من شاشة الكومبيوتر. . كانت رؤوس الزائرين وهي تتطلع للوحة الموناليزا. . كان شعور جميلاً لوهلة بينما ألاحق بعيني رؤوس الزوار تقترب وتبتعد عن الموناليزا. . لكن بعدها التفت إليّ أحد الرؤوس، وتجمد من الدهشة. . في البداية راقبت الزائر المجهول وهو يمعن النظر في اتجاهي بما أصابه بالحيرة، وبعدها سحبت يد قميص شخص آخر فارتطمت الأكتاف بعضها البعض، وبرؤوس رواد المتحف ،– الأول، فالثاني، فالثالث، فالرابع، فالخامس– ودار حول نفسه بسرعة مثل قطعة الدومينو!. . وقف بعضهم كما لو كان منوماً تنويماً مغناطيسياً، وأومأ آخرون، بينما أشار زوار آخرون إليّ وإلى بعضهم وهم يلوون أعناقهم ويقفون على أطراف أقدامهم ليحدقوا فيّ، كما لو كان طرف شاشة الكومبيوتر

الخاص بي إفريز لنافذة مفتوحة! . . وشعرت أنني مثل "كينج كونج"، وأصابتني لسعة من ذعر مثل جلدة بالسوط، وألتقطت أنفاسي وخفق قلبي تحت وطأة إشارة التحذير من الزائر الأول، ذلك الذي التفت لينظر إليّ تماماً كما لو كان يثير الغبار حولي؛ ثم لوى عنقه على نحو شاذ وثبت عينيه الصغيرتين على عينيٍ متوعداً . . انتزعت كابلات الكومبيوتر من الحائط لاهثة أتلهف بحثاً عن هواء أتنفسه، حتى صارت الشاشة سوداء . . وغصت لأسفل أمام الشاشة أزفر الهواء في دفعات من النفس القصير. بووو! بووو! بووو! . . انتفس بشكل إيقاعي منتظم، وشعرت بالذعر ينحسر عني ببطء . . تراجع الخوف وصار ضئيلاً ثم تبخر.

كان قلبي لا يزال ينبض بإيقاع منتظم، وتباطأ الشهيق والزفير؛ ولاحظت وأنا أقوم من على المكتب ريشة رمادية صغيرة وطبقة من الغبار على الشاشة السوداء . . نفخت الريشة بعيداً، بووو! وذهبت لإحضار فرشاة كي أمسح الغبار عن الشاشة.

obeikandi.com

أوروبا، أوروبا

صرخ بندر في نوبة شر مفاجئ: - اللعنة عليه! كل هذا ملفق. . لا توجد أي "ريو ديجانيرو، أو أية أمريكا أو أوروبا، أو أي شيء آخر. آخر مدينة هي "شيبيتوفكا"، وموجات الأطلنطي ترتطم بشاطئها.

إلف وبيتروف "الساق الذهبية".

سألت زميلي - وهو كاتب تشيكي- :

- إذن ماذا تعني لك أوروبا ؟

- من يدري ؟ لدي الآن تشوش في ذهني. . .

كيف ترسل بطاقة بريدية؟!

أنا لا أعرف كيف أداعب خيال الناس في أماكن أخرى، لكني أعرف كيف أضفي الدفء على قلوب أصدقائي الهولنديين من خلال شيء بسيط بحق: بطاقة بريدية.

لا يوجد من يشعر بمثل هذه السعادة عندما يرسل أو يتلقى بطاقة بريدية كالهولنديين.

اتصلت بصديقة لي في طريق عودتي من رحلة حول أوروبا، فقالت:

- أشكرك كثيراً على البطاقات البريدية التي ارسلتيها !

obeikandi.com

قالتها بتأكيد يثير السخرية على كلمة شكراً . . وقالت:

– لماذا كلفت نفسك هذا العناء ؟ . . لماذا حتى ارسلتيهم؟ . . عار على امرأة تكسب قوتها من العمل ككاتبة ! ثم دمدمت: التواريخ . .

أية تواريخ ؟ . . فالدقة تقتضي أن أقول أنه لم يكن هناك تواريخ ! . . بطاقة بريدية عن لشبونة أرسلت من مدريد، وبطاقة عن مدريد أرسلت باريس !

اعترف أنني لا أملك موهبة كتابة بطاقة بريدية، كما لو كانت أساليبي لا خيال فيها، أما خيالاتي التي كتبتها ذات رة على بطاقتي الأولى ضاعت إلى الأبد وكانت تقول :

تحياتي الحارة من بحر الأدرياتيك اللازوردي . . أشعر عندما أكتب على ظهر بطاقة بريدية أنني معوقة وأفضل حالاتي لكتابتها تكون عندما تكون فحوى الرسالة: حبي . . .

فقط، فعندما أكتبها يكون الحب اعتذاري عن غياب أي نص آخر . . ويواجه مرسل البطاقة البريدية، في كل مكان من أوروبا، أمر غريب: البطاقات البريدية وطوابع البريد يباعون دائماً في أماكن منفصلة؛ فتباع البطاقات في أكشاك الصحف أو رفوف الهدايا التذكارية، بينما تباع الطوابع عادة في مكتب البريد أو محل بيع التبغ، وعلى المرسل أن يبذل جهداً كبيراً كي يرضي أصدقاءه؛ فعليه أن

يشتري البطاقات، ثم يضع عليها الطوابع، ثم يجد صندوق البريد الذي سيرسلها منه. . وإذا كانت فترة إقامته في مدينة ما قصيرة، كما كان الحال معي، يصبح هذا المرسل خبيراً استراتيجياً على الفور. . وبعد هذا كله لا يجد لديه ما يكفي من حماس للصق الطابع، ناهيك عن كتابة أي شيء عليها.

أتحدث هنا من واقع التجربة. . فقد سافرت من لشبونة إلى مدريد، ثم إلى بوردو، وباريس، وليل، وبروكسيل، ودورتموند، وهانوفر، ومالبورج، وكالييننجراد، وفيلينوس، وريجا، وتاين، وسان بتسبرج، وموسكو، ومينسك، ووارسو وأخيراً برلين، ١٨ مدينة أوروبية.

أرسلت ١٨ بطاقة بريدية على مدى ١٠ مرات. . وكان هناك كشك تديره امرأة يقظة من موسكو، بالقرب من فندق روسيا؛ وكانت الوحيدة في أوروبا كلها التي ابتكرت الفكرة النابهة بأن تجلب الشيئين معاً، الذين يرتبطان ببعضهما البعض: البطاقة والطابع. . لهذا استغل هذه الفرصة لأرسل لتلك السيدة اللطيفة التي أدارت ذلك الكشك في موسكو أحرّ تحياتي.

كان "نيناد" وهو كاتب من سيرايفو فناناً أصيلاً في كتابة البطاقات البريدية. . قمت بمراقبته برهبة وهو يشتري بطاقات بريدية، ثم يلصق عليها – مثل عاشق مثالي يعرف سر لغة اللمس–

الطوابع ببطء، ثم ينظف برشاقة مساحة أمامه على طاولة المطعم في الفندق مزيحاً أكواب القهوة جانباً، ويجعل سطح الطاولة أملساً قبل أن يضع الجانب الذي عليه الصورة من البطاقة فوقه، ثم يخرج قلمه الحبر ويكتب العنوان بدقة وحرص شديدين. . ثم يكتب ببطء، في الفراغ المخصص للكتابة، شيئاً ما وهو يبذل جهداً كبيراً في العناية بما يكتب. . سألته: - هل يمكنني أن أقرأ ما كتبت؟

- بالتأكيد .

وناولني البطاقة، فوجدت أرقاماً وحروفاً متشابكة دون نظام. . كتب نينياد بطاقته بشفرة ما . . وبعدها كان يرسل بطاقة أخرى من مدينة أخرى يشرح فيها كيفية قراءة الشفرة على البطاقة الأولى.

كان رفيقي بهذه اللعبة الحميمة يخلق استعارة لقضية مفقودة في الجنس الأدبي المعروف بـ أدب الرحلات.

لا شك أنها مضيعة للوقت أن تكتب عن السفر، وهذا هو السبب في أن السائحين يفضلون أن يكون لديهم مرشداً سياحياً، إضافة إلى صور ورسومات لامعة عن المكان ولو كانت خارج سياقه عن أن يقرأوا انطباعات كاتب رحلات.

عندما يحتفظ كاتب بيوميات رحلة ما فإنها عادة ما تكون مكتوبة بشفرة ما أيضاً، فقط عندما يكون المرسل إليه (القارئ) لديه الفرصة لمقارنة ما كتبه الكاتب مع الواقع الذي رآه في المكان، وقادراً

على رؤية ما المقصود به، عندها سيكون النص المكتوب قد فقد أهميته!. . والشيء ذاته يحدث مع مرسل النص، والكاتب الذي لم يعد ممكناً أن يفك مغالق الكتابة أو شفرة ما كتبه أثناء الرحلة. . ويجب أن نضيف أن الواقع نفسه ليس ثابتاً فالواقع أيضاً يسافر.

obeikandl.com

obeikandi.com

رحلة لاستعادة اليوتوبيا

كانت رحلة "قطار الأدب السريع ٢٠٠٠".. رحلة غطى فيها بعض من مائة كاتب من حوالي ٤٣ دولة.. رحلة امتدت سبعة آلاف كيلو متر زاروا فيها ١٨ مدينة أوروبية.. كان الأمر بمثابة خبرة جماعية عن استعادة اليوتوبيا.. وكانت هناك مجازات شبيهة بالقطار الذي قطع الطرق عبر أوروبا في الماضي.

يمكنني أن أذكر قطارات "الأخوة والوحدة" التي كانت تنطلق محدثة ذلك الصوت المهيب على امتداد سكك حديد يوجوسلافيا، وألوية الشباب الذين أعادوا القضبان التي دمرت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى حالها..

كان القطار جزء من صناعة أيقونات الدعاية الشيوعية المبكرة، وكان التمثيل الأكثر حيوية ووضوحاً للسير الذي لا يمكن تعديل مساره نحو "يوم أكثر ضياء" يحلم به الجميع.. وقد أخفت الصورة الرمزية للقطارات العابرة لأوروبا – التي تجري بقوة وسرعة متزايدة للأمام دائماً– شيئاً ما كانت هناك حاجة لنسيانه: صورة القطارات العابرة لأوروبا التي تنقل اليهود إلى معسكرات التجميع قبل إبادتهم.

لقد حفر فيلم "فيلجكو بولاجيك" –الذي حمل عنوان "قطار بلا

جدول زمني"- في عمق الذاكرة الجمعية لليوجوسلافيين، وهو فيلم عن رحلة من "هيرزيجوفينا" إلى "فوجفودينا" في مستعمرات ما بعد الحرب، عن هجرة قرى بأكملها إلى مكان جديد من أجل حياة أفضل. . وسرعان ما تآكل السحر والافتتان بالقطارات بعد الحرب. . وقد بدأ العمل في بناء الطريق السريع المسمى طريق "الأخوة والاتحاد"، والذي كان يربط زغرب مع بلجراد، وسميت القطارات بأسماء تحاكي المزاج الأوروبي بنمطه الجديد . . قطار "ماتوس" (سُمي باسم كاتب كرواتي) كان يذهب من زغرب إلى بلجراد، وقطار "ميمارا" (سُمي باسم جامع مقتنيات فنية مجهول) ويذهب من زغرب إلى ميونيخ، وعاد القطار للقيام برحلته مرة أخرى في الثمانينات.

كان القطار "الأزرق" آخر رمز لتوحيد يوجوسلافيا، لكنه كان يعطي رؤية تمهيدية عن زواله أيضاً . . كان هو القطار الذي حمل جثمان رئيس يوجوسلافيا الأخير "تيتو"، واكتظ الطريق من "لوبلانا" إلى بلجراد - حيث مر القطار- بحشود من آلاف اليوجوسلافيين المودعين. . وبعد عشرة أعوام من مروره حاملاً جثمان الزعيم، أعاق الصرب في كرواتيا مرور القطارات على خط زغرب الفاصل، وذلك بأن ألقوا بجذوع الأشجار فوق القضبان، واستمروا في إعاقة مرور القطارات لعدة سنوات تالية. . وسيخدم هذا الإجراء الرمزي

كإعلان بالدخول في الحرب؛ وقصد منه تلاشي يوجوسلافيا، ومعها سكك حديد دولة يوجوسلافيا . . ثم بعدها بعدة سنوات قطع "قطار الحرية" خط سكك حديد زغرب الفاصل حاملاً النخبة السياسية في كرواتيا . . كانت الحرية كمصطلح عملي تعني أن أكثر من مائة ألف كرواتي صربي، أصبحوا في النهاية مجبرين على ترك كرواتيا !

سوف يمثل أعظم أداء للحرية على مسرح محطة القطار في "كنين" مهد جماعة الكروات؛ وبعدها بأيام قليلة سيجلب "قطار الحرية" المنتصرين في الحرب، الذين خرجوا لنهب الأملاك الصربية.

كان قطار الأدب السريع ٢٠٠٠ ملخصاً لدروب خلال قرن بأكمله في تاريخ القطار الأوروبي الذي ربط الأماكن والبشر رمزياً، وكان بمثابة استشهاد على ما بعد الحداثي في اليوتوبيا الرائدة، والمنتصرة، والصاخبة في القرن العشرين. . وبالنسبة لنا نحن المسافرين بالقطار، بدأت اليوتوبيا الاستعادية بمعناها الحرفي والأكثر دلالة عندما انتقلنا على متن قطار، كان ملائم لنا، وهو القطار الألماني "جورليتز في تي" رمز الإعجاز التكنولوجي الألماني في الخمسينات. . واستمرت اليوتوبيا المستعادة الخاصة بنا أثناء انتقالنا إلى متن قطار صنع في "لاتفيا" وكان رهن إشارة رئيس جمهورية لاتفيا في زمن الشيوعية، وكان يوجد به عربة رئاسية بها سرير

واسع، وحمام، وأقسام مصممة لاستيعاب الطاقم الرئاسي. . ولم يكن القسم الرئاسي الفسيح مشغولاً بالكاتبة الفرنسية التي زاحمت بالأكتاف الباقين – رغم سنها الوقور– في الأقسام العادية من القطار، لكن الشاب المنظم للرحلة هو الذي احتل القسم الرئاسي مهتدياً إليه باحساسه بالتفوق الطبيعي. . كان رئيساً تحت التدريب!، بينما كان "تيتو" مجرد صانع أقفال في نهاية المطاف.

ويعود الفضل للهجوم الوقح من كتّاب مجموعة البلقان ("نيناد" و"ماجا" وآخرون) في أنني تمكنت من احتلال القسم الأصغر لطاقم الرئاسة لعدة ساعات. . وقال "نيناد" وقد حقق أمنه الذاتي ،"هذا يجعلني أشعر أنني مثل تيتو تقريباً!"

ثم عدنا إلى اليوتوبيا الاستعادية في كالييننجراد، التي من الواضح أنها استعارت فكرة أن قطارنا يجلب معه الاتحاد الأوروبي، وأن قطار الأدب السريع ٢٠٠٠ سوف يفتح بقوة وعلى نحو ساحر صدعاً كان يشق عليهم فتحه لأعوام. . وأعلن عمدة كالييننجراد في كلمات ترحيبه بسرور:

- أود أن يعبر الكثير منكم عن كل شيء يتعلق بالمستقبل، أن يعبر انتقال الفنانين والموسيقيين – الموسيقى بشكل خاص– عن العديد من التجسيدات والتعبيرات المتنوعة. .

واستشهد طفل اسمه "الكسندر موسكاليف"، وهو طالب في

المدرسة الثانوية في الرابعة عشرة من عمره، بمقطع من دستوفسكي في موضوعه للتعبير عن "قطار الذاكرة" كما كتب سطراً عن كيف أن "الجمال فقط هو الذي يمكنه انقاذ العالم" . . وعبر الصبي عن أمله الصادق في أننا سنفعل ذلك، نحن الكتّاب المسافرين على متن قطار الأدب السريع ٢٠٠٠.

وبالحديث عن ديستوفسكي وجدت نفسي بعدها بأيام في بار ديستوفسكي في سان بتسبرج حيث حدقت بدهشة في الزحام المرح الصاخب للروس الجدد، الذين كانوا يقضون وقتاً رائعاً يرقصون رقصة الصلصا . . وعلّق صديق روسي – أمريكي في البريد الالكتروني قائلاً:

– اختيار بائس ! كان عليك الذهاب إلى مقهى "إيديوت" أو الأبله.

obeikandl.com

داخل كل مسافر يكمن مستعمر ما

في داخل أي مسافر يكمن مستعمر ما . . انظر فقط لزملائنا يتحدثون إلى ذلك الكاتب!، يداخلني أنا أيضاً شيء من شعورٍ داخلي. . هذه الرحلة تضغط بقوة على زناد خفي فينا جميعا، يطلق شعوراً بالتفوق الاستعماري. . وقد أصابني الرعب من نفسي عندما لاحظت السهولة التي أحكم بها على المدن والبلاد التي زرناها، كيف احتويها أو لا أبالي بها على الإطلاق. . واعترف زميل لي من الكتاب:

- لو كنت أملك فرصة شهر آخر من الترحال لأصبحت "الأسكندر الأكبر!"

السفر على متن قطار الأدب: السفر كاستشهاد أدبي

يعد القطار من أكثر الأفكار الجوهرية دلالة، والتي يستشهد بها في القرن العشرين، فقد بدأ تاريخ السينماتوجراف بمشهد لقطار مسرع. . وبداية كان القطار بؤرة وقمة صناعة الفيلم، كما أن كل أبطال الأدب الروسي يركبون القطارات.

والقطار، جنباً إلى جنب مع الروح هو الموضوع الأكثر تكراراً على الإطلاق في الأدب الروسي؛ من ديستوفسكي إلى فينيدكت

إيروفييف وروايته البديعة "موسكو"، وحتى رواية "نهاية الخط".

وإلى جانب القطارات الثورية، كانت هناك قطارات مخيفة أقلت الرعاع والسوقة المسعورين، وقطارات الدعاية اليسارية التي تحركت للأمام وللخلف محدثة صوت انفجاري عبر روسيا كلها، لإقناع الناس بأن الإمبراطورية القائمة على المساواة أصبحت قاب قوسين او أدنى، وستملأ الأرض عدلاً.

كان هناك، في الحقيقة، وصف في رواية الساق الذهبية لمثل هذا القطار متجهاً إلى أقاصي آسيا.. حيث كان على متنه صحفيين أجانب ومحليين، وكتاب، وعمال حصد القمح، وبالطبع المدير الناعم للقطار "أوستاب بندر".

وعلق أحد المسافرين على متن قطار الأدب السريع ٢٠٠٠:

- أنا أعرف كل شيء عن الرحلات.. فقد كنت فيها بنفسي، وأعرف ما الذي سيحدث لكم.. هناك حوالي مائة منكم سوف يسافرون إجمالاً على مدى شهر، وسوف يترك زوج منكم القطار ويتخلفوا في محطة بعيدة عن الطريق، محطة صغيرة ما، دون أية أموال أو أوراق، ولن يلحقوا بالآخرين ربما لأسبوع، وبعدها سيصلون متعبين في أسمال بالية.. وسوف يتم فتح حقيبة سفر شخص ما، وستندب الضحية طوال الوقت، وسيظل يستعير فرشاة حلاقة الذقن من جاره، وسيعيدها له دون غسلها؛ كما سيفقد كوبه

الخاص.. وبالطبع، سوف يموت أحد المسافرين، وسوف يجبر أصدقاؤه، بدلاً من الذهاب إلى حفل العزاء الجماعي، أن يجلبوا رماد العزيز الغالي معهم عند العودة إلى موسكو، علاوة على أن حمل الرماد عبء مخيف وكريه، إضافة إلى أن الركاب سيبدأون في الشجار والمشاحنات طوال الطريق.. صدقوني! سيأتي شخص ما سواء كان "بالاميدوف" أو "أوكودشانسكي" بفعل غير لائق اجتماعياً، وستقومون بتوبيخه لوقت طويل بينما سيصرخ ألماً ويندب حظه مؤكداً أنها لم تكن غلطته.. أعرف كل شيء عن تلك الرحلة، حتى أنكم ستذهبون والقبعات على رؤوسكم، وستعودون بكابات شرقية.. سوف يشتري أكثركم حماقة مجموعة كاملة من الدروع من تاجر يهودي من بخارة – كاب مخملي يحيط بجوافه فرو رخيص، ودثار مبطن بكثافة على هيئة عباءة. وسيمضي الأمر دون القول بأنكم ستغنون أغنية "ستينكا رازين"، ليس هذا فقط، لكن الأجانب سيغنون "داون ماذر فولجا".

إلى أي مدى تقاس مجموعتنا بمعايير إلف وبيتروف ؟

١- كان الكتاب الذين غادروا القطار في حدود علمي هم: كاتب يوناني كان قد استقله في باريس وغادر في هانوفر؛ وكاتب كرواتي غادر في هانوفر هو الآخر؛ وكاتب كرواتي آخر غادر في مالبورج وعاد للقطار في وارسو؛ وكاتب بلغاري غادر في موسكو

رغم أنه هدد في لشبونة أنه سيغادر في باريس.

٢- سُرقت حقيبة كاتب سلوفاكي في مدريد والكومبيوتر الشخصي له ووثائقه، ومن وقتها فصاعدا كان أحد الكتاب لديه شيء ما يعلقه في رقبته تقريباً في كل مدينة زرناها، بما فيها آخر يوم لنا في برلين عندما اختفت ألف دولار من الجيب الداخلي لكاتب صربي.

٣- في فندق "آندر دن ليندن" في برلين أعرت كاتبة إيطالية مجفف الشعر الخاص بي، وأعادته لي على الفور.

٤- لم يمت أحد من الركاب، رغم أن العديد منهم شرب الخمر حتى شارف على الموت.

٥- أبدى بعض الكتاب سلوكاً غير لائق اجتماعياً،وشعوري بالمساواة بيننا، مثلنا مثل طلبة الجامعة، منعني من الدخول في تفاصيل ما جرى.

٦- اشتريت سويتر مطرز من أستونيا، واشترت الشاعرة السلوفينية "أليس" سويتر ملون ومطرز من ليتوانيا، بينما اشترت الشاعرة البلغارية "فيرجينيا" سويتر ملون ومطرز من لاتفيا . . وفي سوق السلع المستعملة في بتسبرج اشترى الكاتب البوسني "نيناد"خمسة قمصان للبحارة، وجاكيت أزرق، (زي البحرية السوفييتية)، والتقط صورة لنفسه مرتدياً كاباً خاصاً بطيار

سوفييتي، لكنه لم يشتره.

واشترت الشاعرة "فيرجينيا" كاباً مطرزاً من لاتفيا، ورطلاً من السردين المجفف من السوق الشعبي في ريجا، وظلت تلتهم فيه من ريجا حتى وصلنا سان بتسبرج.

كان تولستوي يحيا داخل بوشكين، وديستوفسكي داخل تولستوي، وتشيكوف داخل ديستوفسكي، بينما كان هناك جوجول صغير داخل تشيكوف!

٧- شاركت في غناء أغنية "ستينكا رازين" وبعض الأغنيات الأخرى مع بعض الكتاب الروس، الذين نظموا حلقات حول لتر من الفودكا والسندويتشات المعدة من بقايا الأكل في إفطار الفندق.

بخصوص التشابه بين الأدب والحياة، يمكنني أن أضيف أن قائمة الطعام في عربة المطعم كانت توصف بنفس الوصف - في الحادث العرضي في رواية إلف وبيتروف عن السفر للشرق الأقصى بالقطار- والتي تنطبق تماماً في حقيقة الأمر مع قوائم الطعام في مطاعم الرحلة (فيلينوس - تالين.. تالين - سان بتسبرج.. سان بتسبرج- موسكو.. موسكو- مينسك) رغم أن رواية الساق الذهبية نشرت عام ١٩٢٧.

obeikandl.com

محطة "الحنين للوطن"

وصلنا إلى بولندا الباردة بعد هانوفر الرطبة، وزيارة معرض إكسبو، ومشروع ديزني عن المستقبل العالمي، وسافرنا لساعات خلال ممر من الحقول الخضراء، والأمطار الصيفية التي سالت على نوافذ القطار حتى وصلنا إلى مالبورج المظلمة الكئيبة، وقام جنود من حلف الناتو بإنزال حقائبنا، وكانت المحطة خاوية، وهي المحطة الوحيدة التي لم نجد فيها ترحيباً رسمياً بنا . . وشعرت للحظة أننا في منطقة حرب. . ثم بعدها، في غرفتي بفندق "سبايزكو"، سجل جهاز رصد الزلازل أول رعشة لقلبي ! لا استطيع القول إذا ما كان ذلك بسبب جهاز التليفزيون ماركة "تريلو"، أم فرش الأسرة المزخرف بالأزهار والنباتات، أم الإرهاق والشعور المبتذل من غسيل وكي الملابس، أم صورة تلك المرأة العارية المعلقة فوق رأسي، أم الرائحة الكريهة النفاذة بالمكان.

أيقظتني تلك الرعشة في حوالي الرابعة صباحاً، وخرجت حافية القدمين إلى الصالة، وجلست في ركن المدخنين، على الأقل هذا ما كانت اللافتة تشير إليه: هنا أنت حر في أن تدخن!. . وكانت هناك مطفأة سجائر معدنية محاطة بالزخارف النباتية المغبرة

بالفندق، ومعظمها من نبات الفيكس. . دعكت قدمي العارية فوق السجاد الكثيف باللون الأحمر الداكن، وتثائبت بشعور من نعاس يسري في الهواء المحيط. . كانت هناك لوحة مستنسخة من لوحة "عباد الشمس" لـ فان جوخ على الحائط، وكان المقعد مغطى بفوطة أطباق بها زخارف نباتية. . بدأت في تلك اللحظة من الصباح الناعس أشعر كما لو أني وصلت لنوعٍ ما من البداية: سويت فوطة الأطباق (كان أمي تملك مثلها تماماً)، وأدركت أن عودتي للبيت قد اقتربت.

وأنا جالسة في هذا الركن غلبني شعور بالعزاء الحار تجاه سيرتي الذاتية معهم، مع "الشرقيين"، الكاذبين، شاربي الجعة، الحاذقين، الخاسرين، الغشاشين، الأنداد ،اللصوص، كثيري الثرثرة؛ أولئك العاملين المثيرين للشفقة الذين يعملون لساعات طويلة، الناجين (لأنه لم يكن لديهم – مطلقاً – وقت متاح كي يعيشوا الحياة. . فقط وقت للبقاء)؛ ومع بائعي السلع الرائجة لمرة ثانية (البولنديين، الذين يمكن لأمي أن تشتري منهم فوطة الأطباق البولندية الرخيصة تلك، رغم أن فوطة الأطباق الكرواتية تشبهها تماماً)؛ ومع أولئك الذين يقيمون الطرق لمستقبل أوروبا الموحدة.

تعمل مالبورج، التي توجد على الخريطة بفضل قلعة من قلاع العصور الوسطى في اوروبا، بجد ودأب لإحياء ماضيها في

الفروسية، بتلك المنتجات المستهلكة لمباريات الفروسية، والتي كان علينا أن نشاهدها فيما بعد في مدينة تلو الأخرى! . . وتبين لنا بصورة ما أن العصور الوسطى (العصور التي كنا فيها - افتراضياً- نحن الأوروبيين جميعاً متساوون، فهل كنا كذلك؟) ليست للسائحين فقط، لكنها كانت بمثابة منديل أيديولوجي رومانسي رمت به - بغنجٍ - أوروبا الشرقية على أوروبا الغربية (أنظر إلينا، كنا زوجين دائما).

لم تثر مباريات الفروسية اهتمامي، وحولني ذلك الصباح الباكر - الذي جعل قلبي يرتعش- إلى فارسة تحارب من أجل الوجدان الشرقي. . صرت مثل كلب يتعقب طريدي العدالة، وتجولت حول البلدة، فرأيتها في نافذة محل شبه ممتلئ بالزبائن؛ "عصى بوبي من البسكويت المملح".

(من أجل هوايتك خذي عصى بوبي من البسكويت المملح! بالوزسكي ذات الطعم الأسطوري، تشيز بالوزسكي؟).

شقت الرقائق الرفيعة المملحة طريقها إلى الحياة اليومية اليوجوسلافية في الستينات جنباً إلى جنب مع أجهزة التليفزيون الأولى، المصنعة في مصنع في "نيس".

كان نزلاء الفندق يأتون، ويجلسون على مقاعدنا الأولى ذات الأذرع والأرائك، ويتحلقون حول جهاز التليفزيون بينما المضيفة تقدم

المشروبات وعصى بوبي بريتزل، وتسأل بشكل دائم :

- ماذا عن حلوى بريتزل؟

كما لو كانت تبشر بحياة أفضل وأكثر ضياء مع ترديدها للجملة. . تشيز بالوزسكي ؟ كان كلاً من التليفزيون وعصى بوبي بريتزل مقدمة جلية لحياة أفضل.

في تلك الليلة، جلسنا مع "راجانا" و"فلادو" في مطعم الفندق. . لم يكن هناك من مكان نذهب إليه. . كان المطعم خاليا، وجلسنا إلى مائدة محاطة بزخارف نباتية شيوعية. . غابة متربة من أشجار الفيكس كما لو كنا في متحف؛ وكانت النادلة جادة كما لو كانت أمينة المتحف. . لم تكن هناك حلوى في قائمة الطعام (بدا كما لو كانت أوروبا الشرقية قد بدأت عندما اختفت الحلوى من قوائم طعام الفنادق).

كان لديّ ثلاث عبوات من عصى بوبي بريتزل في حقيبتي؛ وطلبنا كئوس المارتيني، وأعادني المذاق الحلو للمارتيني مع عصى بوبي بريتزل المملحة إلى تلك الحفلات الأولى للمراهقين، وحفلات الشاي في المدرسة، والحفلات الراقصة في البلدات الصغيرة بيوجوسلافيا. . تذوقت "دراجانا"– التي كان ممكناً ان تكون ابنة لي– نكهة بعض من الحنين القادم للوطن خاصة بها مع كأس المارتيني. . وفي الصباح، تركت غرفتي بالفندق التقطت قطعة من الورق من الحلقة المعدنية

فوق قعدة التواليت كهدية تذكارية، كان مكتوباً عليها رسالة بخط اليد: من فضلك اسحب حلقة التواليت برفق، شكراً لك!

نفذت إليّ الرسالة في الصميم، كما لو كنت أقرأ كتيباً في حركة مقاومة سرية في منطقة محتلة ما !.. لمست الكلمات قلبي.. وبدا للحظة أنه أسهل عليك كثيرا أن تقرأ أوروبا في كتيب عن متحف "البرادو" أو "اللوفر" عن أن تقرأ قطعة الورق المصفرة، المعلقة على قعدة التواليت في حمام أوروبي شرقي.. وشجعتني حقيقة أن "احتلال" هذا المكان لم يبدأ بعد، لأنني اكتشفت - بعدها بقليل- أنني كنت مطاردة في المحلات في بتسبرج بمنتجات "دانون"؛ ورأيت إعلاناً عن مسحوق الغسيل "إيريال" على شاشة تليفزيون موسكو، كان بطل الإعلان يتحدث الروسية بلكنة ألمانية ثقيلة.. وشاهدت فيلم "ستار تريك" في التليفزيون البلغاري مدبلج إلى الإيطالية؛ وكنت محاطة في كل مكان بسلك ثوري للعولمة: مسلسلات الست كوم الأمريكية، والمسلسلات المكسيكية التي تعالج المشاكل الاجتماعية.

بالمناسبة، ماهي مساحة أوروبا وأين تقع ؟

لا أحد يعرف الإجابة على ذلك السؤال رغم أن الكثيرين يدعون ذلك.

قال لنا منظمو رحلة قطار الأدب السريع ٢٠٠٠ (رحلتنا) أننا نغطي مساحة ٧٠٠٠ كيلو متر بالذهاب من جنوب أوروبا إلى

شمالها . . كان طريقنا الذي سلكناه حول اوروبا أشبه بالوهق (حبل في طرفه أنشوطة لصيد الخيل والأبقار) .

هناك العديد من الطرق لقياس مساحة أوروبا . . على سبيل المثال، ما هي عدد المرات التي قص فيها المسافرون شعرهم أثناء الرحلة ؟ . . وما هي عدد المرات التي قصوا فيها أظافرهم ؟ . . تبين أن أظافر اليدين والقدمين تنمو في الرحلة بأسرع مما يعتقد المسافرون . . لا بد أن هذا هو السبب في أن الأشياء الصغيرة المستخدمة لتقليم الأظافر، تلك القصافات، تكلف كثيراً، فقد اشتريت قصافة في هانوفر بـ ٣٠ مارك ألماني رغم أن لدي الكثير منها في البيت . . وفقاً لحساباتي تحتاج أظافر اليدين للتقليم في الفترة التي تستغرقها الرحلة من هانوفر إلى لشبونة .

بعض الكتاب، مثل "هيركوس"، وهو كاتب ليتواني استقل القطار في لشبونة وهو حليق الذقن، وطالت وقت وصولنا إلى برلين . . وقاس "نيكولا"، وهو كاتب إيطالي أوروبا بعدد الجوارب التي غيرها . . وصار بعض الكتاب أكثر نحافة بالسفر عبر أوروبا، بينما صار البعض الآخر أكثر سمنة .

الأجابة على سؤال أين يقع الشرق، وأين يقع الغرب في أوروبا أقل وضوحاً بكثير، وأقل مرونة من إجابة سؤال أين الشمال، وأين الجنوب .

توقفت أمام مجموعة من النساء في كالييننجراد كن يبعن كعكات معدة منزلياً، وكانت احداهن تبيع شيئاً تذكارياً ما عبارة عن فطيرة مسطحة ومدورة "مافين" على حامل صغير مرتجل، وكانت هناك لافتة أسفل قطع الكحك الصغيرة: حلوى غربية. . لم غربية ؟ قالت المرأة بنغمة عضو في البرلمان الأوروبي:

– لأننا نحن الغرب!. . ولمع الطربوش الذهبي لأسنانها في وجهي.

ما أن تركنا حدود بيلاروسيا عند مدينة بريست شعر العديد من الركاب على متن القطار كما لو كانوا يعبرون بين الشرق والغرب، وشعر البولنديون بالراحة عند سماعهم ذلك، بينما شعر الركاب من بيلاروسيا بالحزن.

تنجم مشكلة تحديد الاتجاه نحو الشرق في أوروبا من التخيلات المسبقة عن سكانه، وعن أنفسهم، وعن الآخرين. . وقد حاول المرشدون السياحيون، ذوو لغة الخطاب العتيقة، إقناعنا بأن بلادهم من مقاطعات ومدن خدمت طوال تاريخها كحائط صد أو درع ضد الآخرين، والآخرون يأتون بشكل دائم بالطبع من الشرق. . واتضح أن كل سكان أوروبا يفضلون رؤية أنفسهم كجزء من طرفها الغربي عن أن يكونوا جزء من طرفها الشرقي. . فأن يكونوا من طرفها الغربي فهو الشعور بأنهم على الجانب المناسب من الحياة.

الكلمة الافتتاحية الأخرى، في الخيالات القديمة للشعوب، هي مفترق الطرق. . إذا لم يمتلكوا أي شيء آخر، فعلى الأقل تختبر تلك الشعوب والبلاد والمدن نفسها بكونها على نقاط اتصال حيوية وحرجة. . ويعد الحصن ومفترق الطرق أكثر الخيالات الراسخة على نطاق واسع لدى الشعوب الصغيرة عندما تحاول بناء صورة إيجابية عن نفسها.

هكذا يتبين أن وارسو هامة من واقع أن ٢١ خط طول يقطعها !. . وتبين أن مدينة فيلنيوس هي المركز الجغرافي لأوروبا؛ أياً ما كان الذي يعنيه ذلك.

هناك مطاعم اسمها "أوروبا" في سان بتسبرج أكثر من أي مكان آخر في أوروبا، لأن سان بتسبرج تتوق بشدة لأن تدرج على الخريطة الأوروبية.

وفي كتيب سياحي عن بيلاروسيا، في عمود تحت عنوان "من هو من في بيلاروسيا ؟". . حيث صفحة كاملة عن الرئيس البيلاروسي "لوكاشينكو".

ويحتل "لوكاشينكو"، بالحكم – من خلال الكتيب–، مكانة المعلم الجغرافي أو خط طول أساسي أو ما شابه !

رموز

إذا لم يمتلكوا أي شيء آخر، فلدى الشعوب الأوروبية الصغيرة وفرة من الرموز.

هكذا تبين أن "أستونيا" تمنح القطريون العنبري (نبات من الفصيلة المركبة) مكانة الرمز القومي، لأنه - كما يشرح الكتيب السياحي الأستوني- "ترعرع ونما في التربة الأستونية لآلاف السنين".

من الواضح أن القطريون العنبري زهر استوائي حصرياً لأنه ينمو عامة في حقول الذرة "خالقاً ارتباطاً وثيقاً - في عقول الأستونيين- بين الزهرة والخبز اليومي".. علاوة على ذلك في أستونيا رمز قومي على حركة المقاومة، لأن لونه الأزرق مُنع خلال الفترة الشيوعية الحمراء.

ومن الواضح أنه في أي احتفال، كان من الواجب صبغ زهور القطريون باللون الأحمر حتى يتشابه مع "اللون القرنفلي الأحمر الشيوعي".. أما الرمز القومي الآخر فهو المريء! بينما أحد الرموز غير الرسمية هو شجرة السنديان، حيث ينبؤنا الكتيب السياحي أن "استونيا غنية بالرموز القومية، الرسمية وغير الرسمية، وهي رموز عزيزة على شعبها".

كل بلد أوروبي، – كما هي الحال مع رتم الأغنية الأوروبية– يكون أكثر سعادة بغناء ترتيله أو ترنيمته القومية الخاصة.

تمرين على الحياة بلا مأوى

رحلتنا هذه "تمرين على الحياة بلا مأوى. . كل ما نفعله هو أن تسافر، لا تفكر في أي شيء، ولا تربط نفسك بأي شيء؛ وإذا ما طغى عليك شعور الآن، وفيما بعد وهدد بأن يوخز قلبك فاسحقه بسرعة الضوء مثل دودة"

هذا ما قالته لي زميلة لي، فقلت لها: – أنا أعرف ما تعنين.

خيالات

لم اسمع أي من الكتاب شكا من الفنادق الرديئة في مدريد أو بروكسيل (رغم أنها كانت رديئة)، لكنني سمعت العديد منهم الذين اشتكو من الفنادق الرديئة في مالبورج وسان بتسبرج. . ولم اسمع أي أحد يشكو من وقاحة النادلين أو القهوة البشعة في باريس (رغم أنهم كانوا وقحين، وكانت القهوة بشعة)، لكنني سمعت شكاوى من الأشياء ذاتها في موسكو.

جلست مع زميلة من اوروبا الغربية على مائدة في مطعم بمدينة

"مينسك"، وقد رُوعت عندما أحضر لها النادل نبيذاً أحمر مثلجاً! . . وأصرت كَاتبة أخرى على أن يريها النادل زجاجة المياه المعدنية كاملة لأنها كانت متأكدة أنه سيجلب لها مياه من الصنبور بدلاً من المياه المعبأة التي طلبتها . . تأتي المياه في "مينسك" مباشرة من تشيرنوبل، أليس كذلك ؟

في موسكو منح كل المسافرين على متن قطار الأدب السريع ٢٠٠٠ حقائب سفر صفراء وسوداء .

وبينما كنا في انتظار الأتوبيس، راقبت العديد من زملاء راهنوا أنهم إذا تركوا حقائبهم في مكان مرئي واضح سيخطفها أول عابر سبيل؛ لكن لم يخطف أحد الحقيبة .

أنا واثقة أن العديد من زملائي الكتاب من غرب أوروبا كانوا غير مرتاحين أثناء الرحلة، أو أنهم شعروا باحتقار للشرق – الذي ليس غرباً– لأن الشرق يتطلع لأن يكون شرقاً، وباحتقار للشرق الذي يبدو مثل الغرب .

اعتقد أن هؤلاء أحضروا معهم – في حقائب عقولهم– وزناً زائداً ذا أهمية من الآراء المقولبة عن أوروبا الشرقية، لكنهم لم يدفعوا غرامة عقلية على ذلك؛ فقوانين وإجراءات مناطق الجمرك العقلية تعد الأكثر مرونة على الإطلاق !

على سبيل المثال، لم يلاحظ العديد منهم أثناء إقامتنا ثلاثة أيام

في موسكو أننا كنا محاطين ببعض من ٥٠ زميل من الكتاب الروسيين، تحدثوا إلينا حديثاً ودياً ليناً، وقد سافر هؤلاء للوصول إلى موسكو من "مورمانسك" و"فلاديفوستوك"، وغيرها لقضاء الأيام الثلاثة معنا .

اتضح لنا أن هؤلاء كتاب زملاء فقط عندما أعطونا نسخاً من كتبهم مع إهداءات عليها، في اللحظة الأخيرة عندما أوشكنا على مغادرة موسكو، ولم يحصل أي منهم على كتاب واحد منا في المقابل.. ماذا عن الشرقيين ؟.. هل يضمرون هم أيضاً خيالات من صنعهم عن الغرب ؟.. في الحقيقة فإن لديهم ما يضمرونه بالفعل.. العديد منهم يريد أن يكون غربياً، لأنهم يشعرون بالعار من كونهم شرقيين.. وتنبع معظم الخيالات الغربية عن الشرق من الشعور المحوري بالدونية لدى الشرقيين.

ما هو الأساس الذي يقوم عليه شعور المرء بالثقة في النفس؟.. من أشياء صغيرة؛ مثل أننا تعلمنا أن العالم المتحضر يشرب النبيذ في درجة حرارة الغرفة.. نحن – بالضبط – مثل كل الشعوب الطبيعية الأخرى، وهذا هو السبب في أننا نشعر بالرضا عن أنفسنا .

يعد الخوف من أن نصبح منبوذين من المجتمع واحداً من أكثر مخاوف الإنسان قساوة، والمعنى المجازي للخوف من الارتفاعات والأعماق في تاريخ الجنس البشري.. الخوف من الاستبعاد من

المجتمع موجود في جذور كل النظم الفاشية.

في عصرنا الاستهلاكي هذا؛ هناك عائد يمكنك أن تجنيه من الخوف من كونك منبوذاً من المجتمع.. نحن نمضي في الحياة سوياً، ونتشارك معاً من خلال الكوكاكولا، وماركة الملابس الرياضية "نايكي"، والمذيعة السمراء أوبرا وينفري، ومن خلال المعلومات، والعرق، والدولة، والرموز القومية، ومجتمع المساواة في الحقوق والواجبات.. ويراعي كل منا - على مسئوليته، الفروق الفردية التي لا تكاد تُرى. ويعد فيلم "لاميريكا" للمخرج "جياني اميليو" واحداً من أفضل التحليلات لقضية الشرق والغرب الأوروبي المراوغة.. ابتكرت حبكة الفيلم الدرامية فكرة أن الهوية العرقية، والقومية، والجنسية، والاجتماعية، إضافة إلى الشعور الذاتي بالثقة في النفس، كلها أشياء هشة تماماً، إذ يكفي أن نجد أنفسنا في مكان آخر (في الفيلم إيطالي ينتقل إلى ألبانيا في فترة ما بعد الشيوعية)؛ يكفي أن يسرق شخص ما نظارتك الشمسية ماركة "راي بان"، أو أن يشق إطار سيارتك بسكين، أو أن يسرق محفظتك أو كروتك الائتمانية.. وإذا ما صودر جواز سفرك، كل ما يتطلبه الأمر مجرد عدة أيام تقضيها في السجن؛ ثم فجأة تصاب بالرعب نتيجة تلاشي هويتك الشخصية، كما لو كنت لم تملك هوية ذات يوم أبداً.. عندها، تصبح ببساطة "كائناً بشرياً".

الآخرون

شرح لي كاتب سلوفاكي كيف أنه كان سعيداً لعدم ذهابه إلى أوروبا الشرقية من قبل (وكان يقصد روسيا وبيلاروسيا)، وقد أجبر الآن على السفر لهناك، فكان متأكداً – أكثر من ذي قبل– من أنه لا يوجد سبب للذهاب. . إلى "هناك" مرة أخرى! . . "لماذا؟" . . أعلنها الكاتب السلوفاكي وملؤه الثقة:

"لأنه عالم آخر برمته! أولئك أناس مختلفون عنا كلياً!"

ما قصدت أن أكتبه ولم أكتبه على البطاقات البريدية التي أرسلتها من لشبونة.

من لشبونة: سوق "سيه دو سودر". قبة لها شرفة حيث بائعي الزهور ينعمون بالنظر لأسفل مثل الملائكة من أعلى.

عن البرتغاليين الطيبين، لكن المكبوتين كما لو كانوا يعيشون في مكان يزوره الأجانب الذين لا يتريثون أبداً !

عن تناول القهوة مع "دافيد"، وهو أمريكي أعلن عند تذوقه لـ"باستيل دوناتا" (حلوى برتغالية) أنها مثل حلوى "إيكلير" . . فقط هي أكثر حلاوة !

من مدريد:

عن الإعلانات التي تحمل شعار "مونتو دو انبيراسيون" (إعلان عن البلانتين) . . وعن إشارات المرور الضوئية التي تزقزق مثل الطيور . . وعن وابل من الأشجار المثمرة (كان الهواء معبأ بنسيم سعف شجر الحور) .

عن الطريقة التي جلست بها على دكة في حديقة كما لو كنت منومة، منصتة للزقزقة المعدنية لإشارات المرور الضوئية مراقبة العابرين: كانت هناك نعومة نافذة وضبابية وامتلاء في الهواء يجعل العابرين يبدون وكأنهم يطفون فوق الماء !

من بوردو:

عن المدينة التي تبدو مثل العمة "بروست"، وعن كيف أن العمة "بروست" بدت مثل بوردو !

من باريس:

عن السياح الذين يتسلقون برج إيفل ويضيئون بفلاشات كاميراتهم مثل النمل !

من ليلي :

عن أنني لم أر مدينة ليلي أبداً لأنني نمت طوال فترة ما بعد الظهيرة، ولعبت لعبة "لو سوفلور" مع النادلين في ذلك المساء في مطعم الفندق !

من بروكسيل:

عن المشهد من نافذة فندق "سان نيكولاس".

عن ليلتين قضيتهما في الواجهة: رائحة البرية، ورائحة البول والعرق، والأخوية الذكورية للمعجبين بالرياضات !

عن مركز المدينة: مزدحماً بالرجال الذين أعلنوا عن وجودهم للعالم بالضحك والقهقهة بصوت هادر.

عن رحلة إلى البرلمان الأوروبي، وعن كتاب يكتبون البطاقات البريدية لسلطة غير مرئية كما لو كانوا يكتبون لـ"سانتا كلوز" !

عن كيف سحبت البطاقات البريدية الموضوعة في قبعة، وطلبت من المؤلفين أن يقرأوا واحدة منها بصوت عال رغم أنه لم يكن هناك مرسل إليه ليسمع ما كتبوه !

من دورتموند: عن منطقة صناعية مهجورة تحولت إلى قاعة عرض.

عن كيف تبدأ حياة الصالات المهجورة (ومضة كهربية، وصورة خطية للوجه، وصوت حركة ميكانيكية) بضغطة من أصبع الزائر على المفتاح.

عن كيف يشعر الزائر للمعرض وكأنه إله.

ويشير الكتيب الخاص بالمعرض إلى "هيوت إيست مورجان"؛ إذا

كان ذلك كذلك، فإن الواقع الافتراضي هو مستقبلنا !

من هانوفر: عن معرض "اكسبو".

من كالييننجراد: عن شاطئ "كورساجا"، والكثبان، وعن الفراولة المتوحشة، والطيور.

عن كيف قمت بتطويق رقبة طائر.

عن كيف أن لاكيروفكا - الطريقة التي ينكر بها السوفييت الواقع بطلائه بالورنيش كي يبدو أفضل مما كان عليه- قد أصبحت بشكل تدريجي أمراً واقعياً أصيلاً.

عن مزحة صربية تقول أن أحد الغجر قال لرجل بوليس صربي:

- هاي، أيها الصربيون، من ذا الذى يوجد هناك ويحبكم إذا لم نكن نحن الغجر؟.. "أوروبا الغربية التي هناك لتحبكم، إذا لم نكن هنا في كالييننجراد !"

من فيلينوس: عن فندق "ليتوفا"، والدعارة، والتجارة الأوروبية في اللحم البشري.

عن "السوفييت شيشينا" جهاز العقل السوفييتي، الذي يتناقض ظاهرياً، وكان الأكثر الأكثر تماسكاً وعناداً في مواجهة المحاولات الأكثر تصميماً على إبادته ومحوه.

عن مناديل المائدة الورقية في مطعم الفندق، مطوية في لفات

محكمة موضوعة في كل كوب؛ على الطراز السوفييتي.

عن عقد الدونية؛ وعن محو الأبجدية السلافية. . عن محو الماضي !

من ريجا: عن أكوام الملاءات، وعن الكهرمان والبيليمني والزلابية الروسية.

عن محادثة جرت مع سائق سيارة أجرة روسي حول التمييز العنصري الواضح ضد الروس !

عن سوق الطعام في ريجا .

من تالين: عن الكازينوهات. . صارت المدينة كلها عبارة عن كازينو.

عن الدعارة مرة أخرى، وعن كيف ينشط السائحون السويديون والفنلنديون والنرويجيون، العضو !

من سان بتسبرج: عن فندق "أوكتيابريسكا" .

عن النزهات الليلية، وعن نزهة بالمركب عبر نهر "نيفا"، وعن مرشدنا السياحي: طبيب العيون الذي يجني المال - بعد يوم عمل شاق في المستشفى- بشكل جانبي كمرشد سياحي.

عن سائق سيارة أجرة، محارب أفغاني قديم قال لي: (فيونا إيتو جرياز! . . الحرب قذارة!) .

عن المقاهي التي بلا حمامات !

عن التجول حول جزيرة "فاسيليفكي" إحدى الجزر المجاورة لسان بتسبرج، والصحف القديمة الباقية هناك، حيث لا يزال يمكنك شراء سجائر "بابيروس"القديمة ماركة "بيلومورسكي"، ومشروب "كفاس" الذي لا يصلح للشرب، والـ"بوبليكي" الذي لا يصلح للأكل، والحلوى الصالحة تماماً للأكل: بريانيكي؛ وبيشيني؛ وفاتروشيكي !

عن الحركة السريعة الخاطفة التي تمتلئ بالحنين للكعكات السوفييتية التي لا تزال تعد في مصانع الكعك السوفييتية (تورتات "براجا" لا زالت متوفرة!) التي تراها من خلال صندوق زجاجي للعرض.

من موسكو: عن موسكو مدينة التجار.

عن مرشد سياحي يستخدم الجملة المنحوتة حديثاً: طراز – ستالين.

عن كاتب من مورمانسك، وبطله الحي الذي قتل زوجته الخائنة بخنجر مخبأ في باقة زهور، وعن الصرخة التي أطلقها: آه أيتها الساقطة، لقد أحببتك كثيراً !

عن سوق الطيور، حيث اشتريت حق إطلاق سراح العديد من طيور الوقواق مقابل ٢٥ روبل !

عن المقاهي التي بلا حمامات.

عن موسكو، مدينة الزمرد.

من منسيك: عن المناظر الطبيعية في بيلاروسيا، وبيوت قرية صغيرة، والأسوار التي تتناثر حولها واحدة بعد الأخرى مثل معرض متنقل.

عن متحف "جانكو كوبالا"، ولغة خطاب أولئك الذين لا يملكون شيئاً.

عن جماليات الفقر (وصف الجمال والظواهر الفنية بواسطة علوم أخرى مثل علم النفس والاجتماع والتاريخ).

من بريست: عن الاستقبال الاحتفالي بنا، والإيمان بالمجاز الذي يمثله القطار.

عن الـ"فلاكيروفكا" (لاكيروفكا – لاكيروفكا !).

عن البجعات الدقيقة المصنوعة من مزيج من السكر والبيض المخفوق في كعكة محلاة تطفو فوق سلات من الفطائر الرقيقة.

من وارسو: عن علوم ماوراء الطبيعة.

عن كيف دائماً مظلاتنا الواقية، ولا نعبر أبداً تحت واحدة منها.

من برلين: عن كيف أنني، وبصورة غريبة، أشعر أنني في وطني.

العهد الجديد: البازار الأوروبي

أوروبا متعبة

استهلكت أوروبا نفسها خلال القرن العشرين في حروب، وأيديولوجيات، ويوتوبيات، والآن تقوم بما يجعل الناس أكثر سعادة إذا ما قاموا به.

تبدو أوروبا أكثر فأكثر كسوق مفتوح، أو يارماركا، أو معرض، أو بازار.

صار المال اللغة المشتركة لأوروبا والاتحاد الأوروبي.

المال هو اللغة الأكثر طبيعية على الإطلاق من بين كل اللغات.

ولا يزال أصحاب نظريات وأيديولوجيات الاتحاد الأوروبي يهذبون شعورهم على نمط الهوية الأوروبية (غير مدركين أن الهوية تتمحور دائماً بالمقارنة مع هوية أخرى، وهو ما فعلته أوروبا بحماس على مدى تاريخها)، وتقاس الرأس (الشاطئ الداخل في البحر) الأوروبية بالحياة نفسها.

ويؤسس الصينيون أوروبا الشرقية (بودابست لديها حي صينيٍ رغم أنها لم تطلق عليه هذا الاسم رسمياً)؛ ويشتري الألمان بيوتاً صيفية في السويد والبرتغال.. ويقتنص الهولنديين الشقق في موسكو؛ ويشتري الصربيون الشقق في بودابست؛ والإيطاليون في كرواتيا؛ وأهل موسكو في إيطاليا.. هكذا، لا تتحرك الهجرات فقط، من الجنوب للشمال، ومن الشرق للغرب كما تخوف علماء الديموجرافيا، لكنها تتحرك أيضاً من الغرب للشرق، ومن الشمال للجنوب، كما في

دوائر حول هذا وذاك !

من يمكنه الحفاظ على تسلسل الأفكار والحقائق من عينة الطماطم الهولندية، والزبادي الألماني، ومستحضرات التجميل الفرنسية، والأحذية الإيطالية؛ والتي احتلت أوروبا الشرقية ؟

هنا الاحتلال بمعنى حسي، ومثير، وممتع! فإن لم يكن كذلك فما كان أحد ليعترض عليه بالفعل.

المال شيء غير مرئي يحدث حفيفاً، ويصلصل، ويصب من جيب لجيب.

وبينما يبحث مفكرو أوروبا عن معادلة متجانسة "للرأس الأوروبية" يبدو أن أمريكا احتلت واقعياً أوروبا موحدة بحزم، وبشكل فوري "الشرق" و"الغرب" الأوروبي.. فلا يوجد اختلاف بين بائع السمك البرتغالي، ونادلة الحانة في البار العلوي الصغير في فندق "أوكتيا برسكايا"؛ فكلاهما يشاهد مسلسلات الست كوم الأمريكية، والمسلسلات المكسيكية التي تعالج المشاكل الأسرية بنفس الأنفاس المحبوسة؛ وكلاهما عندما يتكلم يعرف بالضبط ما الذي يتكلم عنه.

لقد عاشت الفكرة القديمة لأوروبا بوصفها مهد الحضارة والفن والثقافة في لينينجراد فقط (حيث تم تلقين وتغذية المواطنين فيها رموز الثقافة في اوروبا بجرعة زائدة من الثقافة)، وفي مورمانسك (التي

سافر منها كاتب محلي إلى حدود موسكو ليرى "الكتاب الأوروبيين") .

في نهاية الأمر، تدور الثقافة حول المال، تماماً مثلما الحال مع الدين.

ولم يتعذر على زملائي، المسافرين على متن قطار الأدب السريع ٢٠٠٠ فهم كل ذلك. . وتمثل هذا في التذمر من تصريحاتهم العامة المشتركة، ومن كل تدخل في الانخراط بالعمل السياسي، ومن العمل الجماعي الذي تعطى فيه اليد العليا للكلمات: الصورة، والدعاية، ولوبيٍ شبكة الانترنت، والإدارة، وفي نهاية الرحلة أصدروا تصريحاً عاماً مشتركاً . . كان التصريح في الأساس عن الطبيعة العملية لعمل الكاتب، وعن الصفقات المستقبلية (الترجمات) من لغة إلى أخرى، وعن أيديولوجيا بروكسيل المجمعة عن "التوحد من خلال التنوع" .

"أوستاب بندر" الذي لم ينجح في إدراك حلمه بالذهاب إلى ريو دي جانيرو أنهى تشرده بالكلمات :

"أنت لا تحتاج أن تصفق استحساناً لتطري علي ! . . أنا لم ألعب دور "مونتي كريستو" وسأغير مهنتي إلى مراقب أقفال للشقق" .

كل ما بقي كي أدونه، بحكمة، أن المعادل الحالي لـ "مراقب أقفال للشقق" هو: مدير !

أغسطس ٢٠٠٠

امستردام، امستردام
المدن مثل المعاطف

انتهى بي الحال منذ عشرة سنوات مضت، في أواخر أكتوبر، في نيويورك بلا حقائب أو معطف، لهذا اشتريت لنفسي معطفاً من نسيج صوفي ثقيل. . ما زلت ارتديه حتى اليوم؛ حوافه صارت متآكلة، وأبدو فيه مثل مراهقة في الخمسين من عمرها، لكنني لا أهمله، ولن أفعل، لأن هذا سيكون مساوياً لنبذ مرحلة حرجة من سيرتي الذاتية اجمالاً، وهي قصة طويلة سأرويها الآن.

هناك معطف آخر من الكشمير، أبدو فيه بالطريقة التي كانت أمي تتصورها عن السيدة التي تعتني بمظهرها، وقد منحته لسيدة عجوز دون أي شعور بالندم، رغم أنه كلفني ثلاثة شيكات من مرتبي الأسبوعي.

المدن مثل المعاطف.

بعض المدن مملة، وتمثل عذاباً حقيقياً لسكانها، باعتبارها مجرد بقعة حبر على الخريطة، أو ثقب في قطعة ضخمة من الجبن السويسري.

العلاقة بين معطف ومالكه علاقة شخصية؛ ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن المدن وسكانها. . لذلك عندما يقول أحدهم:

"أنا أحب لندن"، ويقول آخر، "أنا أحب باريس" فهما تصريحين في منتهى الأهمية، كل حرف منها بنفس أهمية وجدية أي تصريح رسمي يحمل التزاماً دينياً، أو عرقياً، او جنسياً، أو نمطياً . . وعندما يقول أحدهم: "أنا لا أحب كلاً من لندن وباريس"، ستدرك أنك تتعامل مع كاذب.

هناك مدن اشعر فيها أنني مجبرة على التورط في شئونها . . في مثل تلك المدن يرن في أذني صوت شيطاني ملح: سأحرك هذا من مكانه، وأهذب من ذلك !

في مدن مثل هذه أشعر وكأنني عمدة للمدينة اختار نفسه بنفسه.

وهناك مدن تصيبني بصدمة كهربية، وترفع نسبة الأدرينالين في دمي، وتصيبني بازدواج في الرؤية.

مدينة نيويورك واحدة من هذه المدن.

وهناك مدن يربط أطرافها نهر . . أترك النهر جانباً، فتتحول المدينة إلى لطخة أو شكل ضبابي غير متبلور . . بلجراد واحدة من هذه المدن.

وهناك مدن جمالها يتبدى في البشارة بالبحر والشاطئ؛ دعك من البشارة فلا يبقى منها سوى واحة ضخمة . . لوس أنجيلوس واحدة من هذه المدن.

وهناك مدن تجمع أشياء غير متوافقة بالضرورة معاً، مثل السلطة والجنون. . برلين واحدة من هذه المدن.

وهناك مدن لا تحتاج لأي شيء أكثر من مصعد في الواجهة كمظهر عصري لتضعها بين أكثر المدن في العالم جمالاً. . بودابست واحدة من هذه المدن.

إن جمال مدينة ما هو جمالها في عيون المشاهد؛ وكلما زاد عدد المشاهدين الذين يرونها جميلة، كلما زادت رؤى الجمال فيها.

أول تذوق للجمال

ما الذي يبدو جميلاً لطفل؟ . . لا أذكر الكثير من أيام طفولتي، لكني أملك ذكرى دقيقة عن الأشياء التي بهرتني، منها صورة على ورق مقوى بحجم كف طفل، على شكل تاج زهرة مثلجة بتلألأ، محفورة في ذاكرتي كأول صورة للجمال "المطلق" أصابتني بالدهشة.

أذكر كيف غرقت في كل تفصيلة في الصورة لساعات، في كل تويجة، وكل خط، وكل انحناءة في التاج، لا بد وأنني كنت في الرابعة من عمري وقتها.

اعطتني "أونتي تينكا" -كانت دارسة للأدب تطوعت للعمل مساعدة في حضانة المدرسة- التاج الصغير، من مجموعتها المتواضعة الخاصة من الأشياء الصغيرة المتلألأة اللطيفة. . كانت لعب الأطفال نادرة في هذا الزمن القديم. . ولم يعان الأطفال الذين ولدوا قبل

الحرب، أو أولئك الذين ولدوا بعد عام أو عامين من ميلادي من الفراغ الرهيب.

حصلت على أول عروسة في حياتي متأخراً جداً، وربما كانه هذا هو السبب في أن تاج الزهرة قد أثارت لدي شعوراً ما يشبه التسمم، لافتراض وجود أشياء أخرى شبيهة وعوالم أكثر روعة.

في طفولتنا استخدمنا الحلوى -طويلة ورفيعة والغير صالحة للأكل - مثل الحلي والزخارف لتزيين أشجارنا في الاحتفال بالكريسماس.. كان لتلك الحلوى غلافين: الأول مصنوع من ورق أبيض تبرز أطرافه الملتوية مثل ذيول طويلة؛ والغلاف الخارجي كان نوعاً من "الفويل" أو أوراق الألمنيوم.

كنا نأخذ الأغلفة الألمنيوم من على الحلوى بعد أجازات العام الجديد، ونفردها بحرص بأظافرنا حتى تصبح ناعمة تماماً.

كانت المربعات الرقيقة اللامعة بألوانها المختلفة- عادة كانت ذهبية- بمثابة ثروة حقيقية وكنا نسميها "ثروتي".

كنا نستعرض ونفحص مجموعات بعضنا البعض من أوراق الألمنيوم ونقول، "أرني ثروتك!"، ونتاجر فيها مع بعضنا البعض، وكان التعامل مع هذه الأوراق مثيراً لدرجة الشعور بالرعشة لا يمكن وصفها.. وكان امتلاك حزمة من أوراق الألمنيوم - في طفولة محرومة من اللعب- مثل امتلاك حفنة من الألعاب النارية.

قبل بلوغي السابعة من عمري كان هناك شيء تركني محبوسة الأنفاس؛ مخدة صنعتها جدتي من ابتكارها وطرزتها بخيوط ملونة، وحبوب فراولة حمراء كبيرة تتدلى منها، بعضها مختبئ خلف أوراق خضراء..

لا زلت أذكر تحديقي في المخدة لساعات رافعة الأوراق الخضراء من الخيوط المطرزة، وأفتح بأصابعي خيوط الفراولة الحمراء، وقتها كنت صغيرة، وكانت المخدة كبيرة !

أين ذهبت المخدة ؟!.. ليس لدي أدنى فكرة، ربما لم تذهب لأي مكان، وربما بقيت هناك على سرير جدتي وتوقفت عن ملاحظتها بعد فترة.

كانت هناك كرة زجاجية بها مدينة مصغرة تنام في القاع؛ وعندما تهز الكرة كان الجليد يتساقط داخل الكرة؛ وكانت تلك الكرة الزجاجية موضوعاً لأعمق خيالاتي، جمال حقيقي يخطف الأنفاس.

معبودات الجمال تلك - تاج الزهرة، والفراولة المصنوعة من الخيوط، وحزمة أفرخ الألمنيوم، والكرة الزجاجية- كانت بمثابة ثروات طفولتي المبكرة..

أذكر هذه الأشياء، لكن شعور الامتنان والفتنة التي أثارتها داخلي غير قابل للتفسير اليوم؛ مثل محتويات عش الغراب !

يمكن للمسافر الذي يهبط في مطار امستردام ليلاً أن يرى ميادين ذهبية من نافذة المطار تتلألأ في الظلام، حيث تبدو هولندا مرصوفة وممهدة بالميادين الذهبية.

هذه البيوت الخضراء: تخدع الزهور بينما ينام الهولنديون، وتومض تحت شمس اصطناعية.

ويمكن للمسافر في النهار أن يرى الرقع القرمزية، والحمراء، والصفراء، والزرقاء من حقول الزهور.

تذكرني هذه الميادين الذهبية والملونة بأفرخ الألمنيوم؛ ذلك البريق الذهبي لطفولتي.

أين يعيش الكبار

عندما كنت في امستردام لأول مرة (ذهبت هناك متأخراً كثيراً عن ذهابي لمدن أخرى في العالم) حبست المدينة أنفاسي، وبهرتني برؤية جمال لم أر له مثيل في حياتي مطلقاً.

أقول: "لم أرمثيلاً لها أبداً" لأنني بالفعل كنت قد ذهبت لمدن أخرى توصف بأنها جميلة.. فقد كنت في فينيسيا، وسان بتسبرج، وباريس، وفلورنسا، وفيرونا، ودوبرفينك، ونيويورك، وسان فرانسيسكو، وشيكاغو؛ لكن امستردام أثارت لدي شعوراً بالبهجة دون شروط..كانت بهجة من نفس نوع المخدر الذي أبقاني محدقة لساعات في مخدة جدتي، وتلك الكرة الزجاجية.

ذات مرة، جلست على دكة في حديقة في امستردام بجوار رجل عجوز يرتدي اسمالاً بالية، وكان يتناول قطعاً من خبز جاف من كيس صغير ويطعمها لبط غير مرئي.

وغمغم الرجل: - هل تعيشين في امستردام؟

- نعم، أعيش هنا . . ."

- البالغون لا يعيشون في امستردام. . .

- وأين يعيش البالغون؟

غمغم الرجل بالقول وهو يرمقني بنظرة عابرة :

- في مكان آخر. . .، وأضاف: في روتردام مثلاً. . . وابتسم ابتسامة عريضة.

أتساءل إذا ما كانت ذكرياتي، التي لا يعتمد عليها، عن مفهوم طفلة عن الجمال، وحديثي العابر مع رجل طاعن في السن في حديقة، قال فيه عن المدينة وعني أو عن الزائر لها أكثر من ذلك.

الجسد والفراغ

فتنت دوماً بكيفية ادراك جسد ما للمجال المحيط به.

هناك أناس يمشون في الشارع كما لو كان ملكاً لهم وحدهم؛ هؤلاء محتلون بالطبيعة؛ وبقوة قناعتهم الداخلية يجبرون العابرين الآخرين على إفساح الطريق لهم. . وهناك أناس يتخذون لأنفسهم مقعداً في الترام كما لو كان ملكاً خاصاً؛ وهؤلاء يتصرفون بحرية،

وهم جاهزون للصلاة في الترام، أو أكل ساندويتش، والتحدث بصوت مزعج في التليفون، ويختارون مقعدهم بعد تشمم ما حولهم كالكلاب، أو يضعون أقدامهم لأعلى على المقعد المقابل لهم ويدخلوا في إغفاءة قصيرة.

وهناك شباب يفسحون المكان حولهم بحقائب يعلقونها على ظهورهم منتفخة بما فيها، دافعين إياً من كان في طريقهم، ثم، وبهدوء كما لو كان شيئاً لم يحدث، يرشفون رشفة طويلة من زجاجات المياه المعدنية التي يحملونها في العادة.

أما النساء كبيرات الحجم فلديهن أكثر العلاقات رقة مع الأماكن العامة، ويتملكهن شعور دائم بالذنب؛ فهن مصابات بداء الشعور باحتلالهن لمساحة زائدة جدا!

أما الناس الأكثر نحافة والأقصر فلديهم شعور بأنهم لابد أن يحافظوا على إدارج أنفسهم على الخريطة العامة؛ ذلك أنه ليس هناك أبداً مساحة كافية لهم جسدياً.

يالمعنى المكان!..، تعد امستردام مكاناً غير اعتيادي، والقول الذي سمعته يقال في العديد من المناسبات، بأن امستردام مدينة بنيت بالتوافق مع النسب الإنسانية ليس صحيحاً تماماً، لكنه أيضاً ليس قول خطأ بشكل إجمالي.. كل هذا يعتمد على النسب الإنسان، أنا نفسي دائماً ما أضل طريقي في امستردام، وهو مالم

يحدث لي أبداً في مدن أخرى كثيرة.

عادة ما أفقد طريقي في امستردام، وهو دليل آخر على أن المرء يمكن أن يغرق في كوب ماء !

لـ أمستردام بنية مثل بنية الحلم، فقلب المدينة عبارة عن نسيج عنكبوتي نسج بصورة متداخلة. . لديّ مجموعة من الخرائط لامستردام، إضافة إلى بوصلة أطفال؛ ولم تساعدني الخرائط أبداً على معرفة أين أنا، فهي بلا فائدة. . الخرائط والبوصلات لا تساعد حالماً على تحسس طريقه من خلال الأحلام.

ربما تكون امستردام أقرب ما تكون لطبيعتها عندما يتماوج أو يتدحرج فوقها ضباب كثيف؛ عندها لا توجد حاجة للسائر لأي خريطة؛ إذ يبدو الضباب للسائر وكأنه مغزول بتلك القطط الضالة في امستردام، التي تزحف دائماً في الخارج هنا وهناك على واجهات المباني، مراقبة العابرين بعيونها الخضراء الرمادية من نوافذ البيوت، نائمة نوماً خفيفاً في نوافذ المحلات، وتشق طريقها ملتوية كثعبان عبر أقدام نادلي الملاهي الصاخبة، وتجوس حدائق امستردام، وفوق الأسطح.

تبدو المدينة عندما يكون الجو ضبابياً غارقة في عبودية تلك القطط، العشيقة الصامتة لها. . وعندما يتبدد الضباب من فوق المدينة، بالطريقة التي تلحس بها قطة أقدامها، تصبح امستردام مدينة

للحالمين.

يتبع الحالم خريطة أحلامه بينما يمشي، وتتمدد المدينة نحوه مقدمة يد المساعدة.. ربما تأتي كل هذه الحيرة حول طبيعة المكان من القناعة الصارمة لدى الهولنديين بأنهم يعيشون في بلد صغير؛ "نحن بلد صغير" جملة يسمعها منهم الأجنبي كثيراً.

هناك العديد من البلدان أصغر من هولندا، لكن سكانها ليس لديهم مثل هذا الشعور بأنهم يعيشون في بلد صغير.. وتقوم تلك الجملة "نحن بلد صغير"، مقام اعتذار عن كل أنواع الأشياء؛ فإذا علقت أثناء شراءك البيض في السوق بأن البيض يبدو صغيراً بعض الشيء، لسوف تجد نفس رد الفعل... "حسناً، كما تعلم نحن نعيش في بلد صغير..."

بلاغة

"بيت داخل بيت، لا يمثل بيت العرائس مجرد تمحور البيت حول التوتر بين الدوائر الداخلية والدوائر الخارجية، وبين الخارجي والباطني... بل أنه يمثل أيضاً التوتر بين أسلوبين من الباطنية.

إن احتلال حيز مكاني داخل فضاء محدد، والتناظر الوظيفي لبيت العرائس، هو علبة النفائس التي تحتوي التذكار أو الأعماق الدفينة للقلب: مركز داخل مركز، داخل داخل داخل".

امستردام هي بيت للعرائس.. بيت عرائس هولندي قديم،

واحد من تلك البيوت المبنية من القرن السابع عشر، إعادة انتاج دقيقة لمنزل المالك. .كانوا ينظرون إليه، لا ليلعبون به. . امستردام بيت عرائس مثالي وثمين. .

من أين تتأتى حاجة الشعب الهولندي الملحة لصنع الأشياء أصغر فأصغر ؟

اللغة الهولندية حافلة بصيغ التصغير؛ لابد أن التبادل اليومي للأشياء والصيغ شديدة التصغير هو معادل للتدفق اليومي من الأموال على تداولات البورصة في هولندا. . وتتفوق اللغة الهولندية – إلى حد بعيد– على اللغة الروسية التي اشتهرت بميلها لصيغ التصغير.

يمكنك أن تشاهد أصغر المنحوتات الشعبية في العالم في امستردام. . هناك تماثيل عارية للنساء على النمط الليليبوتي (ليليبوت جزيرة خيالية يقطنها الأقزام وصفت في رحلات جيليفر)، وتمثال لثمرة البطاطس، ومنحوتات متناهية الصغر من الأدب الهولندي الكلاسيكي، وتماثيل نصفية مزروعة في العشب من حولها، وعندما يسقط المطر تتكون حلقة من برك المياه تجعل رؤوس التماثيل تبدو كما لو كانت طافية فوق برك صغيرة. . وهناك زحافات صغيرة تنزلق بجذر فوق بحيرة "لايدسبلاين".

التصغيرات هي لغة امستردام. . صيغ التصغير تبدو مثل أعلام معروضة في نوافذ البيوت في امستردام: يمكنك عليها رؤية بيوت

امستردام متناهية الصغر.

بيت للعرائس داخل بيت للعرائس يشير إلى السر، بمثابة المجاز للبصلة بقلبها المغلف في طبقات، والمجاز لـ"ماترويشكا" الروسي.

أحياناً يهيأ لشخص يسير حول امستردام أن سكانها ينتمون لقطاع سري منخرط في نوع من السحر الأبيض يتمثل في الأشياء متناهية الصغر؛ التي تحمي سكان البلد الأصليين من الشيطان[3]. . ومن المؤكد أن سكان امستردام طوروا مدينتهم وتوسعوا فيها.

أحياناً ما يصل طول النساء الهولنديات لارتفاع مرتفعات الأمازون، لستة أقدام أو أطول؛ وعادة ما تكن أطول من الرجال الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية. .

من يدري؟ ربما كانت الأشياء متناهية الصغر اعتذار عن عدم التناسب الذي حدث على مر الزمن بين المدينة وسكانها. . ربما كانت الفكرة من وراء كل تلك الأشياء الصغيرة والتصغير اللغوي وغيرها لتهدئة المناخ، وهي حاجة تنمو لدى الهولنديين من خوفهم أن يعتصرهم المناخ، ويسحقهم أكثر فأكثر.

يعد أهل امستردام السكان الأصليين لأوروبا؛ وربما كانت فكرتهم المسيطرة ووسواسهم بالتصغير طقساً لا واعياً لإرضاء

---

[3] سوزان ستيوارت، عن الرغبة الشديدة، قصص عن التقزم، والتعملق، والتذكار، والمجموعات. مطبوعات جامعة ديوك ١٩٩٣، ص. ٦١.

الآلهة. . فإذا غضبت إلهة الماء ربما تلاشت امستردام (أرض البلاد الواطئة).

وربما كانت الأشياء متناهية الصغر اعتذار غير مباشر عن التطفل على الطبيعة واقتحامها الذي خطط له الهولنديون، واعتذار عن قرارهم بالعيش على أرض لم يكن مقصوداً بها أن يقطنها البشر الذين يمشون على أقدامهم من الحيوانات الثديية.

الحقيقة أن الآلهة نظرت للأمر من الجانب الآخر - أثناء عملية الاقتحام - لكن المرء لا يمكنه أبداً أن يعرف ما إذا كانت الآلهة قد نسيت.

اعتمد أهل بلدي الذي أتيت منه- على النقيض مما اعتمد عليه أهل امستردام-؛ على القابلية للتضخيم عندما يتحدثون.

"جودينا" (الشخص الذي يلاكم شخصاً ما)، و"زينيتينا" (امرأة لها نسب جسمانية سخية)، و"روسيردا" (يد مُلحِمة أو ممتلئة)، و"كوشيرينا" (بيت فسيح)، و"تيليسينا" (جسم مهول)، و"فوجنيشينا" (جندي ذا بأس). . تساعد تلك العملقة اللغوية أهل بلدي على الشعور بأنهم أكبر. . وكأناس "كبار الجسم"، يحصلون على خبرة أن الأجواء المحيطة بهم تعيسة وعدائية.

تساعد لغة التصغير أهل امستردام على الشعور بأنهم أصغر. . وكأناس "صغار الجسم" يصفون الأجواء المحيطة بأنها لطيفة، ورائعة،

وساحرة.

يبدو الأمر كما لو كان الهولنديون يعيشون الحياة في فيلم من انتاج بوليود (هوليود الهند)؛ حيث، كما نعرف جميعاً، يتحرك كل شيء باتجاه نهاية سعيدة منقوعاً جيداً، مثل السمك المملح، في أغنية ورقصة..

بينما التصغير يمثل الانغلاق، والشيء الداخلي من داخله، والمحلي، والثقافي بشيء من المبالغة، تمثل العملقة اللامحدودية، والشيء الخارجي من خارجه، والعام، والطبيعي بشيء من المبالغة.

إن لغة الخطاب التصغيرية تعبير عن الحاجة لخلق الأسرار في الأجواء المحيطة..

بنى الفنان العظيم، الذي يصنع الأشياء الدقيقة متناهية الصغر "هاجوب ساندالجيان" الذي كتب رسالة على خصلة شعر، ونحتاً لنابليون في ثقب إبرة، وحفر صورة لجبل آرارات على حبة أرز، وهو أمريكيٍ يعيش في أمريكا... على أية حال، لدي شعور أن قلباً هولندياً ينبض في صدر هذا الفنان الأرميني الأصل "ساندالجيان".

حلم بالطيران

على النقيض من بيوت العرائس الهولندية القديمة، ليست الدراجـــة مادة للنظر إليها بل للعب معها.. هذه اللعبة ماركة

مسجلة لمدينة امستردام، فبينما تبقى امستردام ساكنة على حالها تبدو أكثر عناصر الجذب السياحي لديها في حركة دائمة، علاوة على ذلك فالدراجة أكثر شيوعاً كعنصر جذب من لوحات رمبرانت، وفان جوخ، ربما لأن رمبرانت وفان جوخ ليسا محل جدل بينما الدراجة عندما توضع محل تساؤل يتوق كل هولندي من امستردام لإدخالها في قائمة قيم الحياة الأساسية .

أثناء وقوفك على الباب قائلاً لمضيفك عند انتهاء زيارته، مع السلامة، سيسألك:

- أين تركت دراجتك؟

بالتأكيد سيسأل هذا السؤال باعتباره سؤالاً منطقياً، تماماً كما يمكن له أن يتساءل إذا ما كنت تملك مظلة واقية للمطر في جو مطير. . وإذا أجبت:

- لا أملك دراجة

سيسأل:

- حضرت بدون دراجتك؟ !

- حسناً، أنا لا أملك واحدة بالفعل.

- لا تملك دراجة؟ !

سيصدم مضيفك حقاً . . الحقيقة أن أي ساكن في امستردام لا يستخدم الدراجة هو جنس بشري نادر! حتى لو قلت أنك

سائح، لن يقلل هذا من دهشة محدثك. . وعندما يسافر الهولنديون يحزمون دراجتهم في حقائبهم الشخصية، تصحبهم بركات خطوط طيران "كي. إل. إم." الهولندية. . ذات مرة قابلت امرأة هولندية ذهبت إلى نيويورك وكانت حاملاً في شهرها الثامن، وبدلاً من أن تطلب سيارة أجرة للذهاب إلى وسط المدينة فتحت حقيبتها، وركبت أجزاء دراجتها، وذهبت على متنها إلى مانهاتن !

لطالما كنت حذرة تجاه الأبنية اللغوية المركبة مثل الهوية "القومية" أو الشخصية "القومية"، لكنني أؤمن بالتعايش العميق بين الهولنديين والدراجة!. . أنا مندهشة من أن العلم الهولندي لا توجد عليه دراجة!. . وتحيرني حقيقة أنه ليس هناك بيت من الشعر في النشيد الوطني الهولندي عن الدراجة، رغم أن هذا أمر يمكن علاجه في أي وقت. . ولا شك أن الدراجة تعد،من منظور بيئي، أدق وسيلة ممكنة للتنقل، كما تعد، من منظور قومي، الشكل الأرخص والأكثر عملية على الإطلاق للتنقل؛ وفيما يتعلق بالفوائد الصحية بالتأكيد الدراجة هي أصح وسيلة للتنقل. . كما تعد الدراجة، من الناحية السيكولوجية، الشكل الأكثر إثارة للبهجة في التنقل، فلا يوجد شيء أكثر متعة من دفع بدال الدراجة؛ لذلك أنا لا أتذمر منها ؟. . ليست الدراجة ما أتذمر منه لكن: راكب الدراجة!.

استردام مدينة للمشاة. . إنها مدينة تعيش بعيداً عن التفاعل والإعجاب بالمشاة وعلامات عبور المشاة الجميلة. . يحتاج المشاة هناك للتوقف كل عدة دقائق، كي يأخذوا نفساً عميقاً، ويحدقون في واجهات المنازل، وانعكاساتها على صفحة جداول المياه، فالمشاة أناس راشدون ومنطقيون؛ وهؤلاء مجبرين على أن يطوفوا خلال شوارع استردام خلسة، يتملكهم الرعب! فمن الممكن أن يُشاهدوا مسطحين على جدران البنايات أو وهم يحاولون الإمساك بالبناية بالقبض عليها لمنعها من الانهيار، بينما يتلفتون في كل اتجاه- مثل الممثلين في فيلم صامت- لأن راكبي الدراجات يندفعون بسرعة ونشاط في كل الاتجاهات. . ويعد راكبي الدراجات غالبية متحركة من السكان لا تحترم أي قوانين للمرور.

إضافة إلى ذلك، باستثناء الأجانب والسائحين والمعارضين القلائل لراكبي الدراجات، الكل هنا هو من راكبي الدراجات. . يكفي أن تقف ساكناً، وتراقب السائحين العجائز وهم يعبرون الشارع. . شاهدت ذات مرة مجموعة من السياح انتظروا في مكان عبور المشاة، وتغير ضوء الإشارة من الأخضر للأحمر، ثم للأخضر، ثم للأحمر ثانية دون أن يستطيعوا العبور. . أخيراً أمسك بعضهم بيد البعض الآخر على هيئة كتيبة صغيرة شجاعة، وانطلقوا لعبور الشارع، وصدم راكب دراجة مجنون تشكيلهم بمرح، وفر من بين

السائحين البؤساء الذين تراجعوا للخلف، والتصقوا بالرصيف مذعورين.

أحياناً يكون هناك راكب دراجة، بعد أن يطارد قلبك ويرتفع بنبضه خوفاً إلى حلقك حتى يهلل فرحاً قائلاً: - آسف! .. بنفس الأداء المجود والمتميز بالبراءة الذي يعتذر به الأطفال في امستردام.

يبدو راكبو الدراجات في امستردام مثل النسخ العديدة من الآنسة /"جولش"، وهي نفس الآنسة التي صارت فيما بعد "الساحرة الشريرة: بالنسبة "للغرب"وهي تركب عصا المكنسة!

يُحَمِل أهل امستردام على دراجاتهم التليفزيون، وطاولات الكتابة، وأرفف الكتب، وأطفالهم، وزوجاتهم، وأصدقاءهم.. كما يُحَمِلون على الدراجات أجسادهم الطاعنة، والشابة، والسمينة، والنحيفة، والطويلة، والقصيرة؛ ويشعر المشاهد العابر أثناء مراقبتهم ببعض من التناقض.. ويبدو أهل امستردام فوق الدراجات مثل أهل الاستعراض الذين لا سبيل لإصلاحهم، ومن ناحية أخرى تبدو الدراجة بالنسبة لهم حداً أقصى لوعي المرء بحريته الشخصية.

لا يوجد مشهد أكثر إثارة للجنس من رؤية امرأة شابة ترتدي جونلة بها فتحة طويلة وهي تعتلي الدراجة، واضعة عجيزتها

الجذابة على مقعد الدراجة، منتصبة الظهر، محركة البدال ببطء، بينما تظهر الفتحة في جونلتها أفخاذها الرشيقة. . وتحمل النساء أطفالهن على الدراجة، وكذلك أطفالهن الكبار، مرتدين ما يظهر تفاصيل الموضة في الأزياء، وقبعاتهن، والزهور في السلات اللعوب لدراجتهن، وعشاقهن، وحيواناتهن الأليفة، بينما يحمل الرجال أجسادهم، وممتلكاتهم، وذرياتهم، ويقرأ العديد منهم الصحف أثناء قيادة الدراجة، ويأكلون الساندويتشات، ويتناولون القهوة في أكواب حرارية.

وقد شاهدت راكبي الدراجات يغنون بأعلى أصواتهم؛ وشاهدت اثنين على دراجة أحدهم يحركها والثاني يشير للآخر مستكشفاً المدينة التي يغزوها ويعتريه الشعور بالتفوق مثل جنرال عسكري. وتساءلت إذا ما كان هناك شيء يفوق مجرد الجاذبية الجسدية القاتلة؛ شيء ما طبيعي بين أهل امستردام والدراجة! . . فكل شخص هولندي لديه صباع - دون وعي منه- موضوع على عصا الفرامل طوال الوقت؛ كلنا يعرف ذلك. وإذا ما تتبعنا منطق الإصابات المجمعة، من الممكن أن نجد الهولنديين يدوسون على بدالات دراجاتهم بعناد وإصرار، والآمال تحدوهم بأنهم من خلال جهدهم المشترك سيسحبون بلادهم من تحت سطح البحر . علاوة على ذلك، بفضل دفعهم العنيد للبدال على الدراجة، سيأتي يوم ما

يمكنهم فيه إثارة عاصفة ستطلق مثل المنجنيق (آلة لإطلاق الطائرة من على سطح سفينة) بالأراضي الواطئة مثل القذيفة إلى مكان آخر تماماً، حيث يمكن أن تكون الأرض شاسعة وجافة.

عندما اتطلع من زاوية معينة إلى الدراجات في شوارع امستردام من خلف النافذة، تتبدى لي الدراجة مثل بديل لحلم ما.. حلم قوي مسيطر بالطيران.

كان الهولنديون في أكثر أزمنة ماضيهم مجداً شعباً له سبعة فرق بحرية دفاعية، ولديهم المسافرين بالبحر، وواضعي الخرائط، والمستكشفين، والتجار.. شعب وضع - من قبل العولمة بزمن طويل- العالم في راحة الكف.. على أية حال، أدركت أخيراً بومضة من حدس، أننا كنا بدأنا هبوطاً إلى "شيفول"، وكان النهار مشمساً، والبحر مخضراً متألقاً، ولمع في ذهني بالنظر من الطائرة خاطراً أنه إلى أي حد تبدو فكرة الأراضي الواطئة فكرة هشة ورقيقة مثل أرق شيكولاتة سويدية بالبسكويت.. ومنذ تلك اللحظة التي كنت أمشي فيها على أطراف أصابعي في شوارع امستردام كما لو كنت أمشي على البيض، أدركت أن قيادة دراجة رشيقة هي الوسيلة الأفضل على الإطلاق للسير فوق هذه الأرض التي تشبه القشرة.. كان ذلك عندما قررت شراء دراجة، وقررت علاوة على ذلك أن أفقد بعضاً من وزني. حتى الآنسة "جولش" لم

تعد قادرة على التحمل مثلي تماماً.

الظاهرة الاسموزية

تقع الطاولة التي أكتب عليها، في شقتي المؤقتة في مدينة امستردام، بالقرب من نافذة تطل على لوحة تتشكل من حديقة عامة. أحياناً تكون أفضل طريقة للمرء كي يتعلم شيئاً عن الحياة في مدينة ما هي أن يقيم في بقعة جيدة منها ويراقب، مستعيناً بطبيعة المرء المتلصصة لاختلاس النظر للأشياء، محولاً متعة التلصص إلى عمل من خلال مراقبة الناس.. في هذه الحديقة العامة يتسكع المتشردون؛ وهناك من يصطحبون كلابهم أو أطفالهم، وهناك الوحيدون، والعداءون، ومدمنو المخدرات، أو أولئك الذين لا مأوى لهم. وتتحرك في صباحات أيام الأحد التشكيلات المسلمة ببطء حول المكان: حيث يفسح الرجال الطريق، ومن خلفهم تمشي النساء بخطى خافتة ملفوفات في عباءاتهن من الرأس حتى أصابع القدمين. وفي الصباح الباكر، في شبه الظلام المخيم، ربما تخرج امرأة مسلمة شابة ممتلئة الجسم من أجل التريض بالعدو والتعرق لفقد الوزن وهي ترتدي غطاء للرأس. ويمكنك سماع دقات طبول آتية من الحديقة، عادة أيام الأحد؛ وعلى الفور يضبط العداءون عدوهم مع إيقاع الطبول. وفي يوم الاحتفال بتنصيب الملكة؛ عندما تكتسي كل الأراضي الواطئة لهولندا باللون البرتقالي، يذرع عجوز هندي الحديقة بخطى واسعة

وإباء مرتدياً عمامة برتقالية اللون.

وهناك مكان في الشارع الذي أعيش فيه بشكل مؤقت معهد يسمى معهد الضحك أو"لافينج انستيوت" . ومن النافذة تظهر الإعلانات عن الرجل الذي يقوم بتدريس الضحك فيه، مع بوستر لصورته، وكلما مررت بالمعهد تراقبني صورة الرجل، وهو رجل هندي بخدود ممتلئة، وابتسامة باهتة، وعيون حزينة. . أحياناً ما أضبط نفسي مندهشة أمام المرآة: متأملة نفسي وأنا أنظر إلى هذا الوجه الباسم بخدوده الممتلئة وعيونه الحزينة! واتساءل بقلق إذا كانت هذه حالة من الأوسموزسيس السحري التدريجي! . .هل من الممكن أن يكون وجه جاري، المدرس، قد نسخ على وجهي؟! وإذا كان هذا ما حدث، إيهما عندها، كان وجهي الأول، الوجه "الغربي" أم الوجه "الشرقي"؟!

تحتشد مدن أوروبا الغربية بـ"الشرقيين"، إذ تحتشد لندن بالهنود والباكستانيين، وتحتشد امستردام بأهل سورينام والمغرب، وتحتشد باريس بالجزائريين، وبرلين بالأتراك واليونانيين وحديثاً باليوجوسلافيين والروس وأهل بودابست، بالإضافة لأعداد متزايدة من الصينيين. . هكذا، صار الشرق في طريقه إلى الغرب؛ الهجرة المؤجلة المتوقعة بدأت بالفعل.

يأتي الشرقيون ويجلبون معهم آلات الفلوت، والدفوف،

والهارمونيكا، وأصواتهم غير التقليدية. وحديثاً حل الروسيون والمنغوليون محل الصينيين الذين أقاموا لسنوات تجمعاً احتكارياً في شوارع المدن الغربية، بأداءهم لرقصة "الكوندور باسا" . . يأتي الشرقيون ويجلبون معهم سلواهم المتباينة بغير نظام، وفلسفتهم المهووسة عن الروح، وقراءتهم للطالع والكف. . "آروم أونجيلوكيج زين؟" سؤال في وريقة صغيرة التقطتها من أحد أهالي امستردام "الشرقيين" . وقد وعدني السيد/فادجال، والأستاذ/بانجيان، والأستاذ/مصطفى، والسيد/جاديري الذي يمكنه حفظ كل تلك الأسماء الشرقية بشكل صحيح؛ وعدوني كلهم أن يحولوني إلى شخص متناغم (ترى كيف عرفوا أنني في حالة تشويش؟) . . يأتي الشرقيون ويعرضون أجسادهم الشيوعية السابقة – المعادية للشيوعية– للبيع . . كل النساء الأوكرانيات والبولنديات، والكرواتيات، والصربيات، ونساء مولدوفيا وتايي؛ والرجال البوسنيين، والألبانيين، والمقدونيين يمثلون البروليتاريا الجنسية التي تغمر الغرب، مثل المياه الجوفية الطافية التي تغمر الأرض. . يأتي الشرقيون ويجلبون معهم رقصاتهم: رقصهم الدائري، والشرقي، والتانجو، والصلصا، وجلدهم بالسياط واهتزازهم؛ ويهزون بعنف بإيقاعاتهم السريعة الغرب النعسان. . يأتي الشرقيون ويجلبون معهم بازاراتهم المتنقلة، وحُليهم، وعطورهم، وهداياهم التذكارية، وتوابلهم

الثقيلة.. يأتي الشرقيون ويجلبون معهم قبعاتهم التي تشبه قبعات الشحاذين: تزدحم روما مثلاً بالتشيكيين والرومانيين؛ أياً ما كان الذي دفعهم إلى إحتلال -أوروبا- مهد الحضارة.. يأتي الشرقيون ويعملون في كل أنواع الوظائف الشاذة: يهربون الببغاوات؛ ويُغسِلون الموتى.. يأتي الشرقيون ويجلبون معهم فيروسات الكومبيوتر. البلغاريون (آه، أولئك البلغاريين!) .. والبولنديين (أنظر من هنا!).. والروسيون (بالطبع، الروس قادمون!).. يبدو أن الشرقيون ليس لديهم شيء أفضل يقومون به من العمل القذر!

هل الغرب حقيقة هو الذي احتل الشرق أم العكس؟!.. هل من الممكن أن نشد طرفاً في حالة ارتخاء أصلاً؟.. هل من الممكن أن ندع الجدار ينهار، ذلك الجدار الذي حجب الرشق بعيداً عنا لسنوات عديدة، ونعتقد أنه لن يكون هناك أية تداعيات؟.. هل كانت أجهزة قياس الضغط الأسموزي تخفي شيئاً تحت الطيات؟.. ألم يلحظ أحدهم أن الشروخ تنتشر؟.. ألم ير أحدهم أن ما نُواجه به هو عملية سرية من الظاهرة الأسموزية المعولمة؟ ..ما هذا الذي يحدث لي؟.. هل لمعهد الضحك البرئ الذي يقع على بعد خطوات قليلة من شقتي علاقة بهذه العملية السرية؟ ..من الذي يضحك عليّ من هنا؟.. هل يمكن لأحد أن يشرح لي كيف يمكن أن يكون قدوم الشرقيين للغرب – من جنوب أوروبا، ومن يوجوسلافيا

السابقة- قد جعلني أبدو شيئاً فشيئاً، مع كل يوم جديد، مثل امرأة من الهند؟!

إن خطيئة كولومبوس تتضخم.. ذهبت باتجاه الغرب، وانتهيت في الشرق.. الانتقال من شرق امستردام إلى غربها لم يساعدني في كلا الاتجاهين: في الحالتين وجدت نفسي أكثر ميلاً للشرق.

محطة بنزين ومسجد

تلك الأيقنة (صنع الأيقونات عن طريق الرسم أو التصوير أو النحت) من محطة البنزين والمسجد، تغلف جوهر الحياة بدقة في الحلقة المدنية الرمادية التي تحيط بامستردام.. تبدو المناطق السكنية، التي تترابط في سلسلة مثل المفاتيح عبر خط المترو الذي يحيط بالمدينة دائرياً، متشابهة بشكل أو بآخر.. من الواضح أن المعماريين الهولنديين قد وقعوا نوعاً من الاتفاق السري أنهم لن يبنوا -أبداً- أي شيء ينافس في جماله مركز المدينة.. كل الأقمار المجاورة مصممة للوافدين الجدد؛ المجمعات الاستهلاكية المسماة "البرت هيجن"، ومدرسة تعليم قيادة السيارات (يحتاج الوافدون الجدد تعلمٍ كيفية قيادة السيارات)، ومحلات التنظيف الجاف للملابس، وأحياناً متجر لبيع الأدوات التكنولوجية (يشتري الوافدون الجدد أجهزة الفيديو، والثلاجات، والتليفزيونات)، ومتاجر للفاكهة غالباً ما يديرها أتراك.. هناك كذلك محلات للبراويز (عادة يديرها الوافدون الجدد،

وبذلك يمكن للوافدين أن يبرزوا صورهم؛ فالتقاط الصور يعني أنك تشعر أنك في وطنك)؛ وصالونات الحلاقة، ومحلات الأجهزة الثقيلة التي تبيع دهانات الحوائط والعدد اليدوية (يطلي الوافدون الحوائط، ويضعون الستائر المضلعة على النوافذ، ويعزفون على المكان بأصابعهم والمطارق والأشياء الشبيهة) .

مثل هذه المربعات السكنية (الأحياء ذات الطابع الخاص) عادة ما يكون لديها حديقة صغيرة، وساحة لألعاب الأطفال، وأرائك يمكن للوافدين الجدد من النساء الجلوس عليها وتجاذب أطراف الحديث بينما يراقبن أطفالهن، وبار للرجال. . وأحياناً يكون في هذه الحديقة نافورة ونحت لشيء أبدعه فنان اشتراكي، يفترض أن يكون من السهل تذوقه وأن يبدو جميلاً في عيون الجميع !

ولا يمكن الاصطلاح على أن الحياة في هذه الأحياء حياة ريفية؛ فالحياة الريفية لها عاداتها في النوعية والألوان؛ بينما الحياة في ضواحي امستردام مشوبة بجنون غياب اللون، وجنون الفشل الكبير!

كانت هذه الأحياء التي بنيت في الستينات بميولها الاشتراكية، تعد مكاناً مشمساً ونظيفاً وفسيحاً ومريحاً، بحيث تعيش قادراً على الوصول إلى جيرانك بسهولة؛ لكنها صارت الآن تجمعات مغلقة على أصحابها من المهاجرين في بحثهم عن حياة أفضل من المغاربة

والأتراك وأهالي سورينام الذين يحصلون على مذاق اليوتوبيا الاستعادية للمدينة. . وتؤسس الحياة في هذه الأحياء على ذوق الوافد الجديد بشكل لا يمكن إصلاحه؛ وهي كما كانت، في تلك الأماكن ذاتها التي تعود إلى ثمانية قرون مضت؛ أو هكذا يقولون.

الحياة في ضواحي امستردام يمكن أن تكون مثلها في أي مكان. وينتاب المراقب شعوراً بأن السكان قد ينزلقوا من مساكنهم حتى ينجون من الحريق، وينعمون بالرمال من خلفهم، وينطلقون إلى مكان آخر غداً، حيث ستكون هناك محطة بنزين ومسجد، لتقديم التحية للغرباء القادمين، وعندما تضربهم رياح قوية وتخفق في السراويل الطويلة للنساء المغاربة ويبتلع المراقب حبة رمل بين أسنانه، يبدأ الخيال في التحول إلى حقيقة.

مجاز فولتير

ينتعش الهدم والتدمير في الأماكن التي تكون فيها المحرمات في أقوى صورها. . لم يتهدم هنا الحق في الخصوصية، الذي يضعه الهولنديين في المقدمة باعتباره مبدأ أساسي لمجتمعه جنباً إلى جنب مع التسامح والديموقراطية إلى الحد الذي تهدم به في أي مكان في امستردام؛ فستائر المنازل لا تسدل أبداً! وأي عابر يمكنه أن يلقي بنظرة إلى داخل المنزل على الانفعالات والرغبات الجنسية بين سكانه، ويمكن للمختلس النظر أن يشبع رغبته عن طريق التلصص

على الأعضاء والممارسة الجنسية، ويمكن للذين لديهم نزعة للاستعراض عراة ارضاء نزعاتهم مع المشردين والمتسكعين في منطقة الضوء الأحمر، وتقدم العاهرات عروضهن خلف واجهات زجاجية للمارة، ويمكن استعراضهن مثلما يستعرض قارئ جيد كتاباً في شقته، علاوة على ذلك، يمكن أن تشاهد العاهرات مرتديات ثيابهن من الرأس للقدم، منتظرات لقدوم الزبائن، بينما يستغرقن في قراءة كتاب!

وعادة ما يعرض أهل امستردام مجموعة من الأشياء في نوافذهم، وفوق شرفاتهم التي تمنح مساحة لكل ما هو جمالي وأيديولوجي، وغيره من الأشياء المفضلة لساكني المدن. وتحدق اللعب، والدمى المحشوة بمواد لينة على هيئة الدببة، والزخارف، والبوسترات، والشعارات، والرسومات، والتماثيل الصغيرة، والمنحوتات، والأقنعة؛ كلها تحدق من نوافذ وشرفات المنازل في المارة.. ويعد التليفزيون المنتشر على امتداد العالم، أو ما اصطلح عليه بتسلية "الأخ الكبير"، الذي كان ابتكاراً هولندياً لا أمريكياً، مجرد محصلة منطقية للعملية التدريجية من تآكل الحق المدني في الخصوصية.

لم يعد المرء في حاجة اليوم لأن يعرض مقتنياته في النافذة ذات الستائر المفتوحة؛ كل ما عليه أن يفعل هو أن يجلس في أي ترام، من "أوستدورب" إلى "ليدزبلاين"، وسيعرف من خلال واحد من

العديدين من الأشخاص الاستثنائيين الذين يحملون الهواتف النقالة كل شيء يمكن معرفته عنهم. وعلى عكس "بونويل" ذلك المشهد السينمائي الذي يجلس فيه الناس فوق قعدات التواليت وهم يتحادثون حيث يدار مكان خفي يأكلون فيه شيئًا ما . فقد هذا المشهد غرابته!

الشيء الوحيد الباقي هو الحديقة. يبدو أن أهل امستردام استعاروا فكرة فولتير أنه في نهاية كل شيء آخر يمكن لكل شخص أن يزرع حديقته؛ فكل حديقة، مثل كل شخص، تختلف عن غيرها . هناك حدائق فيها عشب بلاستيكي أخضر، وبحيرات بلاستيكية شديدة الصغر، تسبح فيها ضفادع بلاستيكية؛ وبالطبع هناك حدائق قزمية، تهدد بأن تجتاح - بالحديث عنها ديموجرافيا- ملاك الحدائق القزمية والحدائق ذاتها . . أصبح الأقزام الآن أكبر فأكبر، ورغم ذلك تعد الحدائق القزمية رسالة ضمنية للعالم بأن هولندا بلد متناهي الصغر. وأياً كان من لا يملك حديقة يمكنه أن يؤجر واحدة. لذلك فإن المواقع الصغيرة المحيطة بامستردام بها أكواخ خشبية شديدة الصغر، وأرائك أمام الأكواخ، وزهور وخضروات وأحياناً شجرة متناهية الصغر.

لومانسترات

لومانسترات هو أكثر الشوارع المحببة لدي في امستردام، لأن

الأشجار فيه تبدو كما لو كانت - في اقتراع سري ما- اختارت هذا الشارع الأحب لقلوب الناس، وأظهرت الأشجار في لومانسترات أنه :

أ- يمكن لها أن تنمو عالياً لتصبح أشجاراً ضخمة في تربة هوائية مضيئة.

ب- يمكنها أن تنمو دون الحفاظ على أية قواعد أو قوانين.

ج- قوة الشجرة تكمن في تاجها وليس في جذورها .

هنا تنمو أشجار الجميز (القيقب أو الذلب الغربي) الطروب على جانبي الشارع، وهي لا تنمو بشكل مستقيم إنما بميل، وينحني تاج كل شجرة حتى يلمس السطح عبر الشارع برفق، وبعض تيجان أشجار الجميز تندمج مع بعضها مكونة قنطرة سخية. .

إذا ما قيس الشارع بخطوات الأقدام فإنه يمتد لحوالي ٥٣٣ خطوة، وإذا ما قيس بالدقائق اللازمة لعبوره، نجد طوله حوالي ١٤ دقيقة من السير، ويعتمد الوقت على السائر: إذا ما كان يمشي مستقيماً للأمام أم يحدق لأعلى في قمم الأشجار.

لومانسترات هو شارعي المفضل. وكلما نظرت لهذه الأقواس الخضراء من تيجان الأشجار، الشبيهة جداً بالبواكي المقنطرة للكاتدرائية بدأ ظهري يثير في الحكة، تماماً بين لوحي الكتف، فأرفع ذراعي ببطء مثل أجنحة، ثم وذراعيي مرفوعين أرفع رأسي

لأحدق في الجنات الخضراء فوقي. لست أنا وحدي من يفعل ذلك؛ فقد رأيت رجلاً ذراعيه مرفوعين، ورأسه مائل للخلف، ونظرته محدقة ومثبتة للأعلى بشكل مذهل وبشع ناحيتي.

كرنفال

تعتمد اللحظة التي تشتعل فيها حرارة الحميمية بين مدينة ما والزائر لها على الزائر ذاته. فقد انتهى المطاف بالسيد/ "زوران"وهو من أبناء بلدي في امستردام كلاجئ. وهو يقول أن امستردام صارت مدينته، فقط، في اللحظة التي بدأ يدرك فيها اختلاط الحروف في شوارع المدينة. قراءة حروف– ورقة شيكولاتة ماركة "مارس" تتأرجح في الهواء، أو كرتونة لبن مجعدة مكتوب عليها كلمة "ميلك" على جدار، أو زجاجة بلاستيكية صغيرة عليها كلمة "سبا" تتمايل فوق ممر مائي– كانت مقدمة لقراءته للمدينة. عندما قرأ، بدأت امستردام علاقتها الحميمة مع "زوران".

هكذا، يقرأ زائر امستردام كما لو كانت المدينة كتاباً، كتاباً يثير الحماس ويدعو للمتعة، لكن القارئ يشعر بوخزات من عدم الراحة سريعة الزوال إذ يبدو له أنه قرأ هذا الكتاب في وقت ما من قبل، لكنه لا يستطيع تذكر أين ومتى؟ فهي تبدو له مألوفة تماماً، ورغم ذلك غريبة جداً، وتصيبه الحيرة بين العالمين؛ العالم الذي يصطنع الإيمان به، والعالم الحقيقي الذي يظل منزلقاً من بين قبضة يديه.

وللحظة يغلق الكتاب. ثم يستعرض المشاهد التي رآها في شوارع امستردام على شاشة خيالية. الحواة الذين يبتلعون النار في "ليدزبلاين" .عازفو الموسيقى في الشوارع: المنغوليون، والروس، والتشيليون. راكبو الدراجات، الذين يدورون بشكل حلزوني عبر الشاشة، جاثمين فوق دراجات طويلة بعجلة واحدة. مواكب الشواذ الذين يمرون في الكرنفال على عربة ذات منصة. المراكب التي تنساب بالمنحرفين جنسياً (مرتدين ملابس الجنس الآخر)، والبحارة عراة الأفخاذ مرتديين كابات البحرية؛ من الذكور الذين يتعرون مثلما في عروض الاستربتيز. الاسكتلنديون، الذين يعزفون على آلة مزمار القرب "سينتركلاس" الهولندية، والقديس الراعي لبائعي التجزئة، والبحارة، والأطفال الصغار يمتطون حصاناً أبيض ويقذفون بقطع من بسكويت الزنجبيل الصغير المستدير.

فجأة، أنظر، كل شيء صارٍ برتقالي اللون، حتى الماء الذي يبقبق في النوافير يصبح لونه برتقالياً؛ ويحمل الناس بالونات برتقالية، ويرتدون قبعات برتقالية، ويتنفسون الهواء بعمق عبقاً برائحة البيرة، والبول! ويمشي رجال البوليس الهوينا على أحصنتهم. وتمر جنازة، وحافلات سوداء يقف عليها رجال بملابس سوداء، ويجرها خيول سوداء، ويمكن للمشاهد العابر التأكد إذا ما كانت هذه جنازة أم مجرد كرنفال أسود!

وتكتسي العاهرات بالقليل جداً من الملابس في واجهات العرض، وتتناثر الأدوات المثيرة للشهوة حول مكان العرض: العضو الذكري المطاطي من كل الأشكال والأحجام، وغيره من الأشياء الشهوانية التافهة. ويعلن الغراب البلاستيكي الكبير أمام متاجر صغيرة أنهم يبيعون الكعك . من بين حدائق امستردام حديقة في "سلومترمير" تدعى حديقة الأرنب؛ حيث تعيش الأرانب بحرية حياة بعيدة عن حياتهم الطبيعية. وهناك جيش من الفئران يطارد الأرانب، وتتسلل خلفهم – بكسل – قطط امستردام. وتسمى إحدى الحدائق حديقة "دينا" . . يجري أرنب قريباً ويغمغم لنفسه: أوه عزيزي، أوه عزيزي! لسوف آتي متأخراً جداً، هل يمكنك أن تصدق ذلك، ينتزع ساعة من جيب زائرة ثم يدخل في حفرة الأرانب. . وإذا هرولت الزائرة خلف الأرنب، سوف تنتقل هزة أرنب آخر موازية لامستردام إلى مدينة داخل مدينة، تنعكس مثل رسم خطي على وجه امستردام الأولى! لا أحد يعلم يقيناً عدد المدن الموازية المخبأة هناك داخل امستردام. من الواضح أنه لا أحد قد قام بإحصائها بعد .

اسمي "البرت"

أحب زيارة السوق المفتوحة. . السوق مكان روحي (آه، يا لها من كلمة ثورية!) . بمعنى آخر، ما هي أماكن العبادة بالنسبة للعديد من الناس؟ . . بالنسبة لي السوق هو مكان للعبادة . شراء سمك

طازج، وخضروات وفواكه طازجة، يمثل بالكاد مبرراً جيداً للسحر الغامض الذي يمثله السوق لي . السوق المفتوحة التي أذهب إليها مغلفة في ضباب من حبوب اللقاح التي تشعرني بالحمى، مع الروائح القوية للبهارات المثيرة للشهوة الجنسية مثل القرفة، والقرنفل، وجوزة الطيب، مختلطة بأريج شهواني للريح والملح!

يومض الجو في السوق ببريق أثواب القماش المورقة الشهوانية من الحرير والمخمل، والجوهرات الآتية من بلاد عبر البحار، والفضة، واللآلئ الأم لمحار اللؤلؤ المجزعة بشكل داعر، والقشور الفضية للسمك الطازج، ويبرق التفاح في السوق المفتوحة ببريق ذهبي، ويلمع العنب كما لو كانت هناك مصابيح صغيرة للغاية بداخل كل حبة عنب، ويبدو الجبن واللبن باللون الكريمي والأبيض مثل لون بشرة المرأة في لوحة "فيرمير" . . وتنتمي السوق المفتوحة،حيث أذهب، لزمن كانت الحيتان فيه تعتاد التخبط على الشواطئ الهولندية، عندما كانت النساء طويلات القامة بيض البشرة تسكرن غارقات في البيرة في البارات الهولندية.

عندما أسير حول السوق، يصبح سحر خيالاتي المتعلقة باللذة والمتعة فاسداً، وينتفخ داخلي شعور بعدم الراحة المضببة تدريجياً مثل الخميرة. هناك يرقد السمك الميت، ويبهت بريقه؛ نعم ما زالت التفاحات حمراء والخس أخضر لكن البريق زال. ويقف البائع في

ثيابه المهترئة تحت حواشي الخيمة يبيع الملابس المهلهلة المصنوعة من الأقمشة الصناعية والنايلون المجلفن قليلاً، كما يقف الباعة الجائلون لبيع تلك الأشياء التافهة هناك؛ ولا أحد يعرف الأسماء الصحيحة لما يبيعونه: قصافات الأظافر، وأدوات التقطيع، وزهر النرد، وممسحة الغبار، والأمشاط والفرش البلاستيكية، وباقات الشعر الصناعي من كل الألوان، وحكاكة للظهر بيد بلاستيكية صغيرة في طرفها . وهناك تجار الصابون، والشامبو، والكريمات، والحقائب الرخيصة، والزهور الصناعية، ولبادات للكتف، ورقع من النسيج للكوع المتآكل للملابس، والخيوط والإبر، ومخدات وملاءات الأسرة، والبراويز والصور، والمسامير والشواكيش، والسجق والجبن، والدجاج والطيور، والملابس التي تتحلل عند لمسها !

وهناك محل للجزارة اسمه "زويد" حيث يمكن للناس من يوجوسلافيا السابقة اشباع حنينهم إلى فنون الطعام في الماضي؛ أرجل الخنازير والحمل أو "الأجفار" المقدوني النكهة، والسجق الصربي، وزيت الزيتون الكرواتي، وحلوى"البلازما"، ورؤوس الكرنب الحريفة"سرما"في احتفالات العام الجديد، وتلك القهوة التي تجدها في كل أجزاء يوجوسلافيا "ميناس" والتي تنتج في تركيا، حتى أن لديهم في هذه السوق حلوى طفولتي :"نجرو"(منظفة الحلق) .

ويتصاعد الشعور بعدم الراحة ويتحول إلى حالة من الغثيان

الطفيف.

السوق المفتوحة هو المكان الذي سيري فيه الكبار الطعامٍ واللعب كذلك. لقد دفع العديد من أصحاب المحلات ثمناً غاليا ليحصلوا على مكانهم فيما يسمى بعالم أفضل، الذي وجدوا فيه ما يسمى بالكرامة الإنسانية، وقاموا بعمل طيب من أجل حقهم فيما يسمى بالحياة الكريمة، والحق في شراء السجق وباقات الشعر الصناعي وحكاكة الظهر ذات اليد البلاستيكية!

أعود ثانية عبر"البرت لوبيسترات" واستقل سيارة أجرة من الموقف في شارع"فرديناند بول" وأطلق العنان لدقائق أخرى لخيالي الحصري وأنا في التاكسي حول السوق. لست نادمة على كلفة التاكسي، فأنا أسمح لنفسي بتلك الرفاهية البسيطة؛ فسيارة الأجرة هي أسرع وسيلة لدي للعودة إلى ملاذي، للوصول إلى البيت.

من أين يأتي الشعور بعدم الراحة؟ وما هو الذي اسعى إليه بالفعل؟ . ذلك أن البديل الذي أملكه هو البرت الآخر "البرت هين"، وهي سلسلة متاجر مجمعة انتشرت مثل نبات معرش حول هولندا، وقد وضعت فيه المعايير بأكثر مما أرسيت اللغة؛ رمز الدولة المتمثل في العلم، والنشيد الوطني الذي يمكنه أن يؤسس المعيار. لا يتوان متجر"البرت هين" عن ربط نفسه بمتحف"ستيديليك"، وفي أن يصبح جزء لا يتجزأ منه. فبمجرد رؤية "مليفيتش" يذهب الزائر

لكافتيريا المتحف حيث يرى الحروف الزرقاء لـ"البرت هين"، ويتعلم الأجانب الكلمات الهولندية لأشياء يحتاجونها في قاموسهم؛ الخباز هو الخباز في الكتاب، والجزار هو الجزار، ونكهة الجبن هي نفس النكهة، لكن السوق المجمعة بالهولندية هي "البرت هين". وعادة ما يكون "البرت هين" هو المتجر الواحد والوحيد في التجمعات السكنية لمدينة امستردام، فهو الفضاء الوحيد الذي يتردد عليه الناس، فما الذي يمكنني عمله غير ذلك؟ فهم يضعون إعلانات صغيرة على لوحة الإعلانات في البرت هين، ويلاقون بعضهم البعض في البرت هين، كما يقضي الأطفال فترة الراحة في مدارسهم في البرت هين حيث يتناولون حلوى ما كوجبة خفيفة، ويتعلمون أثناء ذلك كل مهارات الكبار؛ كيف تضع عملة معدنية في الفتحة المخصصة، وكيف تجر عربة التسوق، وكيف تدفع حسابك عند الكاشير، وكيف تعيد عربة التسوق وتسترد عملتك المعدنية.

بينما أنا في طريقي بسيارة الأجرة أرجع بالذاكرة إلى طفولتي الاشتراكية المبكرة، حيث كانت كل أنواع الجبن اسمها "ترابيست"، وهو النوع الوحيد من الجبن الجاف الذي يمكنك شراءه، وظل الاسم قائماً حتى بعد ظهور أسماء أنواع أخرى، لكن في مرحلة بعينها كانت كل أنواع الجبن اسمها ترابيست؛ ففي ظل الفقر عادة ما يبقى شيء واحد رمزاً لكل الأشياء الأخرى، بينما في ظل الوفرة، يبقى

شيء واحد قائماً وممثلاً لكل الأشياء الأخرى، الفرق في الوهم أو الصورة البصرية الخادعة فقط.

الجسور

إذا كان وجه من وجوه امستردام كرنفالياً، يكون الوجه الآخر لها تأملياً. . فـ امستردام هي تأمل لكل ما هو من صنعها؛ نوعٍ من اللغز الذي يحتاج لحل، وهي مدينة فيها ممرات مائية تخلق نسيجا عنكبوتياً دقيقاً. فإذا وقف شخص "أ" أمام متحف"ريجكس"ويفترض به أن يقابل الشخص"ب"أمام"أوديكيرك"، كم يحتاج الشخص "أ" من وقت لملاقاة الشخص "ب"؟ أية ممرات مائية، وأية جسور عليه أن يجتازها؟ قد يبدو السؤال للوهلة الأولى نظرياً. السير المناسب خلال امستردام يعد نوعاً من التخريم العقلي، لأن مدينة كهذه هي صنيعة سادة التخريم!

هناك أكثر من ٤٠٠ جسر في امستردام. ويعد عبور جسر لحظة تأملية في ذاتها حيث ينظر العابر يميناً ثم يساراً، ثم للأمام مباشرة عند النقطة التي يتجه إليها، ثم يميل ليرى النقطة التي عبر منها؛ الفعل الحقيقي للعبور من شاطئ لآخر - بغض النظر عن قصر الرحلة- هو فعل تأملي في جوهره. . هناك من بين الجسور الأربعمائة جسور متحركة، تفتح عادة لتسمح بمرور القوارب؛ وفي هذه الحالة لا يوجد لدى المشاة أو راكب الدراجة أو راكب السيارة خيار سوى

الانتظار. . الانتظار موقف يومي موجز يجبرنا على التفكير، وأن نبطئ من تحركنا بسبب قوة أكبر منا . الانتظار الاجباري دعوة للإذلال، وربما التعاون والتسامح لأننا نحتاج أن نتوقف من أجل السماح لشخص ما آخر بالمرور.

وينظر المرء أثناء فترة الانتظار للقوارب- التي عند اندفاعها لم يكن حتى ليلاحظها- إلى وجوه الناس الآخرين المنتظرين، الذين لم يكن لينظر إليها لولا الانتظار، وينظر إلى البنايات المحيطة، وإلى السماء، وإلى أعشاش البط الطافي فوق مياه القناة. عندما يجبر المرء على انتظار كهذا سوف يسأل نفسه، إذا كان بالفعل في عجالة إلى حد بعيد في نهاية المطاف، وإذا ما كان الوصول إلى حيث يتوجه هاماً لهذا الحد، وكيف يمكنه إن أراد أن يغير طريقه؟ هل عليه أن يعود من حيث أتى؟ أو أن يذهب إلى أي مكان آخر؟

"ماجيري بروج" واحد من أقدم الجسور المتحركة في امستردام والذي أنشأ عام ١٦٧٠. دعنا نتخيل الآن أن – عالياً في السماء- من بين أشكال البيروقراطية الإلهية التي لا تحصى- هناك ملاك يجلس وهو مسئول عن تخزين أفكار المشاة، الذين كانوا في انتظار إنزال جسر"ماجيري بروج"حتى يمكنهم العبور للجانب الآخر، تخيل كيف يتداخل صوت بائعة خضر تسرع لبيع بضاعتها في السوق، مع صوت عاهرة حصلت في التو على أجرتها، مع صوت"بيتر"الأعظم

الـذي تحول إلى شـخص يتسـتر باسـم مسـتعار في امسـتردام، مـع صوت "جان ستين" الذي في طريقه لشراء المزيد من الطلاء ! إذا كان شيء من هذا ممكناً، لسوف يكون الأكثر تميزاً ومصداقية في تاريخ الحياة في امستردام.

المتحف

يعتبر مركز مدينة امستردام كلٌ متكامل. يمكنك دائماً أن تمسك بتفصيلة صغيرة من بيت العرائس وتمحوها، وتزيل عنها الغبار، وتعيد طلاء طاولة صغيرة في الدور الأول، وتغير الستائر الصغيرة جداً في الدور الثاني، ويمكنك أن تغير الواجهة الكاملة لبيت العرائس؛ لكن لا شيء أكثر من ذلك، لأن أي مشروع آخر سيدمر قيمة البيت، وأي تناول عنيف يمكن أن يحطم بنية البيت بأكمله. هذا هو السبب في أن أهل مدينة امستردام يقضون معظم وقتهم يستخرجون الحصى، حيث أنهم غرقوا عميقاً في الرمال، ويقومون بتسوية الرمال ثم يضعون الحصى ثانية بالضبط حيث كان من قبل.

وبمرور الوقت يتصرف بعض سكان المدينة، مثل المتطوعين في المتحف. بعضهم يصبح مثل قطع معروضة في المتحف على صورتها الأساسية، بينما يصبح آخرون الأوصياء على المتحف، وتعود عروض المتحف البشري، إلى الستينات المجيدة، في الأيام التي كان الزمن فيها لا يزال فياضا؛ إنهم رجال ونساء لهم شعر طويل رمادي

الآن، وأطفال الزهور الكهول من بقايا الطالب الأوروبي الذي يعيش على رواتب الرفاهية السخية، وعازفوا الروك آند رول السابقين، والمحتلين الطاعنين في السن ومدخني الماريجوانا . تلك النماذج التي عرضت بتباه وجوهها الذابلة حول المدينة التي نجد فيها - كمثل التقلص اللاإرادي - وقاحة شبابية متحجرة. في ذلك الزمن تشبث أمناء المتحف الآخرون بالفحش، ودمر السائح اللا أخلاقي مركز المدينة، وحط النمط الاستهلاكي من شأن الماضي الهولندي الذهبي.

ربما كان هذا الجانب من متحف امستردام، بعيداً عن سمت الأبهة، هو الذي أهدر الطاقة التي حفزت الدوران حوله بين زواره. . يحصل المهاجرون الجدد - الآتون من أجواء صادمة حيث الحياة غير مستقرة ولا يمكن التنبؤ بها - على الثقة الهادئة للحياة، في متحف يدعو للسكينة والهدوء بصورة غير عادية. هناك، على هذا الجانب الآخر، نجد العديد من أهل امستردام الذين يعانون من رهاب الاحتجاز (الخوف المرضي من الأماكن المغلقة أو الضيقة) كما لو كان مرضاً وبائياً . تصبح أمستردام بالنسبة لمثل أولئك الناس في متناول اليد إلى حد بعيد خلال شهور قليلة. ويهاجر أولئك الناس مؤقتاً لبلدان أخرى، رغم أنهم يُقنِعون حالتهم العُصابية بأسباب جادة؛ وتعرف هذه الهجرة المؤقتة ب"الأجازة المقدسة" أو"فاكانتي"،

أو زيارة لوطن ثان في فرنسا أو البرتغال أو أسبانيا أو أي بلد آخر، وإذا لم يستطيعوا القيام بتلك الأجازة، يتقدمون لقائمة انتظار طويلة لشراء شقة في امستردام جديدة تماماً، مدينة لا تزال في انتظار اتمام بناءها؛ ومن وجهة نظر عقلية ينشئون الحدائق الطافية قبالة منازلهم المستقبلية فيها. وإذا لم يستطيعوا القيام بذلك أيضاً، يجلس المرضى برهاب الاحتجاز في فصول رخيصة، عادة ما يقيمها المهاجرون للحصول على دورات في تعلم الرقص الشرقي المصري، أوالتانجو الأرجنتيني، أوالغناء الفولكلوري البلغاري، أواليوجا الهندية، أو الرقص الصربي الدائري.

عزيزتي/ آن . . .

هناك أمر تفصيلي أنا واثقة أنني اشترك فيه مع العديد من الناس، وهو أمر يرتبط بطفولتي، لم أعد اتذكر متى؟ ربما كنت في الفصل الخامس او السادس الابتدائي عندما قرأت مذكرات "آن فرانك" . . قضت بطلتي الفتاة الصغيرة"آن"أيامها مختبئة في منزل بامستردام، وقد سيطرت لزمن طويل على خيال طفولتي، وذهب فصلي بأكمله، بعد أن أنهينا الفصل الدراسي السابع، في رحلة للتخييم في معسكر لمدة شهر؛ وكتبت مذكراتي في المساء على ضوء كشاف ضوئي، مختبئة عن الآخرين. كنت أخمن فقط من يمكنني أن آتمنه لأبوح له

بمشاعري العاصفة وقتها . لم استطع أن أوجه الكلام لنفسي في كراسة مذكرات جامدة، واحتجت لشخص ما أكتب إليه، وكانت أكثر شخصية طبيعية هي شخصية كتبت بنفسها مذكراتها، وقريبة مني، وبذلك صارت "آن فرانك" محاورتي الخيالية.

لابد أن هذه كانت الكيفية التي كتبت بها مذكرات طفولتي:

عزيزتي"آن"لن تصدقي ما حدث لي اليوم . . .

فيما بعد، شعرت بالعار مما كتبت، واختفت كراسة الذكريات تلك بسبب العار؛ ولم احتفظ بمذكرات بعدها أبداً. من يدري؟ . . ربما كان ذلك بسبب شعوري بالعار من الحرية التي واتتني حتى أخاطبها بكلماتي التافهة عن طفولتي السخيفة، وبذا كانت مُخاطباً"غير مناسب"حفزني أن أصبح كاتبة. . ظلت"آن فرانك"مختزنة بعيداً، في الصندوق الذي احتفظ فيه بمتعلقاتي الأكثر حميمية، التي يوجد للعديد منها ارتباطات مظلمة بالعار الذي لحق بي، والتي لم اتمحور حولها أبداً. استخدمت كلمة"غير مناسب"لوصف المخاطب في مذكراتي، رغم أنني لست متأكدة تماماً من وجوب استخدامها. تركت معرفتي بـ"آن فرانك"إذن مغلفة طابع الطفولة عن مذكراتها التي برزت منها الحقيقة – أو ربما أخفيت فقط – عن موتها، فالنسخة الكاملة من مذكرات"آن فرانك"صغيرة، وشبيهة بالطبعة الخاصة بالأطفال من"سنو هوايت"، مع إضافة

زوجة الأم آكلة لحوم البشر، وقرأتها فقط عندما كنت بالغة وصرت أعرف بشكل كامل مرتبطة بمصير "آن فرانك"، لكني أهملت حقيقة ما حدث لها .

فيما بعد بكثير، وتصادف أن عرفت أنها لم يتم انقاذها في الواقع، فقد انتهت حياتها - مثل معظم رفاقها من أهل امستردام اليهود- في معسكر الاعتقال. فقد لعبت امستردام - كما العديد من المدن في اوروبا- دوراً هي الأخرى في الظلام والتاريخ المُخزي لخياناتها مواطنيها ! ولا يمكن أبداً استعادة الحياةوالثقافات التي مُحيت، وهذا هو السبب في أن أوروبا مليئة بالمتاحف التي صممت كأماكن من العار الجماعي . إن عملية تحويل العار إلى متحف هي أحد أشكال التطهر والتكفير عن الخطايا .

دائماً ما اتساءل ما الذي يمنح السياسيين الأوروبيين، والناس في السلطة، ورجال الإعلام، والمفكرين كل هذه الثقة في إصدار الأحكام على أخلاقيات البشرية، والفصل في النزاع حول أشياء مثل الديموقراطية وحقوق الإنسان، والقيام بذلك الدور بصورة اعتيادية تماماً في مناطق أجنبية عنهم: في أوروبا الشرقية، وفي البلقان، وأفريقيا، وآسيا . اتساءل من أين يحصلون على اليقين في حقهم في الفصل في المنازعات؟ . . هل يأتي من وعي بالجريمة التي ارتكبتها أوروبا منذ عقود قليلة فقط؟ أم من نسيانهم لتلك الجريمة؟

لازلت غير متأكدة إن كانت طبعة الأطفال من مذكرات"آن فرانك"قد ذكرت فعلياً حقيقة موتها، أم أن عقلي الباطن كطفلة هو الذي أبقى على"آن فرانك" في نوع ما من سجن الإهمال والنسيان (موطن الأرواح التي تحرم من دخول الجنة بدون ذنب اقترفته) كما لو أنها لم تكن ميتة بالفعل، ولا حتى حية تماماً !

obeikandi.com

قالت الفراشة، "من أنتِ؟"

اتساءل إذا ما كانت هناك صلة ما بين مهارتين مختلفتين: قيادة الدراجة والمحادثة. هل فقد أهل امستردام بتنميتهم لإحدى المهارتين قدرتهم على التعامل مع المهارة الأخرى؟ ذلك أنني لم أقابل في أي مكان آخر أناس أكثر حيوية ونشاط منهم فوق الدراجة وأقل منهم رشاقة في الحديث.

لقد شحذ الروسيون مهاراتهم في الحديث لقرون في الصالونات، وفي المنازل عبر الشتاءات الطويلة، وفي منازلهم الصيفية، وظلوا يمارسون نوع المحادثة الروسي النموذجي المعروف (رازجوفوري بو دوشام) في المعسكرات، والطوابير الطويلة التي تمتد أحياناً لساعات، وفي المساكن المشتركة (كوميوناليا كفارتيرا)، وفي حياتهم السفلية (بودبوليي) في تجمعات حفلات الأنس والسهر الصاخبة المخمورة، يدخنون فيها ويتحدثون عن الحب والمرارة، وكانت مهارتهم في الحديث تقف على قدم المساواة مع الأدب الرفيع، ودائماً ما استحق المتحدث الحماسي منهم الاستحسان والإعجاب من المحيطين به..

الحقيقة أن الروس كان لديهم – كتشجيع منهم لتطوير مهارات الحديث – شيئاً ما لم يعودوا يملكونه اليوم: الستار الحديدي، ولا نهائية الزمن!

ويعد الإنجليز والأمريكيون الأفضل في مهارة الحديث الخفيف ويسمونه الحديث القصير، وهو حديث يمكن أن ينمو في أي مكان؛ في الأتوبيسات، وفي الأروقة الأمامية للبنايات، وفي الشارع، وفي إشارات المرور، وفي المتاجر. إن هذا النوع من الحديث هو هبة الحياة اليومية، وهي تمنح مجاناً. فالحديث القصير يرفع الروح المعنوية للمتحدثين به.. نحن لسنا وحدنا في هذا العالم، ولا نحن ضائعون، فكثيراً ما ترحب بنا ابتسامة أحدهم والكلمات الحارة من أحدهم في كل ركن نمر به.

تجربة الحديث مع بعض أهالي امستردام قد تجري أثناء زيارة طبيب أسنان، حيث سيكون من الصعب أن تتخيل مريضاً يثب على طبيب أسنان ويسحب من يده المثقاب. أثناء تلك المحادثات المؤلمة سألني المتحدثون معي ما هو اسمي، من هم أبي وأمي وما هي اسماءهم، وهل هم أحياء، وماذا يعملون وأين يعيشون، وهل لدي أخوة أو أخوات، وهل لدي أطفال، وأين ولدت وما هو رقم تليفوني، وإلى أين سأذهب في أجازتي ومتى سأعود، ومتى سأكون في أجازة مرة أخرى. لا يبدو على المتحدثين معي - أثناء الحديث- أنهم يلاحظون حبات العرق التي تنفصد من وجهي، ولا يبدو أنهم يجيبون بالفعل على الأسئلة التي سألتها لهم في المقابل!

من يدري من أين اكتسب أهل امستردام هذا الأسلوب في

الحديث؟ . . ربما كانت خبرتهم بالحديث القصير مثل خبرتهم بركوب الدراجة؛ حيث الشيء الوحيد الذي يعني راكب الدراجة هو دفع البدال والتحكم في المسافات! ربما كانت تلك المناظر الطبيعية أو تصوير جمالها هو الذي يملي عليهم هذا الأسلوب وهذه الألفة بالنسبة لسكان الأراضي الواطئة، ذلك المنظر النظيف والمفتوح بلا عوائق. وربما، من يدري؟ كان هذا الأسلوب رد فعل انعكاسي يستتار بشكل لا واعي يصدر عن سكان بلد كان ذات مرة إمبراطورية؛ وقد احتلها المهاجرون الآن! ربما كان هناك شيء مرئي مكتوب على صفحة وجهي، رغم أنني أنا نفسي لا أعرفه، عن شوقي للحديث عن نفسي، وأنهم، أهالي امستردام الحساسين، يستجيبون ببساطة لهذا الشوق.

أيا كان الحال، بعد أن مررت بعدة مناسبات من مثل تلك الأحاديث القصيرة، بدأت احمل معي قائمة بالإجابات كاحتياط واجب، وبمجرد أن يبدو لي أن شخصاً ما ميال للدخول معي في حديث خفيف وأشعر أن الحديث يتجه في هذا الاتجاه أناوله القائمة في صمت، ثم أراقبه وهو يتمعن في الإجابات بينما ينفث دخان سيجاره، ثم يضع القائمة وينظر إليّ صامتاً لبعض الوقت، وإن كان يسحب السيجار من فمه ويخاطبني بصوت واهن ناعس: "من أنتِ؟" وأجيب، "بالكاد أعرف سيدي من أنا بالضبط في الوقت

الحاضر، لأن أقصى ما أعرفه هو عن من كنت عندما صحوت من نومي في الصباح، لكن اعتقد أنني لابد قد تغيرت عدة مرات من وقتها".

الكعك المحشو

"جيفولد كوكي"، هو كعك عادي مستدير يبدو عند عرضه في قسم المخبوزات كما لو كانت خدوده الريانة محترقة بأشعة الشمس قليلاً، وتلك الكعكات الصغيرة إما ذات حرف ناعم أو على شكل زجزاج، وهناك نوع منها به لوزة مضغوطة في المنتصف تبدو مثل زرار كبير الحجم. . إجمالاً هذه الكعكات هي نوع من الفطائر، لايوجد ما يميزها عن كل أنواع الحلوى المنزلية الأخرى، لكن قلبها يومض -عندما تنكسر قطعة منها- بتألق عجينة اللوز والسكر وزلال البيض الثري. ويعد هذا القلب المكون من عجينة اللوز والسكر وزلال البيض، الذي يندس داخل القشرة الخارجية بمثابة مجاز للماضي المجيد لهولندا ولأهلها من المشاهير مثل "اسبينوزا"، و"ايراسموس"، و"رمبرانت"، و"فان جوخ"، وكل هؤلاء الباحثون، والملاحون المسافرون بحراً، ورسامو الخرائط، والبنائون، والتجار، والحالمون، وجيش من المشتغلين بالكيمياء القديمة المجهولين الذين أخرجوا الأرض من تحت الماء !

تقبع داخل الكعك - بقلبه المكون من عجينة اللوز والسكر

وزلال البيض- قوة واستمرارية التاريخ الهولندي، والملابس السوداء الكالحة التي ارتداها الهولنديون - في القرن السابع عشر- محدداً بأكثر أنواع الفراء فخامة، والمنازل الصغيرة على امتداد الممرات المائية التي أخفت ثروات هائلة. فالكعك المنزلي الذي يمنح بصورة غير متوقعة حشوه الثري والفواح هو نسخة من كعك مدينة امستردام، إذ تملك امستردام هي الأخرى قلباً من عجينة اللوز والسكر وزلال البيض؛ بينما تبدو أطرافها قذرة وغير مميزة. وكلما قضمت الكعك استدعي حقيقة أن امستردام قد ولدت منها امستردام جديدة؛ واحدة من أكثر مدن العالم جمالاً، بمعنى آخر الأفقي ولد الرأسي، لأن امستردام الجديدة هي نزوة أو خيال جامح يتسم بالعربدة من قريحة امستردام، أو أنها ما لم تتمكن امستردام من أن تكونه أبداً !

وتعانق امستردام العشب الأخضر كورقة نبات طازج ورقيق كالحلزون؛ أو مثل"مانزو"وهو خبز عيد الفصح اليهودي، بينما تحلم بمدينة تحلق باتجاه السماء حتى تعانق السحاب. امستردام هي أوروبا، بينما امستردام الجديدة هي أمريكا !

يختار المرء أحد مقاهي امستردام المهيبة ذات النوافذ الكبيرة المرسوم عليها صور، ويجد لنفسه ركناً يطل على جدول ماء، وبصحبته جريدة ملقاة على الطاولة، وفنجان من القهوة الساخنة،

ويقضم كعكاً محشواً بينما يحدق في المارة من حوله، ويقرأ مقتطفات من الجريدة. عندها يبدأ في الشعور بأنه يتحول تدريجياً إلى منظر طبيعي من مناظر امستردام، وربما شعر فجأة - مدللاً بفكرة أنه مسافر عابر- بأن هذا المنظر الطبيعي بأكمله ملكاً له في الحقيقة، وعلاوة على ذلك أنه كان دائماً ملكاً له لكن لم تسنح له الفرصة من قبل أبداً لمعرفة ذلك.. وبسهولة يشعر هذا الزائر بنفسه غارقاً في منظر طبيعي بمثل شعوره عندما يغوص في كرسي مريح . وربما يدرك الزائر، علاوة على ذلك، مفهوم أنه ربما يحق له التريث متكاسلاً على ذلك الكرسي المريح؛ وفجأة لا يستطع تذكر سبب واحد يفرض عليه أن يقوم من على كرسيه ويذهب.

إذا كان الزائر للمقهى امرأة، ربما تصادف أن تشعر ببعض الحيرة والارتباك، فتخلع حذاءها لترخي قدميها اللتين تؤلماها، وعندما يكون عليها أن تغادر، ربما بحثت عن حذاءها بينما أقدامها ما زالت أسفل الكرسي، وربما تصادف أن لا تجده. سوف تسأل المرأة النادل:

- عذراً، هل رأيت حذائي؟

بعد أن تقوم وتترك الكرسي الذي كانت تجلس عليه وهي تمعن النظر حولها في جميع الاتجاهات.

- ما شكل حذاءك؟

وتجيبه:

- خف باللون الأحمر الداكن.

وسوف يقول لها النادل، بعد نظرة سريعة حول المقهى:

- لا لم أره، آسف! .. وسوف يسألها بتعاطف:

- ماذا ستفعلين الآن؟

وسوف تجيب المرأة بهدوء:

- لن أفكر في الأمر كثيراً، كنت أفكر في التخلص منه على أية حال!

عندها سيقترح النادل بطريقة ودودة:

- هناك محل أحذية بالقرب من هنا عند الناصية، حتى لا تذهبي للبيت حافية.

وسوف تجيب المرأة:

- أولاً ساشتري زوجاً من الأحذية، ثم منزلاً، وبذلك يكون لدي بيت أذهب إليه!

هذا، أو شيء شبيه به إلى حد بعيد هو ما جرى معي. أنا أتحدث هنا عن تجربة ذاتية.

٢٠٠١

obeikandl.com

obeikandl.com

أظافر الولايات المتحدة

أزعم أن رجلاً لديه احساس، يمكن أن يمنح اظافره اهتماماً . . لماذا يتعارك المرء مع رجل جيد التهذيب ؟ . . مع بعض أقرباء المرء تسود قاعدة الزبون على حق.

الكسندر بوشكين، يوجين أونيل، الفصل الأول، مقطع ٢٥.

حقيقة لم تعد الأشياء كما كانت عليه. . لا يمكنني أن أشير بدقة متى وصل الفيتناميون: إذا كان بعد ١١ سبتمبر أم قبلها، لكني أعرف أنهم لم يكونوا موجودين قبل سنتين. لكن عندما زرت نيويورك هذا الربيع لاحظت على الفور أن المنظر الطبيعي قد تغير في شارع ٧٦ وفي "سكند أفينو" حيث أقيم دائماً. كان سكند أفينو والجزء الأغلب الباقي من المدينة مترعاً بلافتات"الأظافر" . . بدت نيويورك كما لو كانت قد سقطت من فوق"المقاعد الإثنى عشرة" في رواية إلف وبيتروف. . تبدأ الرواية بالتعليق عن أن هناك العديد والعديد من محلات الحلاقة والمدافن في البلدة القروية [إن] حتى أن السكان بدوا وكأنهم ولدوا ليحلقوا ذقونهم، ويقصوا شعورهم، ثم يرشرشون بماء الكولونيا، لكي يموتوا بعدها ! . . صار أهل نيويورك مسلوبي

الألباب ومبتهجين بالعناية بأظافرهم؛ أظافر اليدين والقدمين. بدأ النوييوركيون"يهذبون أظافرهم"، والفيتناميون هم الذين يهذبون لهم أظافرهم.

حيث أنني واحدة من أولئك المؤمنين بأنك يمكن أن تعرف الكثير عن الاتجاهات السياسية المحلية والعالمية في محلات الحلاقة وتصفيف الشعر وفي سيارات الأجرة، ذهبت من فوري إلى أقرب محل روسي لتصفيف الشعر. لقد أتت البلدة الريفية [إن] إلى نيويورك؛ على الأقل فيما يخص صالونات مصففي الشعر.

كان انطباعي الأول أن معهد تعليم تصفيف الشعر في سبيله إلى الانهيار، وأن أحداً لم يكن يتكلم في السياسة. اكتشفت هذا أثناء نزهة صباحية – فيما يخص اللغة الروسية التي انطلقت من زمن طويل من حي الأقلية الروسية في نيويورك حيث انتقلت من شاطئ"برايتون"إلى"فيفث أفينو". يخرج رجال الحراسة بزيهم الموحد من المباني الفخمة في سنترال بارك وهم يتحدثون الروسية، ويبقون طويلاً يتحادثون، ويتحدث سائقو سيارت الليموزين البراقة بالروسية أيضاً. نعم لم تعد الأشياء كما كانت عليه عادة.

سألني سائق سيارة الأجرة مقطباً جبينه بشاربه الكث وحواجبه الكثيفة إلى أين أريد الذهاب؟ كما لو كان يريد أن يعرف إلى أين يذهب العالم وليس أنا.. الشارة التي تحمل اسمه في السيارة

أبلغتني رسالة غامضة: أحمد محمدينوف! سألني:

- من أين أنت؟

أجبته: من يوجوسلافيا السابقة.

- هل يمكنك تصديق ما يفعلونه بنا أولئك التافهون؟

وأدركت سريعاً من الذي يفعل ماذا، بمن، وأين هم التافهين..

أثنى السائق على "ميلوسيفيتش"(مجرم الحرب)، ولعن محكمة"هاجو"التي ليس لديها أي معرفة بمفتاح اللغز عما يجري في العالم. كان هناك رجل عظيم؛"ميلوسيفيتش"؛ هو أول من تصدى للصراع ضد الأصولية الإسلامية، لأنهم، أولئك المسلمون الملاعين كانوا يخربون مؤسسات حضارتنا المسيحية!.. سألته وأنا أنظر لشارة الاسم

– ألست مسلماً؟...

– أنا؟ لا سمح الله!

– حسناً، ما هي ديانتك إذن؟

أجاب :أنا يهودي.

فسألته: من أين؟

فقال: – من أوزبكستان.

أنا راكبة انطباعية لسيارات الأجرة كلما أقمت في نيويورك، لكني لم أسمع أبداً شيئاً شبيهاً بهذا الكلام من قبل..

كان أحمد محمدينوف صدفة فريدة في تأييده"ميلسيفيتش"، الرجل الذي"سبق غيره"وعجل بنشوء الصراع ضد الإرهاب الإسلامي! الحقيقة أنني لم اختلط بالعديد من الأمريكيين الصرب باستثناء سيدة المبيعات اللطيفة في محل "ساكس" في فيفث أفينو؛ متجري المفضل للبيع بالتجزئة، عادة يكون الباعة فيها من الروس، لكنني في تلك المرة وجدت امرأة من بلجراد.

لا زلت أقابل أناساً من البوسنة صاروا أمريكيين، وقابلت امرأة بوسنية في"وول ستريت" تعمل في سمسرة الأوراق المالية، وقالت لي عن عملها "ليس أمرا ذي بال." "كان من بينهم"إيدن"، وهو نقاش شاب صار الآن مصمما للديكور الداخلي، وقال لي، "أنا أتولى ديكور الشقق في بارك أفينو فقط." . . كما التقيت مع "بيجو" في مانشستر بولاية نيوهامبشاير، وهو لاجئ أعتقل لفترة في معسكر صربي للمسلمين قبل مجيئه لأمريكا، وقال لي،"لم تكن لدي فكرة أنني على وشك أن يستقر بي المقام في أمريكا، وتوقعت أن يكون ذلك في مانشستر بإنجلترا." وخلال سبع سنوات من وصوله لاجئا لأمريكا وجد "بيجو" عملاً، واشترى منزلاً، وزوّج ابنته، وأدخل ابنه المدرسة، وزرع حديقة بمنزله حيث توجد بركة للأسماك الذهبية، وسقيفة على الطراز الشرقي مفتوحة من كل الجوانب يستظل بها . . التقيته في حفل عيد ميلاده حيث رقص رقصة"سيرتاكي"الروسية

بإيحاء من حديقته التي أضاءها ضوء القمر، ويعتقد جيرانه أنه يوناني لأنه يشبه"انتوني كوين"، وبسبب رقصه لرقصة سيرتاكي بانتعاش وزهو المنتصر في نهاية حفل عيد ميلاده. ترك"بيجو"البوسنة خلف ظهره، فهنا في أمريكا يوجد أهله: عائلته، وأقاربه، وأصدقاؤه.

نعم، بالفعل، لم يعد أي شيء كما كان عليه، لكن، ما علاقة رقصة السيرتاكي الروسية، والأوزبكية، والبوسنية واليونانية بالفيتناميين؟ . . لا شيء، أم أنها مثل علاقة نيويورك بطوابير الانتظار. . ذكرتني الطوابير في نيويورك بطولها الممتد بالطوابير التي رأيتها من حوالي ٢٠ سنة مضت وربما أكثر في موسكو أمام محل اسمه [جاردان]، بمعنى أدرياتيك البحر الشهير في البلقان، حيث كانت تباع المنتجات اليوجوسلافية من الآرائك إلى الأحذية. شاهدت طابوراً أمام محل افتتح حديثاً اسمه"جاليري نيو"في الجانب الشرقي الأعلى من نيويورك، حيث كان أهل نيويورك ينتظرون لتذوق تورتة"ساشر"الشهيرة، وتصفح الطبعات الأمريكية من منتجات "فرويد"، و"بروش"، و"موسيل"، ورؤية اللوحات الفنية لـ"إيجون تشيلي" و"أوسكار كوكوشكا". كما كانت هناك طوابير ممتدة أمام جاليري [موما] لعرض أعمال"جيرهارد ريشتر". لقد اعتاد الألمان الشرقيون أن يقفوا في الطوابير دون أن تفتر همتهم لشراء منظفات الملابس؛ اليوم يقف أهل نيويورك دون أن تفتر همتهم – بالتحديد كما

لو أنهم يردون الجميل- في طوابير أطول حتى، لمشاهدة لوحات فنانين من ألمانيا الشرقية سابقاً.

لا شيء يمكن أن يبقى على النحو الذي كان عليه، لكن، رغم أني وجدت نيويورك شبيهة إلى حد كبير في كل تفصيلة بالمدينة التي تسع الناس، التي اكتشفتها في الأساس- وذلك الشرك المنصوب لطيبة قلوبهم- إلا أن كل تفصيلة فيها بدت "فاحشة".. أنا أعد واحدة من أولئك الذين يحبون مدينة نيويورك حباً غير مشروط لدرجة العبادة: أحب المشردين الذين ينامون في صناديق من الكرتون ملتحفين بأغطية مهلهلة، وأحب بلوزات "زوران"الشفافة التي تباع مقابل آلاف الدولارات للواحدة، والتي تغطي بنعومة أكتاف النساء الأكثر ثراء والأوفر حظاً.. بالمناسبة، مصمم الأزياء زوران هو أحد الوافدين من يوجلاسفيا السابقة الذي حقق نجاحاً فعلياً.

"زوران"هو الذي وضع"اسمنا"على خريطة المودة أو"الفحش".

إذن، هل من المحتمل أن يكون للفحش شيء مشترك مع أظافر الأصابع والفيتناميين؟!.. في الحقيقة يمكنه ذلك. فقط في خيال الفقير، إذ يدفع الغني أموالاً لشخص ما آخر ليهذب له أظافره! لأن الغني فقط هو الذي لديه الوقت، والوقت كما نعلم جميعاً، من قبيل الرفاهية ومفرداتها . نعود جميعاً إلى أظافر الأصابع وهي أصغر وحدة بشرية ذات قيمة. هناك قول مأثور في لغتي الأصلية، عندما

نقارن امرأة بأخرى: إنها لا تساوي أكثر من ظفر في اصبعها الصغير. وفي المعتقدات القديمة يحافظ العديد من الناس على الأظافر والشعر لتصبح أكثر الأجزاء غموضاً في الجسم (بعد الموت تستمر الأظافر والشعر، فقط، في النمو لفترة) . وتعد الأظافر والشعر، من بين أجزاء الجسم كله، أكثرهما ارتباطاً بالنجاسة، فأن تمتلك قليلاً من شعر أحدهم، وبواقي أظافره المقصوصة، وبعض من شمع أذنيه يمكنك من أن تبقي الشخص رهناً لعبوديتك ! . . البعض منا يتذكر صبيان بلدتنا الصغيرة في يوجوسلافيا الستينات الذين أطالوا أظافر أصبعهم البنصر كبديل مرئي لعضوهم الذكري !

إذا كانت نيويورك هي مركز العالم - وأنا لا أشك في ذلك كواحدة من مناطق أوروبا الشرقية- فيمكن للمرء أن يقول - من وجهة نظر أفضلية المركز - أن الأظافر صارت الآن مركز الجسد، فقد أدخلت الأظافر في عضوية أداء الشعائر، في الاتجاه الجديد في صالون بشارع سكند افينو. مدير هذا الصالون فيتنامي، حياني بابتسامة دمثة، وأجلسني رفاقه من العاملين على كرسي جلدي مريح، ثم عرض أحدهم أن يدلك رقبتي المتعبة، وبدأ آخر في العمل على أظافر يدي وقدمي، وسألني ثالث، "أبرا"، "أبرا"، وأصرت المرأة الفيتنامية،"أبرا"، "أبرا"، ثم شرحت لي بإيماءة ما تقصده: أبرا معناها حاجب العين، وكان يمكنني أن أنتف حواجبي مقابل ١٠

دولارات، لكني رفضت، وبدا لي صوتها المجود فاسقاً بعض الشيء ! . . كان الوقت في نهاية يوم عمل، وكنت آخر زبونة، وسليت نفسي بمشاهدة المالك الفيتنامي وهو يعلم امرأة مكسيكية شابة بأصبع مثقل بالرصاص كيف تقلم الأظافر؛ كان لطيفاً وصبوراً معها . . أولاً، وضع طلاء على أظافر يديها موضحاً كيف تطلي الأظافر بشكل صحيح، ثم مد يديه لها حتى تعرض ما تعلمته، وشكل كلاً من المعلم والتلميذ صورة مثالية- وقد أضاء الضوء القادم من الشارع المكان- وهما يطليان اظافر بعضهما البعض. كان المشهد أحد مشاهد التواصل بين عالمين؛ رجل فيتنامي وامرأة مكسيكية في سكند أفينو - نيويورك، حيث تتلامس أصابع أيديهم الممدودة لأحدهم الآخر مثل الغرباء. فكرت كيف يهاجر الناس - ويتناثرون مثل الرمال- وكيف أنهم يظهرون فجأة في بقعة معينة كرسل غامضين مقنعين؛ مثل متعهدين لمهارات صغيرة لا معنى لها للوهلة الأولى كتقليم أظافر الأصابع .

أنا هولندية، كما أنني أصلاً من البلقان، والنسوة المكسيكيات منهن والفيتناميات، وهذا الرجل الفيتنامي؛ كلنا تصادف ووجدنا أنفسنا في نهاية يوم نيويوركي متورطين في مشروع غامض لا يمكننا التنبؤ بمعناه بمجرد الحدس.

تبين لي أن العالم يصحح مساره بنوع من المنطق الداخلي من

الواضح أنه لا علاقة له بالأيديولوجيا أو النظم الأيديولوجية. في تلك اللحظة، كان صالون الأظافر بمثابة نقطة اتصال رمزية، ومعبداً محتملاً لراحة محتملة مفتوح للناس في نيويورك وللناس في الجوار، وللسائحين مثلي، وللمهاجرين الجدد كذلك.

كانت تلك الصالونات الرمزية مكاناً للمواساة الكونية الرمزية. وتبين لي أن المواطنين الأمريكيين يخلفون عشرات الباوندات من مخلفات تقليم أظافرهم، وباوندات من شعر حواجبهم في تلك الصالونات الجديدة، وتبين لي أنهم يضعون أنفسهم تحت رعاية الفيتناميين!.. فإذا وضعنا المعتقدات الدينية في الاعتبار فهذا يعني أن الفيتناميين - إذا ما أرادوا ذلك- يمكنهم أن يحتفظوا بزبائنهم رهناً لعبوديتهم! لأن الشعب المووري؛ والشعب الويراجوري الأسترالي؛ والشعب الماني والجومبوسي من غرب أفريقيا؛ والشعب التاهيتي وسكان جزيرة سولومون، وأهل الأنكا القدامى، والباتاجونيين من الماكالولوس جنوب أفريقيا، والعديد من الشعوب الأخرى يخفون بعناية مخلفات أظافرهم وشعرهم حتى لا يتمكن أعداءهم من السيطرة عليهم. بمعنى آخر، يضع الأمريكيون رؤوسهم بابتهاج على المقصلة. وبدلاً من أن يقوم الفيتناميون بمهمة تصحيح "أخطاء التاريخ"، يدلكون بلطف الأعناق المتعبة وأيدي وأقدام اناس سببوا لهم - من أربعين عام مضت- كماً هائلاً من

المآسي، وأثناء هذه العملية يوحولون أنفسهم في مأساة جديدة.

ربما كان الفيتناميون مقنعين في هيئة من يهذبون أظافر الأيدي والأقدام بينما يحملون فعلياً رسالة هامة!.. هل يدعونا الفيتناميون جميعاً لإظهار بعض التعاطف مع شريكهم في السلسلة التاريخية من الأذى بين المُستعمِر والمُستعمَر، بين المُستغِل والمُستغَل، بين المتاجر بالسلطة وضحاياه؟.. هل يقترح الفيتناميون علينا ما مفاده أن حصيلة حكمتهم تكمن في تدليك رقبة المتاجر بالسلطة وتقليم أظافره؟.. هذه قراءة رمزية محتملة للخريطة الكونية للعالم. تماما مثلما اندفع العالم بأسره بكامل طاقته لقراءة الدلالة الرمزية في الهجوم الإرهابي على أمريكا، ولديّ الحق في الاقتراب من الرمزية الكونية في الطرف الآخر- من النقطة التفضيلية لمذاهب التسوية ومبدأ "المتعة" (أن اللذة هي الخير الأوحد في العالم)- من صالون تهذيب الأظافر.

وبالعودة إلى امستردام وجدت نفسي في المركز التجاري "أوسدوربلاين" حيث أول شيء رأيته كان متجراً جديداً عليه لافتة "أظافر الولايات المتحدة". أمعنت النظر في الداخل؛ فحيتني امرأة فيتنامية بالكلمة العدائية المغوية: "أنكبرا"، "أنكبرا"، وعرفت ما الذي تعنيه بالضبط؛ مرة أخرى رفضت عرضها لنتف حواجبي (ليست الحواجب، إنها الأظافر) وجمعت الكلمات في لغتي الهولندية الركيكة مثل لغتها. عندئذ، اترك التفسير لأولئك الميالون

بقوة للهجرة الكونية غير العادية للفيتناميين؛ الذين يصقلون الأظافر ويحملون لافتة "أظافر الولايات المتحدة"، في أنهم يغزون اوروبا بلطف ودماثة. أنا لا أتذمر؛ فقد ترددت كثيراً على صالون "أظافر الولايات المتحدة" في امستردام.

بالنسبة لقص أظافر اليدين والقدمين أنظر لهذا كدليل لي:

قصهم يوم الأثنين، من أجل الصحة .

. . . . . الثلاثاء، . . . . الثروة .

. . . . . الأربعاء، . . . . الأخبار .

. . . . . الخميس، زوج جديد من الأحذية .

. . . . . الجمعة، انت تقصهم للأسف .

. . . . . السبت، أنت ترى حبك الحقيقي غداً .

. . . . . الأحد، أنت تنشد أمانك الشخصي .

سوف يتملكك الشيطان لبقية الأسبوع .

سبتمبر ٢٠٠٢

obeikandl.com

obeikandl.com

ما هي أوربا

أنت تنظر إليهم برعب وتتساءل عما يفعلونه هنا . لماذا يتسكعون دائماً في نفس الأماكن؟ . . لماذا لا يختلطون بالناس في الزحام؟ . . لماذا لا يختفون من مجال رؤيتك؟، فهم يقفون هنا، كما لو كانوا قد هبطوا للتو من كوكب المريخ! لماذا لا يذهبون إلى مكان آخر؟ في كل مرة تمشي فيها إلى جوارهم تضع يديك أتوماتيكياً على محفظتك، للتأكد أنها لا زالت هناك. وهم يحدقون فيك بالطريقة التي تحدق بها فيهم، لا مبالين كما لو كنت كتلة من البصاق؛ فأنت تعترض مشهدهم الذي ينظرون إليه! ما الذي يمنحهم الحق في التذمر منك، بينما يعيشون على الضرائب التي تدفعها أو على حسابك؟! . . لم يتم استيعابهم في المجتمع فعلياً، لماذا لا يمكنهم التكلم باللغة بشكل صحيح حتى لا يؤذوا أذنيك؟ ولماذا لا يستقروا بالفعل في مكانهم الجديد؟ . . بسبب رجال أمثال أولئك عليك أن تستبدل حاجز الريح في سيارتك خمسة مرات، وبسبب رجال مثلهم أنت مجبر على أخذ راديو سيارتك معك للمنزل كل مساء، وبسبب رجال مثلهم قمت بتغيير الأقفال في الأبواب، وأخيراً بسبب هذا النوع من الرجال بدأت بتشغيل جهاز إنذار ضد السرقة.

نعم، بسبب رجال كهؤلاء أنت تعيش في بلدك كما لو كنت في سجن، وبسببهم لا يمكنك النزهة بعد الآن دون شعور بالخوف من أن تنطلق رصاصة طائشة تخرج من مكان مجهول وتصيبك في قلبك أو رأسك! أين يمكنك الذهاب؟! هناك أناس كهؤلاء يطالعونك في برلين، وفي فيينا، وفرانكفورت، وامستردام، ولندن، وباريس. إذن، أين يمكنك الذهاب؟ لجزيرة فارو؟ التي قال لك صديق عنها – هناك رجل بلغاري يعيش في الجزيرة. في ذات الوقت، من المحتمل أن يكون طاقم كامل منهم قد استقر هناك معه! لقد غزا البلغاريون جزيرة فارو . . .نعم وصلت الأمور إلى هذا الحد.

احتجت أثناء إقامتي في زغرب إلى خياطة، وكما هو الحال مع مثل هذه الأشياء أوصت زوجة طبيب أسناني بخياطة تعرفها. كان طبيب الأسنان أحد أسباب زيارتي لزغرب – كما يعرف جميع الذين يأتون لهنا من غرب أوروبا كسياحة لعلاج الأسنان جنباً إلى جنب مع المهاجرين. . كانت الخياطة امراة شابة من إحدى قرى "زاجورجي"الكرواتية، وهي تسافر يومياً إلى زغرب، وتعيش في سقيفة بلا تدفئة أو حتى مقعد لزائر ليجلس عليه، كما لا تملك مرآة رغم أنها احتياج أساسي لمهنتها، لكنها تمتلك آراء قوية بالفعل. اشتكت لي الخياطة: لا يستطيع المرء أن يقيم أوده في وجود كل أولئك الصينيين من حوله؛ فهم يحصلون على تصاريح لإقامة أعمال

صغيرة بسهولة أكثر منا نحن الكرواتيون، ويفتتح هؤلاء الصينيون أعمالهم خلال ليلة واحدة؛ هكذا أمام عينيك! ولا يمكنهم الحديث باللغة الكرواتية. . بالمناسبة يعيش في كرواتيا دستة من الصينيين فقط، وربما أقل من دستة!

هكذا، فكل امرئ يحظى بالقليل مما يغيظه، ويكون لأسباب هذا الغيظ اسماء مختلفة (الصينيون، أو الألبان، أو الصربيون، أو الكرواتيون، أو الروس)، لكنها في الجوهر شيء واحد متشابه. . منذ عهود مضت توقف البلغاريون عن الشكوى من الروس، الآن هم يتذمرون من البلجيكيين، والهولنديين، والألمان الذين يشترون بيوتاً في بلغاريا في المناطق الجبلية والقرى وعلى امتداد شاطئ البحر الأسود مقابل أثمان زهيدة، في استباق لدخول بلغاريا الاتحاد الأوروبي، عندما سيتخلصون جميعاً من استثماراتهم تلك. بنفس الطريقة يثير الهنجاريون حفيظة الكرواتيين والصربيين والبوسنيين الذين وجدوا وقتاً أثناء الحرب الحديثة لحجز شقق في بودابست، وجنوا أرباحاً تصل لعشرة أضعاف ما دفعوه فيها.

الآن يسب الكرواتيون - الذين تخلصوا من الصرب الذين يحضون على كراهيتهم: الهنجاريين والروس والتشيكيين الذين يقولون عنهم أنهم يشترون نصف شاطئ البحر الأدرياتيكي. لكن لا يوجد لدى الكرواتيين أي شيء ضد الألمان والأستراليين الذين ينتشرون هناك؛

لأن الكرواتيين يشعرون- بوجود هؤلاء حولهم- أنهم أكثر أوروبية. . الألمان مصابون بهوس المنازل الخشبية القديمة في السويد، ونتيجة لهذا الهوس يقضون صيفهم -فيما كان عادة مجرد قرى سويدية - محاطين بأقرانهم الألمان. . ويشعر الهولنديون بالرغبة في الهروب من المغاربة، ويبحثون عن الجنة في البرتغال؛ حيث ينتهي بهم الحال في تجمع للأقلية الهولندية هناك. . ويعيش الأتراك في كل مكان في أوروبا؛ ولا يوجد ما يمكن القيام به حيال ذلك، وفي ذات الوقت ازدحمت اسطنبول بالروس، وبحسب الشائعات هناك بضع مئات الآلاف من الروس في تركيا.

ومن الواضح أن هناك أعداد أكبر من الصينيين الذين قدموا حديثاً إلى بودابست؛ فهي البؤرة الصينية في أوروبا على وجه التحديد، ويقولون عنها "الأوديسا"، وهي محتشدة بكل من اليونانيين والأتراك بصورة شاذة إلى حد ما. ويتذمر الأسبان من أن الكولومبيين: سوف يحاصرونك في ركن ما في وضح النهار، ويجبرونك على سحب رصيدك من ماكينة الصراف الآلي. وبالحديث عنهم- الكولومبيين- يتذمر الأسبان منهم، وهم الذين ربما كانوا الأفضل إذا نظرنا إلى الرومانيين هناك، فالرومانيون يأتون في سيارات محملة بهم إلى أسبانيا حيث يعملون بجد واجتهاد كـ"عمال بناء".

وبالحديث عن رومانيا؛ يعتبر شعب مولدوفيا هو الشعب المهاجر في الوقت الحالي إلى أسبانيا ويزعزون كيانها، ربما كان أحدهم سفاحًا متمرسًا وجد أنه لا يملك شيئاً أفضل ليقوم به من فصل رؤوس الأسبان عن أجسادهم. هكذا، يبدو الأمر وكأن كل واحد يدفع ويشق طريقه للوصول إلى مكان ما، وهم جميعاً يلومون بعضهم البعض. يهاجرون بحثاً عن العقارات، والراحة عند بلوغ سن المعاش، وعن مغامرة دون مخاطرة، وتغيير يحمل نوعاً من المغامرة.. . إنهم في حركة دائمة ليحتالوا على الحياة، وقد احتضنت أوروبا كل هؤلاء كدليلٍ على تعددها الثقافي؛ لكن الشعور بالمتعة في كل هذا يبدو مفتقداً.. الثقافة هي كل شيء ولا شيء في الوقت ذاته، وهي مجال للتدخل والتحكم؛ الثقافة مبرر ودفع بالغياب عن مسرح الجريمة.. "الثقافة هي سؤال عن ثقافتهم.. هذا شيء متأصل ومتضمن في الطبيعة الإنسانية لثقافتنا.. آه، إنهم مختلفون عنا تماماً، هذه الاختلافات متناقضة ولا سبيل لتسويتها .

تفكر، بينما تعبس في وجه الصربيين والكرواتيين والبوسنيين الذين يجعلون حياتك تعسة، إن مركب العظمة في ثقافتهم هو الذي يلام، ما الذي علينا عمله نحوهم؟.. ما الذي عليّ عمله مع رجل مغربي يطلق بصقتة في وجه الريح عند مدخل البناية التي اسكنها في امستردام؟.. لا شيء! نعم لا شيء، طالما أننا نحاول إيجاد مبرر

في الثقافة والاختلافات الثقافية وكون الآخر مختلفاً . . فمن الاختلاف بين"ثقافتهم"القوية التي تتسم بالفحولة (التي تسمح بكلٍ هذا) و"ثقافتنا" (التي لا تعي أياً من ذلك) سوف استدعي دفعاً بالغياب ومبرراً ليس فقط لبصقهم، ولكن أيضاً لتوتري وحساسيتي تجاههم. . من الناحية السياسية يبدو صحيحاً احترام "الثقافات المختلفة" و"الاختلافات الثقافية"، وهو ما يكون عادة قناعاً لإخفاء شوفينية سرية ما . . هذا هو السبب؛ فإذا كان الجدل الوحيد الذي نستخدمه هو جدل "الثقافة" و"الاختلافات الثقافية"، فإننا نكون وبسرعة كبيرة كمن يطلق الرصاص على قدميه!

هل قلت ثقافة – فحلة؟ . . كامرأة يوجوسلافية منحت الحق في الانتخاب والحق في المساواة بين الجنسين عام ١٩٤٣ – قبل مولدي بستة أعوام – أثناء الحرب العالمية الثانية مع وثيقة غير مؤكدة وعدت، ليس فقط بالنصر على الفاشيين ولكن أيضاً بمستقبل باهر ليوجوسلافيا . لقد مُنِحت الحق في الانتخاب قبل أن تنتخب النساء السويسريات ب٢٧ عام. . اعتقد أن حقوقي تم تأمينها من خلال النساء المناهضات ضد الفاشية، المواليات والشيوعيات اللائي نظمن فصولاً لمحو الأمية في مجتمعنا المحلي أثناء الحرب؛ واللائي عملن في مستشفيات موالية كطبيبات، وممرضات، أو اللائي حاربن كمحاربات.

كانت تلك النساء جزء من الحياة السياسية والعامة في يوجوسلافيا ما بعد الحرب؛ لكن فيما بعد -وهو ما يدعو للحزن- تم استيعابهن في عالم تسوده الذكورية واختفين من المشهد . . اليوم، لا يبدو أن هناك نساء في الحياة السياسية والعامة ليوجوسلافيا بأكثر مما كان في العديد من الدول الأوروبية الغربية وقت الحرب.

ذهبت في طفولتي لمدرسة ابتدائية مشتركة للصبيان والبنات، ولم يكن هناك أنواع أخرى من المدارس. وكانت بطلات طفولتي من النساء هن؛ "ماري كوري"، و"مينو كرويت"، و"فالنتينا تيريشكوفا"، وتقدمت للالتحاق بالجامعة دون سبيل لمعرفة أن النساء الأمريكيات سمح لهن لأول مرة بالحضور في جامعة"بيل"المرموقة فقط منذ عام قبلها . كانت الجامعة مجانية، وحصلت على وظيفة، وكانت لي أفضلية على نساء سويسرا اللائي كن يتلقين راتباً وقتها أقل ٢٥-٣٠% من الذكور، كما كانت لي أفضلية على النساء الإيطاليات، والفرنسيات، والهولنديات.

كانت زميلاتي في السبعينات - ذوات الميول النسائية المدافعة عن حقوق المرأة- قد ألهمتهم الحركات النسائية الأمريكية، لكن لم تكن لديهن الشجاعة لاجتذاب مناصرين من المجتمع الإقليمي، وأطلقن هجوماً إعلامياً فوجدن أنفسهن بين صخرة وجدار صلب! فهن لم يستطعن النضال لتشريع الإجهاض، لأن الإجهاض كان شرعياً؛

ولا استطعن الاعتراض على التمييز في المدارس والوظائف لأن النظام القائم ضمن لهن تلك المساواة. ولذن بالانشغال بهوية المرأة، وحياتهن الجنسية، بل والإفراط في النشاط الجنسي، والجنسانية (التمييز على أساس الذكورة والأنوثة)، والجنساني (المتحيز للذكورة والأنوثة)، وتمثيل النسوة في وسائل الإعلام؛ من خلال جسد المرأة ولغة الجسد ! وكان من بين الموضوعات الساخنة الاختيار المحدود المتاح من الفوط النسائية الصحية على رفوف المحلات اليوجوسلافية الشيوعية !

وتراجع – مع انهيار يوجوسلافيا، والحرب، وديموقراطية السلطة – اسهام النساء في البرلمان المحلي في ما بعد يوجوسلافيا إلى نسبة ١.٥ % فقط، ليرتفع بعدها بعام أو عامين.. اليوم، في يوجوسلافيا ما بعد الانهيار، يتاح للنساء من سلوفينيا إلى مقدونيا مجموعة واسعة متنوعة من الفوط الصحية النسائية في المحلات، وكذلك أي عدد من الصلبان التي تتدلى من أعناقهن.. الصلبان الكاثوليكية والأرثوذكسية.. كما ارتفع عدد النساء اللائي يرتدين معاطف الفراء في كرواتيا لعنان السماء، وفي البوسنة أيضاً؛ حقاً إنها البركة ! لم تتسامح الشيوعية اليوجوسلافية"القمعية"مع أي من ذلك؛ أو على الأقل ليس بهذه المعدلات. اليوم تحضر العديد والمزيد من النساء الصلاة في الكنيسة بانتظام، ويشاهدن البرامج التليفزيونية"الديموقراطية"، التي يدعو فيها رجال الدين بحرارة – من

الكاثوليك والأرثوذكس والمسلمين الموجودين دائماً- لحظر الإجهاض؛ بينما يقترح المفكرون الآخرون جعل الدعارة قانونية.

التجارة، والمافيا المحلية، والدعارة، وأفلام البورنو، والاختلاس، والجرائم الجنائية، وصناعة ملوك المال، والمعاملات المالية المزدوجة، والتآكل التام لحقوق العمال ونقاباتهم، والاستقطاعات من المعاشات والتغطية الصحية (مكتسبات الرخاء)، والقضاء الفاسد، والكسب غير المشروع على نطاق واسع، والتعليم الشفاهي بصيغة سؤال وجواب في المدارس العامة – وهي تمثل كياناً مطلوباً ومعترفاً به رغم أنه ليس كذلك – اثبت أنه أكثر شيوعاً من الرياضيات واللغة الإنجليزية؛ كل هذا صار جزء من الأشياء المألوفة والمبتذلة للديموقراطية الجديدة.. لقد فرضت الثقافة الجمعية أيقوناتها.

لم تعد "ماري كوري" أو "فالنتينا تيريشكوفا" بطلات (لا يعلم اليوم أحد من كن)، لكن "بريتني سبيرز" ومستنسخاتها المحلية (اللائي صرن بلا حصر) هن البطلات! وأصبح للثقافة النسائية وجهين: الوجه الأقل تميزاً، والنسخة غير المرئية التي تتمثل في نشاط المؤسسات غير الحكومية، والنسخة الأكثر مشاهدة -بوجودها المميز في الثقافة الجمعية- في السلاسل التليفزيونية عن "الجنس والمدينة"، أو في حماس أتباع "إيف انسلر" - مؤلفة مونولوجات المهبل!- التي اكتشفت معادلة تحريرها، بقولها: "أنا، مهبلي!"..

وقالت لي امرأة رومانية شابة تُدرِس الفرنسية في جامعة مرموقة في الولايات المتحدة:

- كانت إيلينا سوسيسكو النموذج والمثال بالنسبة لي في طفولتي.. ليس لأنها كانت شيوعية ولكن لأنها كانت باحثة أكاديمية، دون القول بأن إلينا الباحثة كانت صناعة شيوعية، لكنني أفضل كوني نشأت على الإيمان بأنني سأصبح باحثة في يوم من الأيام عن كوني "مهبل – واعٍ بذاته".

أدركت، بينما كنت أراقب الشاب المغربي الذي كان يمزق مصد الريح في سيارة في وضح النهار أمام بنايتي في امستردام ويسرق حقيبة من على المقعد الخلفي (في زيورخ يشتكون من الصرب أو الكروات أو البوسنيين الذين، كما افترض، يقومون بذات الشيء) أنه لا معنى لاستدعاء الشرطة، لأنهم سيصابون بالصمم تجاه شكواي.. يتصاعد داخلي شعور بالاعتراض. أفكر كيف شيد هذا العالم. واضبط نفسي تحدوني أمنية واحدة؛ أن أذهب وأصفع الفتى على وجهه. تكمن راحتي الوحيدة، فيما يخص ثقافة الفحولة، في صورة أملكها وقصة قصيرة عن ظروف التقاطها.

دعيت منذ عدة سنوات إلى لقاء هام يجمع وزراء الثقافة الأوروبيين. كان وزراء الثقافة في دول الاتحاد الأوروبي من بين المشاركين، إضافة إلى حفنة من المثقفين الذين دعوا ليسهموا

بأفكارهم مع الوزراء حول المشاكل التي تواجه الثقافة الأوروبية؛ وكنت واحدة من هؤلاء المثقفين. وبعدها بعدة شهور وصلني مظروف كبير بالبريد، ووجدت فيه صورة من القطع الكبير أرسلها لي منظمو اللقاء، كهدية تذكارية عن هذا الحدث الهام. كان كل المشاركون في الصورة واقفين على سلالم الفندق الفخم الذي أقمنا فيه. فجأة لاحظت شيئاً عجزت عن ملاحظته وقتها؛ كان هناك ثلاثة نساء فقط بين المجموعة المكونة من ٤٠ مشارك، وهن وزيرة الثقافة السويدية، ووزيرة ثقافة لوكسمبورج، وأنا. هذه قصتي عن ظروف التقاط الصورة!

ها هو قد عاد ثانية. دس يديه في جيوبه، وصك قدميه للخلف وللأمام، ثم هرس اللعاب بين أسنانه الأمامية السفلية وبصقه في الريح مثل الطلقة. تعجب، ما الذي جمع هذه الفحولة الصربية، والكرواتية، والبوسنية، والألبانية، والتركية، والمغربية (من يدري من أين أتوا، لكن لا أهمية لذلك، أليسوا جميعاً متشابهين؟) ويجعل بعضهم يتوافق مع الثقافة الأوروبية على مشترك ما؟.. لا يوجد شيء مشترك من النظرة الأولى، لكن ربما كانت الصورة المألوفة و"الحساب"هي بالضبط ما يمكن للمرء البدء منه في أي حديث عن الثقافة والاختلافات الثقافية، والتباين عن البعض الآخر وعن الآخرية (الشيء المختلف) في أوروبا.

ربما يجب البدأ من الحديث عن النظام في عالمنا هذا، أو بأولئك الـذين يحكمـون فيـه، أو بالكنـائس والـبلاد، أو بـالجيوش وقـوات البـوليس، أو بأولئـك الـذين يعملـون علـى تنشـئتنا في المـدارس، أو بالمناهج والمراجع الدراسية، أو بأولئك الذين يشكلون عالمنا الواعي واللاواعي، أو بالتليفزيون والإعلام، أو بالسوق وأيديولوجيته.

عندها فقط ربما نكون قادرين أن نستنتج الإجابة عن سؤال: لماذا ذلك الرجل- رجلك ورجلي - الذي يقف باصقاً في وجه الريح داكن البشرة؟.. وأن نستنتج إجابة عن سؤال: لماذا يستفزنا ذلك الرجل إلى هذا الحد؟.. كما يمكن استنتاج إجابة على سؤال: لماذا نلاحظ بعض الأشياء في وقت متأخر فقط؟ عندما يجدون سبيلاً لإبلاغنا عن طريق هدية تذكارية، مثل الصورة ذات القطع الكبير التي أرسلوها لي على عنواني البريدي.

تعليق محلي

أجـرت أكثر الجرائد الأسبوعية نفوذاً وربما الأكثر مبيعاً في كرواتيا، وهي جريدة"جلوبس"، استفتاء بين القراء في عددها السنوي بداية العام عن أكثر ١٠ رجال وسيدات مكانة عام ٢٠٠٤. كانت"إس"من بين النساء الرائعات، وهي مغنية بوب محلية معروفة بابتسامتها السيلكونية على هيئة الفراشة، وبإعلاناتها التليفزيونية الأركادية (نسبة إلى سكان أركاديا اليونانيين) عن الجبن واللبن،

وإعلانها أنها امرأة كرواتية راهبة روحية، ويمرر الكاثوليكيون ذلك التأرجح الحزبي بين صدرها الضخم والحقيقة التي تقول أنها تقيم حفلات لدعم حزب مختلف في كل انتخابات.

قامت"إس"بانتاج فيلم فيديو إباحي لعبت فيه الدور الرئيسي، وهو فيلم تذكاري"تذكرة عابرة للحظة محببة في حياتها"، وبسببه وصفت ليس فقط بالجميلة، لكن أيضاً بـ"امرأة شجاعة جداً". . ومن بين أكثر النساء روعة كانت نجمة تليفزيونية بالمسلسلات التي تعالج المشاكل الاجتماعية اسمها "فيلا ماريا". ويجب القول أيضاً أنه من بين أكثر الرجال الكروات روعة كان الفائز بجائزة"الأخ الكبير"الكرواتية، الذي يملك في ذات الوقت محلاً لدق الوشم. . لماذا اشتري إصدار السنة الجديدة من جريدة أسبوعية محلية؟ هل بوصفه نموذجاً على الطريقة التي يشكل بها الإعلام المفاهيم الاجتماعية ومن بينها مفاهيم النوع من ذكر وأنثى. . هذا هو السبب في الواقع؛ لكن هناك سبب آخر نشرت نفس الجريدة . .واحدة من أكثر الخطب الرنانة المشينة والضارة ضد خمس نساء كتبن عام ١٩٢٢ ضد جنون النعرة القومية من قبل أن يبدأ أغلب الناس التفكير حول مسألة القومية، وأعلنت جريدة"جلوبس"أن النساء الخمس هن ساحرات كرواتيات شريرات، وبذلك أطلقوا موسماً إعلامياً لصيد"أعداء الدولة"، وأنا أذكر الحدث لأنني كنت

أشعر بنفسي واحدة من النساء الخمسة اللائي شوهت سمعتهن. . نتيجة لهذا الخطاب الإعلامي الرنان انتقلت إحدى الساحرات الشريرات الخمسة إلى باريس حيث تعمل كأستاذة جامعية، وتعيش أخرى في امستردام ككاتبة حرة، والثالثة تقسم وقتها بين استوكهولم واستريا، والرابعة تعيش في زغرب كناشطة في منظمة غير حكومية. وقد نسيت اليوم "موضوع المحاكمة"التي أجرتها جريدة"جلوبس" . ويعد الكاتب الرئيسي للخطبة الرنانة ضد الساحرات الخمس واحداً من أكثر الأسماء نفوذاً في الإعلام الكرواتي، وترشح حديثاً لفترة رئاسة ثانية كرئيس لكرواتيا وحقق نجاحاً ملحوظا في الانتخابات. ماذا إذن عن الساحرة الشريرة الخامسة؟ ألم أقل أن هناك خمسة؟. . حسبما جرت الأحداث عرض على المراة الخامسة، كما لو كانت لاعبة كرة قدم، مبلغاً من المال تحسد عليه لتنتقل من العمل في جريدتها المتواضعة إلى جريدة جلوبس؛ نفس الجلوبس التي جعلت منها - مع النساء الأربع الأخريات - هدفاً لسخط العامة. . اليوم هي أهم كاتبة عمود في جريدة جلوبس، ويعد انتقالها بمثابة رسالة قوية نافذة الأثر، أن امرأة واحدة ترسل رسالتها إلى المرأة الأخرى وإلى الرجل، وما أن يتسلموا الرسالة. . كل واحد منهم يحصل على الصورة جلية!

ديسمبر ٢٠٠٤

الهدايا الشيوعية التذكارية

١ –

بعد عام أو أقل من سقوط الجدار قمت بزيارة قصيرة لموسكو. كان أول ما لاحظته أن سائقي الأجرة، الذين كانوا دائماً أساتذة في الأحاديث القصيرة، يكررون أنفسهم في الحديث، فسوف يسألك أحدهم"من أين أنت؟"وتجيب،"من يوجوسلافيا ." فيسألك،"هل انهارت يوجوسلافيا ؟" فتجيب،"إنها ما زالت صامدة" عندها سيتباهى قائلاً، "حسناً، هنا ماتت الشيوعية وولت!" وبينما يحاول السائق إقناعي بأن الشيوعية انهارت انتظرت بصبر في كافيتريا فندق بلجراد، في طابور"شيوعي" طويل للحصول على أول فنجان قهوة صباحي، وتحدث شخص ما خفي بصوت أجش، "ديفوشكا دعيني أقدم لك إيكليرشك" سألت"ماذا؟" فقال،"إيكلير صغير لك، وكأس كونياك صغير لي" .

عرض الرجل المنتظر في الطابور بكرم أن يشتري لي نسخة سوفييتية من الإيكلير، وهي فطيرة صغيرة من منتجات التحول من الملكية الشيوعية إلى اقتصاد السوق. بالطبع، الحالة التي تعرض نفسها ليس لديها ما تعرضه بالفعل، وأفقت متأثرة بمنظر الفطيرة

الصغيرة خلف الزجاج وبشعور مسبق من الحنين للمناظر الطبيعية المتلاشية في الحياة اليومية الشيوعية مخففة باستخدام التصغير الروسي على مشاركة المائدة مع ذلك الرجل الغريب.

رشفت رشفة من قهوتي الضعيفة، وقام الرجل باعداد ٢٥٠ جراماً منها لنفسه وسألني: "ديفوشكا، من أنت على أية حال ؟" فقلت،"أنا كاتبة." فقال، "هلا أمعنت النظر في الأمر، لقد أقمت علاقات مع كل أنواع العشيقات في حياتي من المومسات والسكارى، لكني لم أقابل امرأة كاتبة أبداً من قبل!"

"وأنت، من تكون؟" فقال، "أنا ؟! أنا سكير،" قالها بلطف وأخبرني كيف أنه أقسم منذ سنوات أنه سيعيش حتى يشهد بنفسه موت الشيوعية "عندها فقط سأكون قادراً على الذهاب لقبري بسلام". . قلت له بجلافة، "حسناً، أليست ميتة الآن؟". . قال خبير المناظرات الجدلية،"السكير"، صاحب الوعي المتمحور حول ذاته، "سوف أبقى عاماً آخر أو أكثر، فقط لأتأكد".

– ٢

على أية حال، لم يعد خطر الشيوعية يحاصر أوروبا، ولا يوجد من يمكنه القول بدقة متى تخلت الشيوعية عن كونها الشبح المهدد للغرب: البعض يدعي شيئاً، والآخرون يدعون شيئاً آخر. البعض

يدعي أنهم شخصياً اشتركوا في الضربة الأخيرة التي وجهت لها (عادة ما يكونوا من الأعضاء السابقين في الحزب)، بينما يقول آخرون أنها انهارت على نفسها من الداخل، والمجموعة الثالثة من المتشككين في السقوط الفعلي للشيوعية، ولازالت لديهم شكوكهم، ويبحثون عن القلب الميت للشيوعية حتى يمكنهم اختراقه فقط إذا تصادف ووجدوه، بعصا الزعرور!

استغرق الأمر- نقل جثمان الشيوعية من حمام الفورمالديهايد إلى صالة قسم التشريح الأكاديمي- بعض الوقت. . واليوم، تركب الجامعات سفينة دراسات التنبؤ بما بعد الشيوعية (ونحن نأمل في تحريرها)، ودراسات ما بعد الاشتراكية، ودراسة الشيوعية المقارنة؛ وتجرى كل هذه الدراسات في أماكن لم تختبر شيئاً عن الشيوعية، ويعلن قس أمريكي من أصل سلافي عن خدماته الثقافية على موقعه الالكتروني، مع شعار يدعو للبهجة ذي نغمة شيوعية: (تعلم أساليب ما بعد الشيوعية!). بالنسبة للبحث الأنثروبولوجي والاجتماعي والتاريخي والسياسي للموضوع فهو ليس كما لو لم يكن هناك حوث من قبل؛ إنما يبدو على النقيض من ذلك في الواقع. لكن حسب قراءة الموضوع ذاته لسنوات - نظام أيديولوجي مهول بمن يؤيده ومن يعارضه - سواء من موقع المؤيدين أو المعارضين، فإن أولئك الذين بحثوا في موضوع الشيوعية لم يستطيعوا أن يكونوا ولا كانوا يجرون

بحوثهم على أساس معيار مُدَقَق علمياً. وبهذا المعنى - معيار البحث - فإن الحطابين البشمان (أفراد شعب من القناصين الرحل في جنوب أفريقيا) ارتحلوا في بحثهم عن فريستهم بأفضل من ذلك.

وكما حدث مع المواطنين من الدول الشيوعية السابقة، فشل الباحثون في وقت كانت الشيوعية فيه حية وفي أفضل أحوالها وكان سكانها مرحين. بمجرد أن لفظت الشيوعية أنفاسها الأخيرة، وظهر الموز في المحلات- كان سلعة نادرة- صار المرح فجأة سلعة نادرة، ويمكنهم الآن في موسكو، أو بوخارست، أو براغ أن يشتروا أحذية ماركة"برادا"لكن النكات ذهبت. وطالما كان"لينين"متكأً ميتاً في الضريح كانت الحياة اليومية السوفييتية حافلة بالنكات على حسابه[٤]. لكن عندما سحبت الشيوعية أيقوناتها معها- بما فيها لينين - إلى القبر، بدأت الجدليات المملة والساخرة: ماذا سنفعل بالضريح؟ هل نترك لينين هناك أم ندفنه في مكان آخر؟ ولم يكن هناك من يجرؤ على اقتراح أن يفتح"كنتاكي فرايد تشيكن"فرعاً داخل ضريح لينين وهو أصبح احتمالاً قائماً في نهاية المطاف!

[٤] اتذكر مشروعاً بديلاً مسلياً من الفترة الشيوعية كان مصَمَماً لتجنب تلك الطوابير الطويلة الكيلو مترية عند مدخل مزار ضريح لينين في الميدان الأحمر. كانت الفكرة اعادة بناء الضريح على هيئة ساعة حائط تصدر صوت طائر الوقواق. وكان على لينين أن يخرج من القبر كل ساعة -على مدار اليوم- حتى يمكن للزائرين المهتمين رؤيته دون انتظار.

كتب الرواد الروس الطليعيون عن الثقافة التي ميزت القرن العشرين – "بولجاكوف"، و"بابل"، و"بيلنياك"، و"أوليشا"، و"زوشينكو"، و"بلاتونوف"، والعديد والعديد منهم – كتباً أدبية مثيرة وقوية، سوداوية وطريفة، عن الحياة اليومية المثيرة للخيال في زمن الشيوعية. وتعد رواية"الساق الذهبية"التي كتبها "إلف وبيتروف" أكثر الروايات تدميراً من الناحية الكوميدية والسياسية التي كتبت أثناء الشيوعية.

"كان هدف المدير الناعم"أوستاب بندر"الوحيد في الحياة أن يصبح مليونيراً وينتقل إلى ريو دي جانيرو وكان أحد الأبطال الكلاسيكيين العظام، كتفاً بكتف مع "سيرفانتس" في رواية "دون كيشوت"، أو "هاسيكس" الجندي السلافي الطيب." وقد ظهرت رواية الساق الذهبية عام ١٩٢٧ قبل مؤتمر "كاركوف" الذي فرض النظام الاشتراكي، ولا يوجد شيء كتب حتى اليوم أكثر دقة في هذا النوع الأدبي. وقد انتجت المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا قمم المفكرين السياسيين، والكتاب، ومخرجي السينما والمسرح الذين أبدعوا الثقافة الأعظم والأكثر إثارة فنياً والمدمرة في ذات الوقت أثناء الحكم الشيوعي. اخترق فن السوكا الشيوعي والحركة الفنية

للرواد الطليعيين الجدد – التي خربت الثقافة والنظام الاشتراكي بحنين استباقي غير معهود– قلب الحياة اليومية السوفييتية الشيوعية، وفسرت لغتها ورموزها منهية عملها "التذكاري" قبل موت الشيوعية. وانتقل الفنانون، مثل "إيليا كاباكوف"، و"كومار"، و"ميلاميد" وآخرون كثيرون إلى الغرب –فقط– عندما انتهت "مهمتهم"الفنية.

وهاجر الرمز المعبود للـ"السميزات" الروسي،"يوز اليشكوفسكي"، الذي جعل عامة القراء يغرقون في الضحك على كتبه الأدبية الأكثر غاربة على لإطلاق، ورغم أن كتبه ترجمت إلا أنها لم تحقق نجاحاً في الغرب، فلم يكن لدى القراء الغربيين احساساً بالحياة اليومية الشيوعية، وبالتالي لم يفهموا روحٍ المرح لدى المؤلف، وجعل التدمير اللغوي في الترجمة القارئ باردا تجاه ما يقرأ، وظلت الجوانب الشاذة والمتنافرة في صورة كاريكاتورية للعالم الشيوعي مغلقة على القارئ الغربي.

هذا هو السبب في أن أولئك الكتاب– الذين أتوا بعد انهيار الشيوعية– تمتعوا بالنجاح في الأسواق الأوروبية الغربية والأمريكية: كان الأمر بمثابة أناس يبيعون بضاعة تالفة ومستعملة، "المترجمين"(أولئك الذين "ترجموا"الحياة اليومية المعقدة للشيوعية إلى لغة أكثر بساطة وفي متناول القارئ الغربي؛ كتاب الاعترافات بالمعاناة

اليومية الشيوعية، التي سبق استعمالها كالملابس المستعملة!).

تم إغراق السوق- بعد سقوط الجدار وانتهاء الحرب الباردة- بأعمال كررت الأفكار المعادة للحرب الباردة، ونفس الاستراتيجيات الروائية. عاود مؤلفو تلك الأعمال زيارة دورات المياه الأوروبية الشرقية التي لا ورق تواليت فيها، وعاودوا الحديث عن النادلين الوقحين في المقاهي، والطوابير المهينة، والعناية الرديئة بالأسنان، وقمع الهوية الجنسية والدينية والعرقية، والناس الذين أكلوا لحم الكلاب بدلاً من لحم الستيك، والعمارة التي تفتقر إلى الجمال، والتماثيل الشيوعية السخيفة، والناس السمان السكارى الذين لا يوجد أي انسجام بينهم، والمتاجر الاستهلاكية التي لم يكن فيها أي شيء على الرفوف إلا الشاي والسمك المعلب الرخيص. كان أدب المكاشفة فيما بعد الشيوعية مع الشيوعية ذاتها مجرد كليشيه في الاستراتيجيات الأيديولوجية والإنجازات الفنية، تماماً كما كان أدب المرحلة الستالينية.

لهذا السبب بالتحديد كان هذا كله اختراقاً للشيوعية، واستطاع مؤلفو تلك الأعمال اكتشاف النقاط الضاغطة والموترة في خيال القارئ الغربي. وتبين أن نقاط التوتر ليست في الغرائبية التي لاتصدق عن الشيوعية إنما ببساطة في الأشياء المفهومة: مثل العناية الرديئة بالأسنان والمتاجر الخالية.

كانت الضربة الثانية التي نفضت الغبار ونقرت على الخيال الغربي وكشفت نقاط التوتر هي فتح الحدود، تلك اللحظة التي تدفق فيها الأوروبيون الشرقيون إلى الغرب.. كانت هناك أساطير مدنية كابوسية عن المافيا الروسية والأوكرانية؛ وعن الروس الذين يرسلون أطفالهم للمدارس في سويسرا ويشترون الماس مثل الفيشار؛ وعن"تسونامي"(إعصار) من الروس يغرق"كوت دو آزور"؛ وعن الروس الذين يشترون الفيلات الفخمة في أرقى الأماكن في أوروبا والولايات المتحدة؛ وعن الأوروبيون الشرقيون الذين يتجولون حول نيويورك وبرلين ولندن؛ وعن"الروس الجدد"أو مافيا ما بعد الشيوعية؛ وعن موسكو مدينة"جوثام"الشيوعية السابقة التي لم تعد تسبح في الدموع إنما في الأوراق المالية.

ولدت تلك القصص الأسطورية مستنقعاً معقداً من المشاعر: من المعاداة للشيوعية إلى شوفينية خفية، ومن الذات الأوروبية المهانة إلى انهيار ثقة الغرب في ذاته، الغرب الذي كان قد صمد لسنوات من خلال مفهوم أن الغربيين يستحقون العيش بأفضل كثيراً من أولئك الشيوعيين القابعين فيما وراء الجدار!.. كانت السيادة الفورية فيما بعد الشيوعية لقوانين الرأسمالية – أظهر الروس موهبة أصلية في هذا السياق– وهي الضربة الأشد تأثيراً على المواطن الأوروبي الغربي. وربما كان هذا هو السبب في غياب التعاطف مع

الرومانيين- ما بعد الشيوعية-الذين يمارسون التسول باللعب على الأوكورديون"الغجري"في المدن الأوروبية، أو مع البلغاريين الذين يمسحون أرضيات المراحيض الأوروبية، أو مع المدرسات المولدوفيات والأوكرنيات اللائي يعملن الآن كمومسات في شوارع المدن الأوروبية.

— ٤

انتقلت الشيوعية سريعاً بعد سقوطها إلى أكشاك بائعي الهدايا التذكارية: كانوا أول من شم رائحة الربحية في الحنين للماضي الذي يتمثل في الآثار المقدسة أو التذكارات المادية لثقافة تلاشت.. تاجَرَ التجار التافهين بعد سقوط جدار برلين في قبعات السوفييت المصنوعة من فراء الأرانب ذات الجوانب التي تغطي الأذن والتي تسمى"أوشانكا"، وفي الميداليات والأوسمة الشيوعية القديمة، وفي الأزياء العسكرية، وفي قطع الحجارة من جدار برلين. وافتتح في بولندا متحفاً للتماثيل الشيوعية التي بدت كما لو كانت صممت طبقاً لرسومات رسمها بعض المعادين للشيوعية من الحقبة المكارثية، ويتولد لدى الزائر انطباعاً بأن المتحف افتتح فقط من أجل استئصال فكرة أنه كان هناك أي شيء يرجع للحقبة الشيوعية - أكثر من التماثيل التذكارية القبيحة؛ الهدية الوحيدة التي يمكن للمرء شراءها من

المتحف عبارة عن علبة فارغة غالية الثمن تقبع فيها الروح الشيوعية!

وربما كانت التفصيلة الوحيدة الحية التي شاهدتها عند زيارتي للمتحف؛ عبارة عن راديو هنجاري من الخمسينات موضوع في الكشك الذي جلس فيه بائع التذاكر وكان يذيع الترنيمة الشيوعية الدولية باللغة الهنجارية[5].

لم يبق شيئاً من هذا كله سوى الملل من البضائع التالفة فيما بعد الشيوعية، وأدب المناسبات الذي قوى فقط من دعائم القوالب التي تفتقد للسمات الفردية عن الشيوعية التي أرسيت دعائمها لسنوات، وقمامة الهدايا التذكارية. فإذا ما كانت أمريكا- في مصادفة افتراضية ما- دولة شيوعية، ربما تدفقت الهدايا التذكارية للإعلام الجماهيري الأمريكي على السوق الكونية. تبدو شخصية السوبرمان في الكتاب الأمريكي الكوميدي"بطلك الشيوعي الإيجابي والنموذجي" تكراراً لنموذج"بروميثيوس" وبمثابة أيقونة شيوعية: رجل خارق (سوبرمان) يقوم بأعمال الخير ويجلب النور للبشر. الحقيقة أنه توجد تشابهات صادمة بين النظامين المتعارضين: الهوس

---

[5] زرت قبل زيارتي لمتحف النحت الشيوعي معرضاً كبيراً في بودابست للحركة المنشقة المناهضة للشيوعية، وكانت أغلبها هنجارية وتشيكية وبولندية، كما لو كانت الأشياء قد عادت لاتزانها، ورغم النوايا الطيبة تجاه كلاً من المعرض والمتحف، كان المعرض في كل صغيرة وكبيرة فيه مملاً ويفتقر إلى الخيال بنفس القدر الذي كان عليه متحف النحت الواقعي الاشتراكي.

بالسماء والطيران وهو خيال علمي مؤثر، والتركيز على المستقبل، والرغبة في التحكم في العالم، والمشروعات الإصلاحية الجنونية العملاقة. وتبين أن الشيوعية سقطت في أيدي جزء من العالم لم يكن لديه خيال سويّ عن السوق، وفي كلمة واحدة: أناس لم يكونوا جديرين بها (بالشيوعية).

بدا كل ذلك على هذا النحو للوهلة الأولى، السخيفة والعبثية، فكل بلد شيوعي سابق- روسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا وهنجاريا- يرتبط بماضيه القريب على طريقته الخاصة، مستخدماً تنوعاً من الاستراتيجيات: من التاريخ الشفاهي والتصريحات الأرشيفية للناس العاديين عن الحياة أثناء الحقبة الشيوعية، إلى البحث السياسي والسوسيولوجي والتاريخي وعلم تطور الأجناس؛ من الحنين أو (أوستالجيا)، وهي كلمة ألمانية ظهرت فيما بعد سقوط الجدار وتعني الحنين للماضي في الحياة اليومية الشيوعية ووجوهها المتعددة، والحماس في أرشفة وتجميع مواد الثقافة الشيوعية والمواد الفنية - الأدبية والبصرية والسينمائية- والبحث في العلاقات مع الشيوعية، والمراجعة التاريخية، وسياسات وأخلاقيات التذكر والنسيان حتى الصناعة الصغيرة للهدايا التذكارية.

ما الذي يمنح اليوجوسلافيين تميزاً في تجربتهم الشيوعية؟ لم تولد دولة يوجوسلافيا من رحم الثورة كمشروع شيوعي، إنما أثناء الحرب العالمية الثانية كمشروع مناهض للفاشية. ووضع الموالون من مناهضي الفاشية أثناء الحرب، وعلى رأسهم "تيتو"، لكونهم غير واثقين من النتيجة الحقيقية للحرب أسس يوجوسلافيا المستقبلية عام ١٩٤٣، وعندما خرجوا من الحرب منتصرين كون تيتو وأنصاره الدولة الشيوعية الجديدة "يوجوسلافيا".

واتهم اليوجوسلافيون الشيوعيون –بقرار من "الكومينفورم" عام ١٩٤٨– "بالانحراف عن الماركسية واللينينية"، كما اتهموا "بالموقف السياسي المعادي للسوفييت"، ثم بعدها بثلاث سنوات فقط استبعدت يوجوسلافيا من الأخوة الشيوعية العالمية.. وفي فيلم "امير كوستاريكا"، "عندما كان أبي يعمل بعيداً"، توجد تفصيلة – عادة ما يغفلها المشاهدون الأجانب– ستظل لغزاً للعديد من الأطفال الذين نشأوا في الدول ما بعد يوجوسلافيا الجديدة الذين تربوا على كتب التاريخ التي روجت: تقع عينا الأب في الفيلم وهو يتصفح الجريدة أثناء سفره بالقطار على كاريكاتير لـ"ستالين" فيعلق عليه مع عشيقته المسافرة معه، مستنكراً افتقاد الذوق والنغمة المهينة في الكاريكاتير، وبعد ذلك (لأنها تبلغ عنه البوليس السري)

يؤخذ في "رحلة عمل".

كانت يوجوسلافيا أثناء هذه الفترة القصيرة بلداً تسوده نزعة مكارثية للتفتيش الدقيق ومطاردة الميول الستالينية للساحرات الشريرات الشيوعيات، اللائي يستخدمن الأساليب الستالينية لإعادة التعليم على النمط الجديد. في هذه التفصيلة يكمن التناقض الظاهري في الشيوعية اليوجوسلافية، حيث يوجد لدى اليوجوسلافيين أشياء كثيرة ربطتهم بشعوب الدول الشيوعية الأخرى: صناعة الأيقونات(من الشخصيات المعبودة)، وجماليات المادة الفنية والأدبية التي تنتمي للشمولية، واستعراض القوة في العروض العسكرية، والعضوية الرائدة الشيوعية للأطفال، والاحتفاليات المهيبة (بعيد ميلاد تيتو)، والتماثيل المهولة. كما أن لديهم شيء ما تحلم به شعوب الدول الشيوعية فقط: حدود مفتوحة، وجواز سفر يسمح لهم بالسفر، وحكم ذاتي، وأفلام أمريكية، ومستوى معيشة أفضل بكثير، وإعلام أكثر ليبرالية. كذلك، كان لدى اليوجوسلافيين "شخصيات منشقة خارج السرب" مثل "ميلوفان ديلاس" على سبيل المثال، رغم أنهم لم ينشئوا ثقافة تحدى الشيوعية أبداً، ولا كان لهم خلفية ثقافية هامة مثلما كان للروس والتشيكيين والبولنديين والهنجاريين.

من الواضح أن الشيوعية والأمية لم تكونا الشيء المؤلم

ليوجوسلافيا . لقد خدمت الشيوعية وسقوطها اليوجوسلافيين، وقدمت تفسيراً مريحاً وملائماً لذوق المحللين الأجانب والسياسيين كحجة غياب شرعية عن الحرب. كان انهيار يوجوسلافيا (رغم أنه من الصعب أن نشير إلى أيهما أتى أولاً، الفرخة أم البيضة) لحظة مبدئية للانتعاش بينما انقضت الحرب العالمية الثانية هذه المرة بنتيجة مختلفة. بهذا المعنى يصبح "الأوستاشاس" و"الشينك"هم المنتصرون؛ بينما كانوا الخاسرين في السابق. وخسر الموالون– بعدها بخمسين عام– الحرب أخيراً .

في كرواتيا من ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٠ نهب ثلاثة آلاف نصب تذكاري للمعادين للفاشية. وفي "جينوفاك"– واحد من أكثر معسكرات "الأوستاشاس"تجاهلاً– أهمل النصب التذكاري وخرب في المعسكر الذي قتل فيه عدة آلاف من اليهود، والصرب، والروم، والكرواتيين أثناء الحكم النازي للدولة المستقلة في كرواتيا . وتغيرت أسماء الشوارع والمدارس والمعاهد التي كانت تسمى –حتى ولو بشكل استعادي– بالمناهضة للفاشية. واتباعاً للتعليمات الصادرة من وزارة التعليم والثقافة الكرواتية قام أمناء المكتبات بإزالة كل الكتب المناهضة للفاشية، والشيوعية، والصربية وغيرها من المكتبات، حتى أنه كانت هناك حالات حرقت فيها الكتب؛ كما نشرت صور "برسكا ليجرادك"، المرأة التي أنزلت سروالها وتبولت على قبر أحد

الرفاق الموالين لتيتو، في كل الجرائد؛ تلك المرأة قررت الاحتفال بالانتصار النهائي على معاداة الفاشية بطريقتها الخاصة!

وفي ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٤ تم نسف تمثال تيتو في كومروفيك، وهي قطعة نحتية شهيرة للنحات "أوجوستنشيك" تظهر تيتو في الزي الموحد للرفاق، حيث دمر الانفجار رأس التمثال، وبعدها بيومين سُرقت رأس الرفيق المحارب وقطعة من النحت الذي نحت قبلها بسنوات من نادي الرفاق المحاربين القدامى في "دوبروفنيك". في ذات الوقت أقيم في"زادار"استعراض في اليوم الختامي للمتعاطفين والمؤيدين للأوستاشاسيين، وساروا فيه مرتدين للزي الفاشي الموحد، حاملين صور لـ"آنتي بافليك" و"آنتي جوتوفينا"، وهم من أبطال الحرب الحديثة في البلاد الذين أدينوا في محكمة"هاجو"بجرائم حرب. كما أقيم تجمع في زغرب للقائد الأوستاشي"آنتي بافليك"، وتجمع في"زادار" لـ"جورا فرانسيتيك"زعيم عصابة أوستاشا السوداء المجهولة. وفي نفس الوقت تقريباً اتخذ اجتماع للصرب قراراً خصص لحصول الرفاق (الموالين لتيتو) والشيتنيك على معاملة متساوية؛ وبموجبه يكون للشيتنيك الباقين على قيد الحياة الحق في معاش المحاربين القدماء.

كانت الحرب الحقيقية حرباً لإعادة كتابة (أو تفصيل) التاريخ بمساعدة من "سلوبودان ميلوسيفيتش"من الجانب الصربي وبقيادة الجنرال السابق – الموالي لتيتو– "فرانجو تودمان". قفز "تودمان" –

من أجل منح الدولة الكرواتية صفة وشرعية الاستمرار التاريخي- على الخمسين سنة "اليوجوسلافية"، وقام بوصل كرواتيا الجديدة مباشرة إلى الدولة الكرواتية المستقلة قديماً، وهي دولة فاشية قامت في أربعينات القرن العشرين، وعندما توجه للعمل على برنامجه في إعادة تفصيل التاريخ لم يكن هناك مساعدين أفضل له من "الأوستاشيين" على الجانب الكرواتي، و"الشيتنكيين"على الجانب الصربي يزودونه- بأسلوب مناسب- بحجة الغياب التي احتاجها .

وما أن أطلق الأوستاشيين من القمقم، - كان البعض منهم ممن عاصروا الحرب العالمية الثانية، والبعض الآخر كان صنيعة الصياغة الجديدة- كان على "تودمان" أن يطلق أيديولوجيتهم معهم: الأكليروسية الفاشية، والمعاداة للفاشية، وأيديولوجيا التطهير العرقي وممارستها؛ وبعدها – بسبب شخصيته المزدوجة الشيزوفرينية وتحوله في اللحظة الأخيرة من الشيوعية إلى القومية- كان عليه إضافة معاداة الشيوعية للخلطة، حيث كان هذا كله يمضي داخل السياق الأكبر من الحماس العام، عند سقوط الشيوعية في الدول الأوروبية الشرقية الأخرى.

بالنسبة للتذكارات الشيوعية في كرواتيا لا يوجد أي منها . التذكارات الوحيدة التي لاحظتها أثناء زيارتي في ديسمبر ٢٠٠٤ كانت أصداء لكلمة "تيتو" – التي كانت تكتب عادة بحروف كبيرة

على واجهات قمم التلال الجرداء حتى يمكن رؤيتها من الطائرات المحلقة فوقها- وقد تم استبدالها باسم "تودمان" . من مكتبة في المروج الموجودة في الجامعة - حيث يمكنك رؤية أفضل المشاهد في زغرب- رأيت نقشاً بحروف كبيرة لاسم "تودمان" على العشب الجاف. كما استبدلت عصا المارشال "تيتو"- وهي هدايا عيد ميلاد تيتو في ذكراه التي انتقلت من يد ليد في صندوق قضيبي (خاص بآلة الرجل) عبر كل أرجاء يوجوسلافيا إلى بلجراد – بلهب مقدس أقل تميزاً؛ يمرره المؤمن من يد ليد في احتفالات الكريسماس، من الكاتدرائية في فيينا إلى كاتدرائية زغرب. ويوجد نصب تذكاري مدهش من الرخام الأسود لـ"تودمان"، بالضبط في مدخل الجبانة فوق الأرض التي تخلت عنها الكنيسة الكاثوليكية الكرواتية، وهو يفوق في ضخامته قبر تيتو في "بيت الأزهار"، ونقشت بالذهب على حجر قاعدة النصب كلمات: "فرانجو تودمان الرئيس الكرواتي الأول".

يفترض موت الهدايا التذكارية الشيوعية - خاصة في كرواتيا- أنه ربما لم تكن هناك شيوعية أبداً في كرواتيا، ولم يعد أحد اليوم يستخدم كلمة "شيوعية" في الإعلام الكرواتي؛ ويسمونها "الشمولية"، ومازالت الفاشية تسمى "فاشية" مقرونة دائماً بالشمولية، ما يقترح على المراقب ذا الاتجاه الواحد أن الفاشية كانت

منفصلة عن الشمولية .

وتقترح "الهدايا التذكارية الفاشية" في السوق الأيديولوجي الكرواتي أنه كانت هناك فاشية في كرواتيا، كما كانت هناك مناهضة للفاشية التي كان مؤيدوها لسوء الحظ من الموالين لتيتو ومن الشيوعيين. . ومع تحرير الدولة الكرواتية من "القمع الشيوعي اليوجوسلافي" صار سوق الأيديولوجيا الكرواتي سوقاً حرة للجميع، في الصراع من أجل التفوق. وتعاني كرواتيا، مثل الدول الأخرى التي انفصلت عن يوجوسلافيا الشيوعية الموحدة، من مشكلة خطيرة تتمثل في مزيج الخير والشر الأيديولوجي لديها . وقد أجبر السقوط الكارثي للمساهمات الشيوعية في السوق العالمي للأيديولوجيات السياسية، كرواتيا على الدخول في مرحلة إنكار تام لماضيها الشيوعي الذي تم محوه في ومضة زمن، وحطمت التماثيل الشيوعية، وطبعت كتب تاريخ جديدة تصف زمن "الظلام الشيوعي" والفترة المضيئة التالية له، مؤمنة بـ"الأبطال" في حرب الدولة الحديثة ضد العدوان الصربي . وعلى الجانب الآخر تأتي الإشارات من بروكسيل، بأنه إذا كانت كرواتيا ترغب في الدخول في مفاوضات الانضمام للاتحاد الأوروبي يوماً ما فعليها أن تُفعِل مشاعرها الحارة

الغامضة حول تاريخها الفاشي[٦]، ويُواجه السياسيون الكرواتيون اليوم بمأزق شائك يكمن في هذا المزيج الأيديولوجي، وهو مزيج لم يعد ممكناً الفصل بين عناصره.. كان الكرواتيون الشيوعيون معادين للفاشية، وكان الكرواتيون المعادين للفاشية شيوعيين، والأسوأ من ذلك كانوا.. يوجوسلافيون.

— ٦

"مع موت الشيوعية انهار الخيال الاجتماعي الذي تم الاحتفاء به، باعتباره "دخول إلى عهد النضج، عهد ما بعد الأيديولوجيا. لا يوجد أحد يضع في حساباته البدائل المحتملة للرأسمالية"

"جيمسون"

نحن نعيش في "زمن ما بعد تاريخي"، وهو زمن "خال من الصراع" أو زمن "الفتور"؛ زمن مؤثر كما هو عليه، إذ أن أفق الخيال الاجتماعي لم يعد يسمح بأن نستمتع بفكرة الزوال الحتمي للرأسمالية، حيث أن كل واحد يقبل في صمت فكرة أن "الرأسمالية هنا لتبقى"، وقد وجدت الطاقة أو القوة الحرجة منفذاً بديلاً لها في

[٦] نجد نفس المشكلة في الموقف الرسمي تجاه الماضي، الفاشي منه والشيوعي، في كل الدول الشيوعية حيث تم محو الماضي الشيوعي وكل رموزه. البلد الوحيد من تلك البلاد الذي ما زال يستخدم رمز المطرقة والمنجلة، ورموز العمال والفلاحين هو بلد هتلر الأصلي، النمسا، التي كان المطرقة والمنجل جزء من رداءها مئات من السنين.

obeikandl.com

الصراع حول الاختلافات الثقافية، التي تترك الانسجام الأساسي للنظام الرأسمالي متماسكاً." الثمن الذي دفع لهذا التفريغ السياسي للاقتصاد هو أن سيطرة السياسة نفسها بمعنى ما قد أفرغت من مدلولها السياسي؛ وتحول الصراع السياسي الصحي إلى صراع ثقافي للاعتراف بالهويات الهامشية واحترامها، وللتسامح مع الاختلافات الثقافية[7] .

افترض أن الناس الذين كانوا يعيشون في الدول الشيوعية السابقة، بعد الهزة الأولى لسقوط الجدار، قد شعروا بشيء من خيبة الأمل التي شعر بها الناس ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، خاصة الروس. كانت وصمة عارهم الأسوأ أنهم زرعوا الشيوعية، التي كان ستالين وحشها الأسطوري، وكانوا هم من عذبوا البولنديين والهنجاريين والتشيكيين لسنوات عديدة، وهم من عذبوا أبناء بلدهم "السوفييتي" من الأوزبكيين والليتوانيين والأستونيين؛ لقد عاشوا الكابوس الحقيقي للمعسكرات الستالينية؛ وخلال الحرب العالمية الثانية خلفوا بعضاً من ٢٧ مليوناً من القتلى في أراضي المعارك التي لم يضعها أي منهم في حسبانه؛ وأكثر من ذلك أن الدور الروسي في مناهضة الفاشية – في العديد من المراجع الأوروبية

[7] سلافوج زيزك، مقدمة الطبعة الاحتفالية بمرور ١٥٠ عام على صدور المانيفستو الشيوعي. زغرب: آركزين، ١٩٩٨ .

الغربية- لا يذكر. . وكانت الحياة اليومية فيما بعد الحرب بالكاد محتملة؛ وكانت حقبة ما بعد الستالينية تعني شيئاً من الخلاص لكنها كانت تعني أيضاً هجرة واسعة؛ ومر الروس بمرحلة الانهيار المؤلم للاتحاد السوفييتي الذي جلب معه ضحايا جدد. . وفي نهاية هذا الكابوس استقبلوا بالهتاف والاستحسان، والجائزة التي كان مفترضاً أن تعوضهم عن كل كروبهم كانت: سوق مجمعة يمكنهم فيها شراء التونة التايلاندية المعلبة، والزبادي الألماني، والربحة الهولندية، والعلكة الأمريكية !

كان استحسانهم يتبدى في أنهم يستطيعون شراء كل تلك الأشياء، لكنهم لم يملكوا مالاً لذلك، كان استقبالهم بالهتافات بحشد من التناقضات التي لن يكونوا قادرين على البوح بها لأي إنسان، لأنه لم يعد هناك أحد يستمع إليهم أو يهتم بهم، إلى جانب أنهم اكتشفوا أن هناك وصمة عار تعمل ضدهم كما لو كانت شائعة. . ويعد من الأسهل كثيراً إطلاق شائعة لإثبات أن الشائعة الأصلية خطأ؛ والحقيقة التي تأكدت فيما بعد نادراً ما لقيت اهتماماً من أحد .

افترض أن نفس هذا الشعور بخيبة الأمل أحس به أولئك الذين لم يملكوا شيئاً يمكنهم عمله تجاه الشيوعية، رغم أن العالم الشيوعي كان المقياس الذي قاسوا به مستويات سعادتهم. ومع تلاشي الشيوعية تلاشت الشاشة ،الأكثر إظلاماً على الإطلاق، التي

أمكنهم اسقاط خيالاتهم عليها؛ وبهذا فقدت الشخصية السادية فجأة ضحيتها المفضلة ! .

كذلك جلب موت الشيوعية خيبة الأمل لأولئك الذين شعروا أنهم أفاقوا على عالم تخلص من اليوتوبيا فجأة. وتنتهي أكثر مسلسلات الست كوم الإنجليزية شعبية في كل الأزمنة (حمقى وجياد فقط) بانحراف غير متوقع: فالجياد المدربة "ديل بوي"، و"روني"، و"جرانداد"، وهم من الكوميديين المعادين للأبطال، الذين يمثلون الحثالة الاجتماعية للمجتمع الإنجليزي، وكانوا يسلون المشاهدين لسنوات بمحاولاتهم الفاشلة للحصول على المال وصاروا في النهاية مليونيرات بالفعل[٨] .

لم يكن هذا النجاح بفضل عملهم الشاق الذي كان ليؤكد الأيديولوجية الرأسمالية، لكن بفضل الصدفة البحتة، وفي البداية أدخلت الثروة السرور على نفوسهم، لكن "ديل موي" المرح والمفعم بالطاقة سريعاً ما غرق في حالة من الفتور. وذات مساء انطلق

---

[٨] صار "أوستاب بندر" مليونيراً مثلما في "الجياد المدربة على الخبب" في التليفزيون، فيما عدا أن هذا حدث مبكراً بعدة عقود، وفي مناخ أكثر تسلية بكثير. أعلن أوستاب في مفاجأة سارة، "إذن أنا الآن مليونير!" حلم أبله صار حقيقة! شعر أوستاب فجأة بالاكتئاب، وصدم بالوسط الممل الذي يحيط به، وأدرك أن من الخطأ أن العالم لم يتغير في تلك اللحظة، وأن لا شيء، لا شيء قد حدث على الإطلاق. شعر بالملل، مثل "رولد آموندسين" الذي مر فوق القطب في سفينته الفضائية "نورج"، بعد عمر من السعي لذلك، فقال لرفيقه في الرحلة دون أي حماس، (حسناً، ها نحن هنا!)، ولكن تحت هذا القطب ثلج متكسر، وصدوع، وبرودة، وفراغ. لقد تم اكتشاف السر، وتحقق الهدف، ولم يعد هناك شيء يمكن القيام به سوى تغيير المهنة.

خارجاً من فيلته الجديدة، وذهب لمقر إقامته القديم؛ وهناك وجد، في مواجهة غير متوقعة في الشقة الصغيرة الفقيرة التي اعتادوا الإقامة بها، كلاً من"روني" و"جرانداد" وقد أتوا مدفوعين بالحنين لحياتهم السابقة. واعترف الثلاثة بأن حياتهم فقدت نكهتها عندما فكروا في المدى الذي كانت عليه من إثارة من قبل، عندما كانوا يتوقون لأن يصبحوا مليونيرات. ثم مدَّ "ديل موي"رأسه تجاههم بغطرسة مقترحاً الوسيلة الوحيدة للخلاص: "هيا دعونا نصبح مليارديرات!"

هذا ما نجد أنفسنا قد تورطنا فيه في النهاية: خلود المنطق الرأسمالي، الذي لا سبيل لتهدئته او تغييره!

يناير ٢٠٠٥

obeikandl.com

بطاقة بريدية من مقر أجازتي

- ١ -

طلبت خدمة طبية من طبيبة ذات مرة أثناء زيارة للولايات المتحدة. لمعت عينا الطبيبة عندما علمت أنني من أوروبا وقالت: "من أوروبا ؟ أنا أعرف أوروبا جيداً ! أين تسكنين فيها ؟" قلت، "في يوجوسلافيا السابقة،" فصرخت في الطبيبة، "لا، انت لا تقصدين ذلك بالفعل ؟"

تبين أن الطبيبة وزوجها من الأمريكيين اليهود ذوي الجذور في أوروبا الشرقية، وقضوا أجازتهم الصيفية متسكعين حول الطرق الفرعية للهولوكست، بينما ذهب الناس العاديون إلى أسبانيا أو اليونان، ذهبوا هم إلى معسكر في "أوشفيتز"، و"تريبلينكا"، و"بوشينوالد" . . وقالت الطبيبة، "أحياناً أفكر أننا مجانين ! فأنا أعيش مع هذا الرجل المهووس بتذكر آلام أسلافه، وأطفالي صاروا مقتنعين بأفكار الهولوكست ! وفي كل صيف أذهب في رحلة أشبه برحلة الحج إلى مواقع الهولوكست، لا أدري ما الذي دفعني للزواج بأحمق كهذا !" . . قالت ذلك رغم أن التعبير الذي بدا في وجهها كان تعبيراً ينم عن امرأة سعيدة في زواجها .

٢ -

كانت فرصة تاريخية عظيمة أن قبائل الكرواتيون منذ زمن بعيد اخترقوا ذات مرة البحار، وأنهم بقوا على هذه الأرض؛ ويعود الفضل لتلك الفرصة التاريخية في أن الكرواتيين لديهم اليوم البحر الأدرياتيكي، تماماً مثلما يملك السويديون بحر"إيكيا"، ويملك الهولنديون محارتهم، ويملك الألمان "بي. إم. دبليو."

اليوم يحتشد الناس في جماعات للذهاب إلى الأدرياتيك، وتبلغ معدلات الإيجارت والإشغال في سوق العقارات أرقاماً فلكية، وابتكرت الوكالات العقارية أسماء مثيرة للمواقع الأثرية مثل "صخرة المتعة" . وفي سعيهم إلى البحر المتوسط، كما كان الحال ذات مرة،"تجول العديد من مشاهير الناس في كرواتيا هذا العام: الأميرة الأردنية المذهلة، وأميرة موناكو، وشارون ستون، وجون مالكوفيتش، وإيفانا ترامب .

تنطلق القوارب التي تبدو على هيئة السيجار واليخوت عبر مياه الأدرياتيك اللازوردية، وتبدو الفنادق في حالة جيدة، وتبدو المراسي في الحياة الواقعية تماماً مثل صورها في الكتيبات السياحية. ويسقسق الجدجد (صرصار الليل) مفعماً بالطاقة، أو هكذا يقولون عن سقسقته في يوجوسلافيا الشيوعية، وتشرق الشمس بقوة، لكن كتلتها تبدو أكثر اصفراراً أيضاً . ويتزاحم الناس ،مثل كلاب القرية،

على ما تبقى من مراكز الترويح القديمة التي كانت مقراً للعمال الشيوعيين في أجازاتهم (لتمحو الآثار الأخيرة لذلك"الماضي الشيوعي المقيت"عندما كان العمال قادرين على تحمل نفقات أجازة على شاطئ البحر) .

لم يعد هناك أي صربي، وهو أمر جيد وعظيم أيضاً: صارت منازلهم الصيفية التي"احتلوا"بها الشاطئ الكرواتي مهجورة من زمن، أو انتزعها منهم مقابل ثمن بخس السكان المحليون الذين قدموا عروضاً لم يستطع ملاكها السابقين رفضها . هناك أناس آخرون يقضون الصيف على شاطئ الأدرياتيك؛ وهم الضيوف الأكثر اتزاناً: الإنجليز، والنمساويون، والألمان، والإيطاليون، والروس الأكثر سخاء والأكثر قدرة على سداد الفواتير!

– ٣

إذن، ما العلاقة التي يمكن أن تقوم بين طبيبة أمريكية وسائحة كرواتية؟ . . لا يوجد . تلك عوالم متوازية. عالمنا حقيقي وروحاني، ويتقاطع مع شبكة كثيفة من العوالم المتوازية. هذه هي الطريقة التي نعيش بها حياتنا القصيرة؛ كل واحد يمضي في دربه الخاص. وإذا كنا لنتخيل ،للحظة فقط، أن هناك بين تلك العوالم المتوازية ممرات، فسوف نصاب بنوع من الفوضى العقلية؛ على الأقل

بالقدر الذي يتعلق بطبيعة المرور العقلي، نحن هنا نستخدم مجازات لأنها وسيلة دفاعنا المتاحة في مواجهة الكوابيس.

عدت بذاكرتي في هذا الصيف لتلك الطبيبة الأمريكية بينما كنت على متن قارب في نزهة قصيرة من جزيرة "كرك"إلى جزيرة"جولي أوتوك" (الجزيرة العارية بالإنجليزية). وتصادف أنني كنت مع مجموعة صغيرة من الزملاء الكتاب، وانضم إلينا كرواتي من النمسا وهو مصور محلي، وكان دليلنا في الرحلة مدرساً للتاريخ، وهو رجل في الثانية والثمانين من عمره كان سجيناً سياسيا في الماضي قضى ثلاث سنوات في سجن جزيرة جولي اوتوك، ولا يوجد على قيد الحياة من مثله الكثير من الناس من الشيوعيين السابقين، والسجن نفسه اختفى من الوجود .

وظفت جزيرة جولي أوتوك، في الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٦، كسجن للشيوعيين السابقين من السجناء السياسيين الذين أظهروا ولاء لستالين أكبر من ولاءهم لتيتو. وبمرور الوقت صار السجن سجناً "عادياً"، وفي النهاية صار مهجورا تماماً في الثمانينات. أثناء تلك العقود الثلاثة كان المعسكر في أوج مجده، حيث شيد السجناء طريقاً يمتد بطول الجزيرة، وزرعوا أشجار صنوبر نمت وصارت ضخمة بمرور الوقت، كما أقاموا مبان بعدد أصابع اليد: مبنى إدارياً (أعطي لقب فندق بلغة السجن الدارجة)، وثكنات للجيش،

وورش عمل، وداراً للسينما، وملعباً للتنس، ومستشفى، ورصيفاً، ومصنعاً. وكانٍ واحداً من أكبر المحاجر في يوجوسلافيا موجوداً بالجزيرة: حرفياً قامٍ السجناء بتقطيع وتفتيت الصخور. وبعد أن أغلق السجن رسمياً نقل سكان الجزر المجاورة ما تُرك فيه: لو كانوا قادرين على طي الطريق مثل سجادة لكانوا لفوه تحت ابطهم وجروه معهم.

عندما نزلنا من على سطح المركب كان أول شيء رأيناه مطعماً صغيراً مزدهراً عند المرسى، وتصادف أن احتجت إلى شراء زجاجة مياه؛ لكن أستاذ التاريخ (المرشد السياحي) استعجلنا، وسرنا بخطى سريعة، واستقرينا بالخارج صاغرين. ثم شعرت برغبة ملحة لا تقاوم في العودة وطلب مشروب الكوكاكولا، وأن اتسكع على شاطئ البحر لساعات، لكن لم يكن هناك ممشى يمكنني السير فيه، ووصلنا لسجن جولي أوتوك ،بحق الله، لنرى هذه الوصمة المروعة التي لحقت بضمير تيتو، والشيوعيين، وكل الشعب في يوجوسلافيا السابقة!

— ٤ —

مستنزفة بالحرارة، وأشباح خيالي الذاتي الذي توتر بالتورط في تصور الأهوال التي كان الأستاذ يربطها بالسجن، حتى أننا أمكننا بالكاد التقاط أنفاسنا. وتقدم الأستاذ ،رشيقاً ومقتضباً مثل الظل،

خلال المسالك المألوفة: من المرسى والمبنى الإداري إلى الثكنات وورش العمل؛ ومن خلاطات الأسمنت إلى المستشفى؛ ومن المستشفى إلى قاعة الطعام، واستخدم الأستاذ الفعل المضارع بدلاً من الفعل الماضي في وصفه لهذا كله، وأزّ فعله المضارع حولنا مثل إلحاح أزيز ذبابة.

كان سجن جولي أوتوك موضوعاً محرماً الحديث عنه لسنوات طويلة في يوجوسلافيا، وبدأ الحديث عنه في العلن في أواخر السبعينات فقط: الروايات الأولى عن الأفكار الرئيسية حول جولي أوتوك والذكريات الأولى؛ ربما مع تطور واستمرار الانهيار الجليدي المفاجئ للأحداث مثل زوال يوجوسلافيا، اختفت الفكرة الرئيسية مرة أخرى، وكان من الممكن أن يستخلص العديد من الناس –على الأقل في هذا العهد الجديد– فائدة أخلاقية ما من سجن جولي أوتوك؛ لكنهم لم يفعلوا ! أتتعجب لماذا لم يفعلوا ؟

مات قرابة أربعة آلاف من البشر في"سجون الأشغال الشاقة للمتهمين بالعمل ضد يوجوسلافيا"، الذين مات أغلبهم ،كما يقولون، بالمرض كالتيفوث والدوسنتاريا . لم يكن معسكر جولي اوتوك مصمماً كمعسكر للموت، لكن بالأحرى كمدرسة رهيبة ومخزية في ممارسة الإهانة المتبادلة؛ إذ كان على كل سجين أن يلعب دور كل من الجلاد والضحية، وهذا هو السبب في أن الأستاذ ،في مرحلة بعينها، علق

بتواضع أنه في هذه البقعة التي نقف عليها قام بضرب سجين قائلاً، "ضربته، كان يجب عليّ ضربه، ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك" قالها بالفعل المضارع المزعج. ولاحظت أثناء حديثه كتابة بالجرافيك منقوشة على الجدران تركها السجناء هناك، "نبني سجن جولي اوتوك، وجولي أوتوك يبنينا !" .. إنهم الضحايا الذين حاربوا من أجل حقهم في الذكرى بهذا النقش وليس الجلادين. كان السجناء في جولي أوتوك مجبرين على أن يكونوا جلادين كذلك، وهذا هو السبب في أنه ،من بين أزمنة أخرى، كانت هناك مؤامرة صمت بين نزلاء السجن حين أطلق سراحهم.

٥ —

أخبرني الأسترالي الكرواتي الأصل، الذي ظل يقضم طعامه بينما يتجول في الجزيرة، "كل هذا رهيب وشنيع جداً ! فقط لو سمحوا لي بشراء إحدى الوحدات فلن يكون عليّ سوى أن تصبح الوحدة التي أبقى فيها باقي عمري، ليست لديك أدنى فكرة كيف سأتمكن من جعل المكان رائعاً ! مثل جوهرة! عندما كنت هنا كان كل شيء يلمع؛ لقد مسحنا كل صخرة، حتى أنك كان يمكنك أن تلعقي الأرضية فقد كانت شديدة النظافة !" وتبين أن هذا الأسترالي قد حكم عليه هو أيضاً بالسجن في جولي أوتوك، وقال من فوق ربوة

تطل على منظر شامل للبحر المتلألأ:

- هنا ... هنا عانيت ... كل هذا بسبب الوحش المتعطش للدماء، ذلك الديكتاتور، اللعنة على أمه الشيوعية! حتى أنني كان عليّ أن أغني له أغنية أثناء تقطيع الصخور؛ بالطبع أنت تعرفين الأغنية!

ثم أعد الأسترالي حلقة للغناء، وغنى بصوت رنان:

- تيتو يمشي فوق جبل رومانيا.

اعتقدت أنه سيغني مقطعاً واحداً فقط، لكنه وبدون عاطفة غنى لنا الأغنية كاملة، ثم سحب تليفونه المحمول وأوضح لشخص ما مفترض أنه في أستراليا مكانه في تلك اللحظة، وسمعته يقول:

- يا له من يوم مشهود!

لم يكن ذلك الأسترالي الكرواتي يستفد من الوقت بسبب الكومنفورم؛ واعتقله حرس الحدود اليوجوسلافيون مرتين أثناء محاولته الهرب بشكل غير شرعي عبر الحدود، وقضى حكماً بالسجن لمدة عام في جولي اوتوك. ثم عبر الحدود بعد إطلاق سراحه، مرة أخرى بشكل غير شرعي، ونجح في تلك المرة بحيث انطلق إلى أستراليا. وكانت هذه الرحلة الأولى له بعد كل تلك السنوات التي يعود فيها ليوجوسلافيا.

ترك الأسترالي أثراً في: بسبب الطعام الذي ظل يخرجه من

حقيبته التي يضعها على ظهره، والاهتمام الذي أبداه بالمكان الذي كان سجيناً فيه (أنا أيضاً وجدت نفسي أفكر أنني كنت لأحب أن أجمع أكمام أثوابي وأغسلها كلها حتى تصبح نظيفة مثلما أراد جعل المكان مثل جوهرة!)، وفشله في توضيح قدر المهانة التي تعرض لها في جولي أوتوك. استطاع الغناء بتفاخر عن الوحش المتعطش للدماء، الديكتاتور الذي فرض عليه لسنوات طويلة من قبل أن يظهر أفضل ما لديه - في حنجرته- وهو ما كان تقريباً نوعاً من الترضية الجسدية. نعم، "نحن بنينا جولي أوتوك، وبنانا جولي أوتوك!"

- ٦ -

قبل رحلتنا بشهر أو أكثر ظهر مقال في جريدة كرواتية عن فيلم من أفلام الشواذ الإباحية كان قد صور في جزيرة جولي أوتوك، في إنتاج كرواتي- هنجاري مشترك، وكانت معه صور للرجال ذوي العضلات يتريضون والخوذات فوق رؤوسهم، ويحملون المعاول لإعطاء مصداقية للفيلم.

وعندما سرنا أسفل الربوة من موقع ثكنات السجن وصلنا إلى حيث كان طاقم الفيلم يقوم بتصوير الفيم الإباحي فوق الجزيرة، ورأينا نجوم الأفلام الإباحية، وكانت الأكثر وقاحة منهم امرأة شابة جذابة المظهر ترتدي بنطلوناً أسود قصيراً بأزرار أمامية، وكانت تتلوى أمام

ثكنات السجن. ولم تستطع المصورة المحلية، صديقة الرفيق الأسترالي الكرواتي الأصل، أن تكبح جماح سخطها على ما تراه، وسألت الشابة بالألمانية:

- أتعرفين أين أنت؟.

تراجع مصور الفيلم بهدوء، وهزت الفتاة كتفيها بلامبالاة.

- ألست خجلة من نفسك؟! أنت تتبخترين في ثياب بالكاد تستر جسمك في مكان مات فيه آلاف من البؤساء الذين عانوا كثيراً!

وحاولت التدخل لتهدئة الموقف:

- لماذا تهاجمينها؟ من الصعب أن ندينها.

عندئذ جأرت المصورة بالقول:

- ماذا تعنين بقولك أنها ليست غلطتها! إنها لا تملك حتى القدر اليسير من الوعي السياسي في رأسها تلك!

وزأرت في وجه المرأة الشابة،

- حري بك أن تشعري بالعار!

فهزت المرأة كتفيها مرة أخرى، ولم تكن المصورة لتستسلم:

- أنتم تصنعون فيلماً إباحياً في مكان دفنت فيه عظام البؤساء الذين عانوا في السجن!

أخيراً استفزت المرأة التي تكتسي بالقليل من الثياب وخرجت

من حالة اللامبالاة:

- إنه ليس فيلماً إباحياً ! إنه فن !

قالت ذلك بيقين شديد حتى أننا جميعاً حسدناها على مدى ثقتها الفنية المتميزة.

تحدث الأستاذ المرشد السياحي بصوت ثابت، كما لو كان يتحدث عن شيء لا علاقة له به، وشرح أساليب التعذيب التي استخدمت مع السجناء: تنقيط الماء من أنبوبة داخل الأنف، والإغراق شبه تام للسجين، وتكويم صخور ثقيلة فوق صدره، والإذلال بالتحكم الخارجي في الوظائف الجسدية ! وغيرها من الأفعال التي لا تتوافق كلها مع المنظر الطبيعي المدهش من حولنا . هكذا، لفق الأستاذ قصته الحزينة،"دفعت صخرة ثقيلة هناك عند هذا التل حيث كانوا يضربوننا ."

— ٧

تركت المجموعة عند نقطة بعينها، وكنت أعاني العطش فذهبت باتجاه المطعم عند سفح التل، وعندما وجدت نفسي وحيدة في الطريق الذي بدا أبيضاً مثل الطباشير في ضوء الشمس الساطعة، شعرت فجأة بخوف لا يوصف. حاولت أن أتحرك بسرعة أكبر لكن الرعب شل حركتي؛ وخطوت خطوات بطيئة مؤلمة، ونزّ الخوف من

كل مسام جلدي، لم أكن أشعر بأي شيء، وتعجبت بعدها ما الذي يمكن أن يكون مصدر هذا الخوف؟ . . ربما الصمت! هذا الصمت الثقيل. لم استطع سماعٍ صوت خطواتي؛ بدا الأمر كما لو كان الطريق الذي أمشي فيه مبلطاً بألواح من القطن، وغرز الصمت نفسه حول عنقي، وربض أسفل قمة رأسي وضغطني، وسحب أنفاسي.

٨ –

في المطعم كانت المشروبات المثلجة في انتظارنا وسمك ماكاريل لم يكن طازجاً تماماً لكننا أكلناه باستمتاع كبير. كان هناك بالقرب من مكان جلوسنا ستاند مؤقت لبيع الهدايا التذكارية؛ تماثيل من البلاستر للسجناء في زي السجن تحاوط الستاند مثل البطاطا الرمادية القديمة، وكانت عيون السجناء المحفورة في البلاستر – ثقبين أسودين– مقصوداً بها استحضار مشهد العذاب والمعاناة، كما كانت هناك هراوة مصممة برشاقة، تشبه إلى حد كبير عصا البيسبول (المضارب اللامعة المصقلة كانت أغلى) محفور عليها "مع تحيات سجن جولي أوتوك"، وطفايات سجائر عليها نفس التعبير العاطفي. .اشتريت طفاية سجائر وهراوة خشبية. وفيما بعد تركت الهراوة في حجرتي بالفندق في جزيرة "كرك" يملؤني شعور بالعار من اضطراري لإحضار هدية تذكارية للبيت جديرة به.

عدنا إلى سطح المركب يحدونا شعور بالارتياح، وبينما كنا نبتعد لفت نظري لافتة فوق المرسى، "مجتمع الصيادين" . فتح الرجل العجوز الذي قاد المركب جهاز تسجيل مثبت فيه حيث كانت تصدح أغنية فولكلورية دلماسية (من الجزء الغربي في يوجوسلافيا) . التقط الأسترالي الكرواتي آخر كيس شيبسي في حقيبته، وعلبة من الحلوى الخفيفة نزت منها الشيكولاتة الذائبة، وعرض حلواه بحماس على الجميع، وغرق الأستاذ في النوم وهو في حالة من الخدر التام.

كان الوقت متأخراً بعد الظهر عندما غادرنا الجزيرة، لكن الحرارة لم تنخفض، وحز في قلبي محاولة استحضار مشاعر تثبت نبضه لكنه ظل بارداً بغرابة. كانت الطعنة الوحيدة التي شعرت بها عندما تذكرت مشهد أشجار الصنوبر في جولي أوتوك. لقد نمت الأشجار وصارت أجمة بفضل الظلال التي خلفها السجناء؛ وكانت تلك الظلال إحدى وسائل التعذيب في السجن: كان الرفاق يجبرون على القاء ظلال أجسادهم حتى لا تتحمص الشجيرات المزروعة حديثاً من أشعة الشمس، هنا كانوا يحافظون على المياه؛ لا البشر !

— ٩ —

كيف تروض خفاشاً مصاصاً للدماء صدم المرء برؤيته؟ ! كيف تعيد الاتصال بالماضي؟ ! هل كما فعلت طبيبتي الأمريكية

التي احتضنت صدمة الأذى الجماعي باعتبارها صدمتها هي، وذلك بالذهاب لاجتياز مواقع الهولوكست بالسير الشاق؟ أم كما فعل الأستاذ (مرشدنا السياحي) الذي كان يحاول أن يدير ظهره "بموضوعية وبشكل مدرك للحواس" لذكريات رفاق قدامى، لكنه اعتمد في ذلك على الفعل المضارع الغدار؟ كما فعل الأسترالي الكرواتي، الذي عاد إلى مكان تعرضه للأذى مسلحاً بحقيبة على الظهر مليئة بالساندوتشات والحلوى وأصابع الشيبسي وتليفون محمول، مبقياً على هذه الصلة الهشة بالماضي التي تحافظ على البقاء في العالم الخارجي في ذات الوقت. هل يجب عليه أن يمسح ويلمع كل شيء حتى يصبح كالجوهرة؟ أم يتركه بدلاً من ذلك على حاله؟ كيف نصل الحاضر بالماضي؟

كيف نتواصل مع ذكرى أذى أو صدمة قريبة بحيث يتفهمها الآخرون فعلاً؟ ألم نكن نتوق إلى مكان ظليل ومشروب مثلج بينما كنا نستمع لشرح الأستاذ؟ وما الذي حفظناه في قلوبنا من كل ما سمعناه؟ ماذا عني أنا، وأنا أمضي في حكايتي هذه؟ ماذا عن مسئوليتي؟ هل يمكنني أن أؤكد دون أن يؤنبني ضميري أن النص الذي أرسلته لمستقبله المجهول هو بالكاد مجرد بطاقة بريدية من مقر أجازتي؟ هل يمكنني أن أمضي قدماً متصالحة مع الماضي الخاص بي وذلك الماضي الجمعي؟ وهل ماضي المرء الخاص يمكن الوثوق

فيه؟ هل الماضي الجمعي يمكن الوثوق فيه؟ وماذا عن الماضي"الرسمي"الموجود في كتب التاريخ، هل يمكن الوثوق فيه؟

- ١٠

يعد تاريخ سجن جولي أوتوك - بمعان معينة- قصة حياتي أيضاً . . فقد ولدت في ١٩٤٩، ونشأت على أيديولوجية"لا"تاريخية لا خوف فيها، تبرأ بها "تيتو" من "ستالين"، وكان أبي يوجوسلافياً تزوج من امرأة بلغارية هي أمي . . بلغارية أم روسية، الناس لا يميزون كثيراً بين الأثنين، فكل أوروبي شرقي أجنبي كان في عرفهم جاسوساً . كانت أمي، في هذه الفترة القصيرة من جنون الاضطهاد الجمعي كما اتصور، مفترضاً فيها أنها جاسوسة بلغارية . . ربما كان أبي ليدان بأنه"خائن"؛ لكن لحسن الحظ لم يحدث ذلك، لكن أمي ظلت غير قادرة على أن تزور أبويها لعشرة أعوام، والتقيت مع جدي لأمي فقط عام ١٩٥٧، بعد عامين من بدء العلاقات الدبلوماسية مع بلدان المعسكر الشرقي، وظلت هذه اللحظة التاريخية محفورة في ذاكرتي لا أنساها أبداً .

تيتو مرتدياً زي المارشال الخاص به وهو يصافح خروتشوف، بينما ينحني خروتشوف بطريقة تقارب أسلوب العبيد، وتيتو يقف طويلاً مهاباً . أذكر حادثة عرضية خلال رحلتنا القصيرة لزيارة

جدتي وجدي لأمي في مدينة "فارنا" على البحر الأسود: عندما ذكرت مكان جذوري زأر صبي بلغاري من نفس سني في وجهي بوقاحة قائلاً:

- تيتو هذا خنزيرٍ رأسمالي!

أجبته بهدوء رداً حاسماً:

- ستالين هذا خنزير!.

— ١١ —

ربما يتعجب شخص ما لديه حساسية عرقية (أنثروبولوجية) كيف أن الكروات (كل شعوب البلقان في الواقع!) الذين نموا وساوس قهرية جمعية عن الأضرحة والمدافن.. لم يتحركوا خطوة حتى الآن على سبيل المثال، لإقامة متحف لضحايا الشيوعية في سجن جولي اوتوك، خاصة أن معظم الكرواتيين يأولون يوجوسلافيا تيتو بوصفها المتهم الرئيسي في كل أزماتهم التالية!

عندما تطايرت الأنباء أن سجن جولي اوتوك صار محطة مفضلة لطواقم أفلام البورنو الإباحية قدم رئيس جمعية السجناء السياسيين احتجاجاً غاضباً ضد هذا الانحلال والانحطاط الفكري لـ"رمز الهول الشيوعي"، مضيفاً أن "تضحيات سجناء جولي اوتوك قدمت من أجل كرواتيا مستقلة".. وفي النهاية كان الرجال الذين سجنوا

فيه "ستالينيين"، ومتعاطفين مزعومين لستالين والنموذج السوفييتي للشيوعية. في ذلك الوقت من "المكارثية" اليوجوسلافية كان يفترض في "الشيوعيين المركزيين الصقور" أن يتحولوا إلى نمط تيتو الشيوعي. وبالقدر الذي يخص"الشهداء الكرواتيين"كان هناك أولئك الستالينيين أيضاً، لكن في وقت متأخر؛ فقد هاجر العديد منهم عبر الزمن، وعادوا بعدها إلى كرواتيا في بداية التسعينات ليصبحوا أول"أبطال كرواتيين"، ثم بعدها بوقت قصير"مجرمي حرب"نشرت محكمة"هوج"قوائم باسماءهم.

كان جولي اوتوك مكاناً مورست فيه أشكالاً رهيبة من التعذيب: كانوا يجلبون هناك لا ليحكم عليهم بالموت، لكن ليصبحوا حطاماً إنسانياً؛ أي أنه كان مكاناً للانتزاع التدريجي لإنسانية الإنسان؛ حتى أن بعضهم فضل الموت، مثل رفيق بائس حكى لنا عنه الأستاذ: جز رقبته بملعقة شاي من الألمنيوم! وفي السجن تسابق البعض لإذلال الآخرين، حتى عندما لم يكن هناك ما يجبرهم على ذلك!

— ١٢

في بلد كانت فيه، ولا زالت، الجبانات والأضرحة مكاناً محورياً للصراع بين الخيارات السياسية، انتظر جولي أوتوك ،كمدفن كبير

حزين، مصيره الرمزي. وعلى مدى العشرة أعوام الماضية كان الكرواتيون يخربون الممتلكات العامة والخاصة عمداً، ويفجرون ويبولون على بعض من ثلاثة آلاف نصب تذكاري، وقد أقاموا تلك النصب التذكارية ذاتها ليكرموا ضحايا"الفاشية" . .على أية حال، كان ذلك في حياة أخرى.

هذه بلد لا يبدو أن أحداً فيها قادراً على اتخاذ قرار بأي خيار تاريخي يتبناه رسمياً تلك السنوات الخمسين التي تمثل النسخة اليوجوسلافية المناهضة لكل من الفاشية والشيوعية أم النسخة الأوستاشية الفاشية التي تعود إلى زمن كانت كرواتيا فيه دولة مستقلة. الحقيقة أنه لا توجد للنصب التذكارية سلطة باقية في بلد كهذا؛ فالنصب التذكارية لتيتو والرفاق المناهضين للفاشية دمرت؛ وتم إقامة نصب جديدة بالطبع: نصب تذكارية ل"تودمان"البطل العرضي للأوستاشا . حتى تلك النصب الجديدة لا يمكنها أن تحسب على البقاء، لأن كل ما ستستغرقه مجرد لحظة أو غمزة من الاتحاد الأوروبي، ومن الكرواتيين، وكل الباقين في الطابور ينتظرون، الذين سيكون عليهم اشعال الفتيل مرة أخرى!

تتحول الحياة الآن لتصبح مثل كاتب أفضل وأكثر عقلانية من
الكتاب الآخرين الذين يدعون القيام بهذا الدور: أفضل من
السياسيين، والديكتاتوريين، والقادة العسكريين، والمؤرخين، والمُزيفين،
والمحاربين من أجل خيار أو آخر، والكاذبين، والمجرمين، والقتلة،
والكتاب أنفسهم. إذا لم يكن هناك شيء آخر فإن الحياة تأتي إلينا
بمجازات أكثر ملاءمة لا يمكن التفوق على ميلها للسخرية أو
تجاوزه. وتجتذب الحياة، بميلها لدائرة المجاز الكاملة، المتمثلة في
أولئك الجنسيين العاملين في صناعة الإباحية على الجزيرة (العارية!)
جولي أوتوك، وتستفيد أفلام البورنو حالياً من السينوجرافيا القائمة في
الجزيرة: فكرة الضحية الطريدة المنبوذة، ووحدات السجن المظلمة،
والبقايا العظمية الصدئة لأسِرَة السجن في كل مكان، والحجر
الرمادي لإفريز المباني، ونقوش ورسوم الجدران، وتاريخ الإهانة
الإنسانية؛ وتنتعش صناعة الإباحية اليوم مع التشبث بالمال القذر في
موقع غرف التعذيب السابقة؛ وهو مجرد تغيير بسيط!

أنا أخمن أن الحياة بتتبعها لتعرجات المجاز الثاني يمكنها أن تجلب
الصيادين إلى معسكر جولي اوتوك، وتفترض اللافتة التي تقول"جمعية
الصيادين"، التي لفتت نظري بينما كنا في اتجاه الخروج هذه
الاحتمالية بصورة تامة. يقولون أن سياحة الصيد مربحة جداً

وقد أدخل المترجين من السياحة ،على سبيل المثال، على سطح جزيرة "كرك" كجزء من "البحر المتوسط كما كانت ذات مرة" الخنزير الوحشي (الذي لم يكن أبداً أحد حيوانات منطقة المتوسط)، ويتكاثر الخنزير بسرعة تفوق كفاءة الصيادين حتى أن المخلوقات الموجودة حول الجزيرة تتعرض للتلف؛ الغنم والرعاة معاً !

وإذا ما أتى الصيادون بمباراة إلى جزيرة جولي أوتوك فسوف يجلبون معها مجازاً آخر مكتمل الدائرة؛ مجاز "الصيادين"، وربما أدى هذا إلى حفظ اللغة الدارجة – التي فضلها السجناء– من النسيان، مثل القول: ثمل "تولي زيك"أو الأرنب الساخن، وهو اسم طقس المبادرة أو البدأ للوافد الجديد للمعسكر الذي كان يجبر على الدخول في تحد لمنازلة السجان الذين ينهالون عليه بالعصي والحجارة.

وأشار مصطلح "خطبة الصيد"– في تلميح لسمك السردين– للنظام الذي يوشي به السجناء على بعضهم البعض، فقد كان السجناء يوبخون بعضهم البعض بطريقة مهينة؛ كانوا كلهم يلعبون دور الواشي والشخص الموشى به المُحَقَق معه؛ فإذا أقدم أحد منهم على اقتراف خطيئة الشكوى من شيء ما، يتسمع القائمون بدور الوشاية له ويبلغون عنه، فيعاقب. هكذا تعلموا البقاء صامتين وخانعين؛ وظلوا صامتين فيما بعد عندما أطلق سراحهم، وظلوا صامتين لسنوات، وسقط العديد منهم صريع المرض بفعل الصمت. ويقولون

أن لا أحد نجح في الهرب من سجن جولي أوتوك، فقد كانت مطاردة الهارب ناجحة دائماً حيث أعطت طبيعة الجزيرة اليد العليا للصيادين.

هناك خيار ثالث. إذا تولت الوكالات العقارية (مثل التي لها اسم ينطوي على الإغواء "صخرة المتعة") الأمور بنفسها، لأمكن لجزيرة جولي أوتوك أن تصبح جنة للسائحين الروس، القادرين على الدفع، على سبيل المثال، وإذا ما حدث ذلك لظهرت لحيز الوجود قصة أخرى عن جزيرة جولي اوتوك مكتملة الدائرة.

كانت الجزيرة في البداية سجناً هنجارياً – نمساوياً، وكان السجناء من الجبهة الشرقية (روسيا) يقتلون هناك أثناء الحرب العالمية الأولى. وفيما بعد عاد الروس للجزيرة، وكانوا ممن جاءوا إلى يوجوسلافيا ما بعد الحرب كمستشارين سياسيين وكموجهين أيديولوجيين، أو بلغة اليوم كمديرين لإدارة الشيوعية. وبمجرد أن انطلق الصراع الشهير مع ستالين، ألقى تيتو القبض على المستشارين الروس بداية؛ وكانوا أول المعتقلين في جولي أوتوك بعد الحرب العالمية الثانية. لذلك إذا تولت الوكالة العقارية "صخرة المتعة" مقاليد الأمور في الجزيرة، سيكون هذا مصدراً لانتقام يحقق اللذة والمتعة معاً لأحفاد أحفاد أولئك الروس أيام الحرب العالمية الأولى، وأحفاد المستشارين الروس الذين اعتقلوا بعد الحرب الثانية. ما الذي يمكن

أن يكون أحلى من ذلك!

كل واحد يمكنه أن يحصل على فائدة ما من ماضيه، وعادة ما يحصل عليها؛ فيما عدا الضحايا. لا يحتاج ضحايا جولي أوتوك أية نصب تذكاري فقد أقاموا لأنفسهم نصباً بالفعل، وذلك بزراعة شجيرات الصنوبر تلك، فخلف كل شجرة يقف ظل غير مرئي لسجينٍ سابق في جولي أوتوك ليحمي الشجيرة من الشمس الحارقة مغرقاً التربة بعرقه غير المرئي. هناك، فوق الجزيرة يسمع صوت سقسقة الجداجد (صراصير الليل)، وترى الأغنام تتجول في الجوار تاركة مخلفاتها، ويمر زائر فيقف وينقش اسمه على جذع الشجرة، لكن أشجار الصنوبر الداكنة تظل واقفة في جولي أوتوك دون أن تهتز.

سبتمبر ٢٠٠٥

مواطنون بلا وطن

في النافذة الأكثر تواضعاً في ورش الأختام وصك العملة، يملأ معظم الفراغ أطباق مطلية بالمينا محفور عليها: "مغلق للغداء" أو "ساعة الغداء من ٢-٣ مساء" أو "مغلق لاستراحة الغداء" أو ببساطة "مغلق" أو "المحل مغلق"، وأخيراً تجد لوحة إعلانات سوداء بحروف ذهبية – "مغلق للجرد".

إلف وبيتروف – الساق الذهبية.

أنا واقفة في بنك.. انتظر الناس الذين يقفون أمامي في الطابور لإنهاء معاملاتهم عند نافذة الصراف.

بعد قليل يأتي دوري، أذهب للنافذة، ويقول موظف البنك الشاب بسرعة:

- ليس لديك رقم.

ألتفت لأنظر خلفي؛ لا يوجد أحد، فأقول له:

- لايوجد أحد! لا احتاج إلى رقم.

فيقول الموظف ببرود:

– خذي رقماً أولاً.

– لكن لا يوجد أحد خلفي!

فيقول بطريقة مشاكسة:

- إذا لك يكن لديك رقم فلا يمكنني أن أخدمك.

أقول له شارحة:

- الرقم لمنع الناس من تجاوز الدور، والآن لا يوجد أحد هنا سوى نحن الأثنين.

يرمقني الرجل بنظرة احتقار.. حدقته جامدة، إنه جندي يدافع عن النظام: حيث لا توج مساحة للتفاوض.

لم يكن جوهر الحياة اليومية الشيوعية - على الأقل بالنسبة للشخص العادي - يتمثل في افتقادها للديموقراطية، أو تقييدها للحرية السياسية والدينية والجنسية وغيرها من الحريات؛ أو الخوف في مواجهة سمات الشمولية غير المرئية، أو الطوابير المرئية بوضوح، والمحلات نصف الفارغة.. إنما كان جوهر هذه الحياة يتمثل في التقليل من المنطق الإنساني التقليدي يومياً، وبشكل يكاد يكون لا نهائياً، وتشكل الكابوس الشيوعي من التقليل المتكرر من شأن الفرد في كل المواقف، والغموض المصمت للأشياء المحظورة، واستحالة الحوار والتوافق لإيجاد تسوية للمشكلات، والتحطيم اليومي للرؤوس في ذلك الجدار الأعمى لكل ما هو مناف للعقل.

بدا الناس في الشيوعية مثل العدائين الغارقين في عرقهم، الذين يعدون في سباق حياتهم ويتحملون عبء يبلغ أضعاف حجمهم.

في الشيوعية لا شيء.. لا شيء أبدا مر بسهولة، ولا شيء

يمكن تحقيقه دون احتكاك ما ودون كرب الألم النفسي المبرح: الأبواب عادة مغلقة. . كانت اللافتات المكتوب عليها (يوم الراحة) أو (مغلق للاصلاحات) أو ببساطة (مغلق) جزءً أساسياً من المشهد الطبيعي للحياة اليومية الشيوعية؛ وكانت البارانويا أو جنون العظمة والشعور البالغ بالغرابة جزءً أساسياً للمشهد الآخر - الداخلي- لذلك المشهد الطبيعي.

على أية حال، أمكن لي تداول العملة في البنك في موسكو السوفييتية. . أما في فرع أقوى بنك هولندي، في امستردام في يونيو ٢٠٠٥، لم يكن هناك شيئًا عظيماً في المشهد: مشهد من المشاهد التي صارت تحدث بشكل اعتيادي أكثر فأكثر.

مصطلح نوميريتي أو الرقم الصغير هو واحد من الكلمات الهولندية كلية الوجود. . فبمجرد ضغطة على زر في ماكينة صغيرة تخرج شريحة من الورق عليها رقم. . هذا الرقم الصغير ينتظر العملاء في البنك، وفي مكتب البريد، وفي مكتب الضرائب، وفي قسم الأجانب بمكاتب الشرطة، وفي المحلات، وعادة في عيادات الأطباء، وتقريباً في المكاتب الإدارية.

لا يمكن للشخص، الذي يملك الخبرة بالنظامين الرأسمالي والشيوعي، أن يمنع نفسه من التساؤل ما إذا كانت ضرورات الحياة اليومية في الشيوعية - التي محيت من البلاد التي حكمتها لعقود -

قد تسللت إلى الحياة اليومية في الغرب بشكل غير شرعي.

ما الذي حدث عندما سقط جدار برلين ؟.. تدفقت "الحرية" وعمت البلاد.

فإذا كان ذلك كذلك، فمن المنطقي استنتاج أن هذا التدفق لم يتحرك في اتجاه واحد فقط؛ فهو لم يتدفق فقط من الغرب للشرق، فهل فعل ؟!

حسبما يقضي الاتجاه من الغرب للشرق يشعر أعضاء الجناح اليميني الرأسمالي بالحنين إلى الوسائل الأكثر تواضعاً في الحياة اليومية، ومعاشات التقاعد غير المؤكدة، والجماهير الرأسمالية الحاشدة التي حرمت حقوقها الشرعية، الذين يرغبون في تذكيرهم بمذاق الرأسمالية الطازج. يهاجرون في اتجاه الشرق إلى دول ما بعد سقوط الشيوعية.

الآن توجد بؤرة الرأسمالية في الصين، أو هكذا يقولون.

لكن الناس العاديين في أوروبا الغربية ليس لديهم ما يمكنهم من الذهاب إلى هذا المدى، ولماذا يجب عليهم أن يفعلوا: فهنا توجد فروع ماكدونالد الجديدة اللامعة أمام أنوفهم؛ في شرق ووسط أوروبا، حيث تتجه الحياة اليومية الرأسمالية ورموزها بتيار الهجرة في اتجاه الشرق.

في شرق أوروبا - في بولندا وهنجاريا وكرواتيا- يمكن للأوروبي

الغربي الذي يشعر بالوحدة، والذي يمكنه بالكاد تحمل عملية إرجاء قصير للشعور بالكرامة، العودة إلى ذاته الفردية المقهورة. . يمكن للبلجيكي أو النمساوي أو الألماني أن يتحمل نفقة قص شعره في أرقى محل في بلد ما بعد شيوعي.

وتبقي "جورا" و"جاسيك" و"زوسزا" صالوناتهن مفتوحة حتى التاسعة مساء، وإذا لزم الأمر فهن مستعدات للذهاب بكامل معداتهن إلى غرفتك بالفندق.

اكتشف الأوروبيون الغربيون – المضجرين من الخطوط الأمامية للرأسمالية– في البلدان الشيوعية السابقة، الجاذبية المنسية للمعاملة الملكية والخدمة الشاملة: تقليم أظافر القدمين، والكوافير، وأطباء الأسنان، والترزية، وأخصائيي العلاج الطبيعي، والأطباء، حتى فتيات الهوى.

وتكلف الخدمات التي تقدم بشكل فوري مثل إصلاح الحقائب أمام عين الزبون، وتركيبات الأسنان من التيجان والكباري البورسالين، وشفط الدهون، والتدليك، والطرق الجانبية لقضاء الحاجات، وعمليات الإجهاض، وجراحات المرارة الماهرة، وعلاج النقرس. . كل هذا وأكثر يكلف أقل، ويتم بسرعة أكبر في عيادات ما بعد الشيوعية عن مثيلاتها في الغرب.

كما أن الناس في بلاد ما بعد الشيوعية دمثو الأخلاق ويتوقون

لإرضائك، وقد تآلفوا مع اللغات الأجنبية بسهولة، ولديهم طعام صحي متنوع، وغير مكلف، وسيارت أجرة أرخص بكثير جداً، إضافة إلى فنادق يمكن تحمل تكلفتها.

كل شيء - أو هكذا يبدو على الأقل من منظور السائح- يعمل مثل الساعة السويسرية، رمز الاتقان والفعالية الرأسمالية.. نعم، فالهواء في المناطق ما بعد الشيوعية صحي: فيه الأريج الوافر من المال الطازج والمستقبل الآمن للرأسمالية.

على عكس الهواء في مناطق ما بعد الشيوعية، تجد الهواء في المناطق الأوروبية الغربية الرأسمالية ثقيل ومكهرب، كما لو أن عاصفة قد هبت فيه للتو!.. وتجد الناس عصبيين يدوسون على الآخرين حتى لو لم يدس عليهم أحد، ويعضون الآخرين حتى لو لم يعضهم أحد.

هم لا يستطيعون فهم السر في قيامهم بذلك.. ففي النهاية هم يعيشون في مجتمعات مستقرة، وديموقراطية ومتسامحة، ولديها حساسية اجتماعية.

كل حقوقهم مضمونة.. ربما كانت ضيقة، وغير مقروءة فقط؛ ولا يبدو أن شيئاً يعمل بالطريقة الواجبة.

فقد صار الناس ينتظرون الأتوبيسات بأطول مما اعتادوا، ولم يعد الترام يلتزم بجدول المواعيد، ولم يعد مؤكداً إذا كان سائحاً ما

سيتمكن من الوصول من أوتريشت إلى امستردام في يوم بأكمله.

لقد تقلصت الخدمات العامة لدرجة الفوضى، وصارت البيروقراطية بليدة ومتصلبة.. حسناً! إنه نفس الشيء في كل مكان بتعقب أكثر الوثائق العادية بساطة.

صار كل شخص طبيعي يميل للاستسلام، كما صار البائعون وقحين، ويمكن بسهولة أن يتحول شراء أكثر الأشياء اعتيادية إلى كابوس.

أدرك الأوروبي الغربي المتواضع الذي كان يتباهى بثقته في نفسه لسنوات، عندما شاهد الوثائق عن الروس الذين يقضون يوماً بأكمله منتظرين في الطابور للحصول على الموز.. أدرك هذا الأوروبي فجأة أنه قضى أياماً بلا عائد في سعيه للحصول على الخدمات بالتليفون.. كابلات قنوات التليفزيون (حصلوا رسومها السنوية من حسابه بالبنك ثلاث مرات عن طريق الخطأ ولم يمدوه بالخدمة حتى الآن).. والضرائب (ارسلوا إليه فاتورة بالضرائب بضعف القيمة المستحقة عليه عن العام الماضي).. ومحل الأدوات الكهربية (كان في انتظارهم لشهور ليسلموا له جهاز التليفزيون الجديد لأن الذي اشتراه لم يعمل).. والمستشفى (فقدوا نتائج فحوصه منذ شهور ولا يمكنهم إيجادها حتى الآن).. والبنك (كان هناك خطأ: ظل يدفع لشهور أقساط قرضه بمعدل فائدة يزيد كثيراً من المعدل المسجل في

العقد) . . والمدرسة (رفضوا قبول ابنه في المدرسة ولم يعطوه تفسيراً لذلك) . . وعندما يحصل أخيراً على رقم التليفون الذي طلبه،عليه أن يتبع تعليمات الرسالة الصوتية المسجلة بعناية، ثم يتلقى تحية من تسجيل فظ: جميع المندوبين مشغولين الآن. . الرسالة شفافة وواضحة مثل الكريستال: كل فرد في العالم يعمل الآن، وهو يبدد وقته فقط مطارداً لحظة قصيرة للحصول على عدالته.

المسار البديل المتاح له - غير المحامين المكلفين أو الانتحار- هو إيماءة شخصية إرهابية (وبهذا يمكنه هو أيضاً أن يحصل على شيءٍ من الراحة !): لسوف يبصق في حساء أحدهم، أو يضرب أحداً بكوعه عامداً في الترام، أو يرعب وهو يقود دراجته عابر سبيل من المشاة، أو يطعن عابر سبيل في ضلوعه، أو يجعل أحدهم يدور حول نفسه بلا نهاية إذا أراد استصدار وثيقة يحتاج إليها بشدة، أو يترك قمامته أمام باب جار له، أو يركل فانوس سيارة أحدهم فيحطمه !

احتججت في يونيو ٢٠٠٥ إلى محل تصوير، فامستردام مدينة للسائحين، ويوجد بها العديد من محلات التصوير. . وجدت محلين أو ثلاثة كنت قد تعاملت معها في الماضي تحت التجديد (زاكريتو نا ريمونت !)، وأخيراً وجدت محلاً يعمل، وكان فيه رجلين إنجليزيين من الواضح أنهما من السائحين، وكانت البائعة قد باعت لهما المنتج الخطأ؛ وهي الآن تعيد لهما أموالهما بتكاسل. . غادر الإنجليزيان

وانتظرت.

قامت البائعة - دون أن تلاحظني بالمرة - بترتيب المحل: جمعت رزمة من الورق بعنف والقت بها في سلة المهملات البلاستيكية؛ وأخيراً نظرت إليّ:

- ما الذي تنتظرينه؟

- ماذا تظنين؟! أنا هنا في انتظار..

نظرت إليّ شزراً وومضت دفقة من الإهانة في وجهها (أهنت ذكاءها بأن أجبت على سؤالها بهذا السؤال) وقالت:

- اخرجي من محلي!

هذا مشهد استثنائي أكثر من كونه مشهداً مألوفاً؛ لكن المواقف التي تظهر عدم اللياقة المهنية والنقص المزعج للكفاءة أصبحت متكررة بصورة حادة.

كنت بالصدفة الضحية لإيماءة إرهابية شخصية من بائعة هولندية في امستردام: بائعة مستثارة صبت جام غضبها عليّ.. ومرت على ذهني مشاهد من الذاكرة تنتمي لزمن آخر وأماكن أخرى ما أن غادرت المحل، لم تكن مشاهد حقيقية، إنما ردود فعل انعكاسية: كنت اتخلص من رنين جرس أعرف صوته جيداً؛ طفت على السطح كل حالات الإهانة والإذلال بلا هدف؛ رسم بياني نفسي واضح للواقعية الشيوعية.

لقد جرى تحرير الإنسان، كما تنبأت الشيوعية بالتحديد .

هناك غالبية من المتحمسين من الناس الذين ساهموا في كل شيء دون أن يسألوا أنفسهم أية أسئلة؛ وهناك أقلية لا تذكر من أناس ميالين للشك في كل شيء ممن تراجعوا عن المساهمة.

يعيش المتحمسون، الذين لديهم فرصة طيبة اليوم في حاضر كان الآخرون يحومون حوله ويسعون إليه لأعوام باعتباره "مستقبل مضيء":

يطيرون في رحلات صغيرة إلى كل المحطات، ويملأون المطارات، ويسحبون أطفالهم معهم، ويضربون بكوعهم ليفسحوا لأنفسهم في المتاحف والجاليريهات والعروض، ويتجمعون في كنيسة "سيستين" مطلقين شهقات إعجاب جماعية، ويشقون طريقهم بصعوبة خلال "الماماو" الأوروبي والأمريكي، بنفس الطاقة التي يتجولون بها حول الأسواق الاستهلاكية، ويسافرون في فترات الذروة، ويتسلقون الهيميلايا، ويغطسون في البحر الكاريبي وبحر الكاياك، ويترددون على المناطق السياحية، وينشئون مناطق جديدة، ويشترون أي شيء وكل شيء، ويحدقون ببله في آلاتهم الإعلامية، ويتكاثرون، ويدفعون أقساط بانتظام؛ ويموتون!

ويبطئ المتشككون من إيقاعهم وينسحبون تدريجياً: يتقاعدون في الأربعين، ويلغون كل الاشتراكات، ويغلقون حساباتهم في البنوك،

ويمزقون كروت ائتمانهم، ويشترون ما يحتاجونه نقداً فقط، وينتقلون من العنوان المسجل باسمهم إلى عنوان ليس له وجود على القائمة. . وفي العنوان الجديد يفعلون ما يمكنهم كي يعيشوا بشكل أكثر "إنسانية"، بالطريقة التي عاش بها الناس في الدول الشيوعية في الستينات فيزورون الآخرين، ويتبادلون الحديث في المقهى، ويتجاذبون أطراف الحديث مع الجيران، ويصنعون ملابسهم بأنفسهم، ويخيطون ستراتهم لأنفسهم ولأطفالهم، ويصنعون مربى التوت (من التوت الذي ينمو في حدائقهم)، ويتبادلون وصفات وطريقة صنع الأطعمة، ويلعبون مع الأطفال، ويقضون وقتهم بحرص مع الوعي التام ينفقونه من أصل حياتهم القصيرة. . وبينما نجد أعضاء المجموعة الأولى، الحماسيين، من المعجبين بالسوق وأيديولوجيته، نجد المجموعة الثانية "المنسحبين من خطوط المواجهة الأولى مع العمل"، من الداعمين بقوة للخروج من التسوقة (عملية تحويل كل شيء حتى يمكن تطبيق مبدأ السوق عليه).

خاضت الرأسمالية اليوم عميقاً في وحل الشيوعية.

الحقيقة أن مفهوم أن العمل هو الذي خلق الإنسان مفهوم شيوعي بجدارة؛ واليوم، صار الإنسان سيداً حقيقياً لجسده ويعتنق مبدأ "أفعلها بنفسك – لنفسك". . فهو يفعل كل شيء بنفسه دون استغلال من الآخرين، فقد صار يقوم بنفسه بالخدمات التي كان

يقدمها له الآخرون. . فهو يقوم بعمل ترتيبات سفره: يختار الجهة أو المحطة التي يريد الذهاب إليها، وأفضل الأسعار، ويحول المال من حسابه إلى حساب مكتب السفريات، ويؤكد بنفسه الحجز في المطار.

اليوم، يمكنك شراء كل شيء عن طريق الانترنت، حتى حوض المطبخ، وفي الأماكن الكبرى للبيع بالتجزئة التي صممت كمكان لتجمع الناس. . ومن الصعب أن تجد بائعاً: يختار المشتري ملابسه بنفسه، وينتظره عند تركه المحل كونتر الخروج، وهو خبير به كشيطان ضروري للتواصل.

توجد في الشوارع في أمريكا كومبيوترات تبدو مثل ماكينات الصراف الآلي، ويمكن للشخص، الذي يتنزه في الشارع ويصاب بالصداع، أن يضغط على زر فيجد ورقة تقول له كل ما يحتاج معرفته عن نوبات الصداع. . حتى أننا يمكن أن نتخيل أنه في المستقبل ستتاح للمرء بيسر خدمات أكثر تعقيداً :

تخيل شخص في طريقه للمستشفى يدخل في أداة أوتوماتيكية للفحص، ويقرأ النتائج في الحال، ويقوم بإجراء الجراحة المطلوبة بنفسه عن طريق كومبيوتر مرشد، وبالطبع سوف يعمل هذا النظام فقط إذا كان كل شيء يعمل بسلاسة ونعومة، ولم تتعطل أجهزة الكومبيوتر عبر العالم.

وسوف يتمكن أي شخص مهتم بالمتاحف، من اكتشاف كيف كان عالم العمل وتبادل العمالة يسير في الأيام الخوالي.. وسيتمكن الزائر لمتحف الثقافة الصناعية من أن يضغط على شاشة وزر ما، ثم ينزل إلى ممر منجم ما ويأخذ قطفة مما يستخرجه عامل منجم افتراضي، ويحفر في عروق افتراضية في المنجم مع القطفة، وأن يشعر بكيفية تساقط عرق افتراضي أسفل ظهره.. وما أن يتوقف ولا يمكنه أخذ المزيد، يضغط على زر آخر ويفجر ثورة افتراضية، حتى يتخلص من الاستغلاليين الممقوتين!.. ثم سيتوقف للحظة، تاركاً خلفه ضوء الممر في المنجم، ويفكر كيف كان للاستغلاليين في الأيام الخوالي وجه، واسم أول واسم أخير، وسوف يبدأ بعدها لا محالة في التساؤل عمن هم الاستغلاليين اليوم.. وسيتبين له أنهم صاروا غير مرئيين اليوم، وربما لهذا السبب يبدو الناس معتقدين أن لا وجود لأحد منهم.. فهل هم موجودون فعلاً ؟ ..هل هناك طبقات اجتماعية ؟ وإلى أي طبقة ينتمي هو ؟.. ومن هم أعداؤه ؟ وماذا عن حلفائه ؟ أين هم ؟.. هل من الممكن أن يكون قد ترك وحيداً في هذا العالم ؟

صارت جزيرة جيرنالاند محطة سياحية ذائعة الصيت، أو هكذا يقولون، خلال السنوات القليلة الماضية.. يذهب إلى هناك، أناس يعانون من الاجهاد العصبي وانتفاخ جيوبهم المتخمة بالمال، لمشاهدة

النهر الجليدي، وأثناء مشاهدتهم للأنهار الجليدية بإعجاب في وضح النهار، تتحرك تلك الأنهار الهائلة ببطء شديد، وتومض بصورة ساحرة ببريق أزرق بلون الحليب، متدفقة مثل كتل من مزيج السكر وبياض البيض المخفوق في كريمة حلوى مغلية.. يحبس الناس أنفاسهم، ويحدقون في كتل الجليد الضخمة، بينما الهواء بارد ومنعش، ويتناثر في السماء عدد لا يحصى من النجوم الكبيرة..

هناك، في مكان ما بين النجوم، توجد آلة الرد الإلهي، وهي تردد وتعيد رسالة بكل لغات العالم، لا أحد في الدنيا يعرف عمرها: كل مندوبونا مشغولون الآن...!!

يونيو ٢٠٠٥

عن المؤلفة

من الممكن أن يتساءل القارئ لم قدمت له الكثير من الاستشهادات والمقاطع من رواية "الساق الذهبية" . . دعني أشرح الأمر:

أشعر أن كل كاتب يجب عليه أن يدفع نوعاً ما من "ضريبة" أدبية رمزية، لأن استدعاء الكاتب ليس أمراً أكثر تواضعاً من النداءات الباطنية. . هي إذن ضريبة على الأنانية.

تقريباً كل كتبي تحتوي على إحالات وإشارات من أعمال أدبية أخرى. . هذه طريقة لدفع ضريبة رمزية، والأهم أنها لتذكير القارئ بأن الأدب نظام ثقافي عظيم.

وإذا كان النظام الأساسي لجنس مختار من الأدب - أو الكتاب نفسه- لا يتيح سبلاً أخرى أكثر براعة ودقة لإعلان البيعة والولاء لأسلافي من الأدباء (أو الأدباء المعاصرين) كما هي الحال مع هذا الكتاب؛ لهذا استخدم الاستشهادات.

أقوم بذلك تحدوني آمال بأن القارئ سيقرر أن يقرأ الكتب المهملة على نحو غير ملاءم والتي لم يقرأها، أو التي لم تحظ بنصيب مناسب من الشهرة، وتعد رواية الساق الذهبية لـ"إلف وبيتروف" واحدة من مثل هذه الكتب.

امستردام ٢٠٠٦